

عمارة النسيء

تأليف

الدكتور ذوالنون المصري

أستاذ الدراسات العربية بكلية المعلمين في القاهرة



مكتبة الطبع والنشر
مكتبة النهضة المصرية
لأصحابها حسن محمد وأولاده
٩ شارع عدلي بإسكندرية

١٩٦٦

عمارة النسي

نأ ليف

الكُنُوز والنون المصري

أستاذ الدراسات العربية بكلية المعلمين في القاهرة

أنا العربي المحض شعراً ومعمراً إذا شان قوما شعراً أو عشيها
عمارة النسي



ملزمة الطبع والنشر
مكتبة النهضة المصرية
لأصحابها حسن محمد وأولاده
٩ شارع عدلي بإسكندرية

١٩٦٦

شبكة كتب الشيعة



shiabooks.net

رابط بديل < mktba.net

دار الشؤون الثقافية
لصاحبها: محمد عبدالرازق

١٩ كنيسة الأرمين في الميمنة
تليفون : ٩٣٤٠٩٨

بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير

هذا أول كتاب ألفته يطبع وينشر على الناس ، بعد أن ظل حبساً
مخطوطاً نحو ربع قرن من الزمان . وهو عبارة عن رسالة جامعية تقدمت
بها - في فجر الشباب - إلى كلية الآداب بالجامعة المصرية ، للحصول على درجة
الماجستير . وقد أغراني الظفر بها إلى الاستمرار في التأليف ، حتى تجمع
لدى عدة كتب في شتى الموضوعات . فاخترت أحدها منذ تسع سنوات .
وتقدمت به إلى جامعة القاهرة ، فنلت به درجة الدكتوراه .

والشيء الملفت للنظر حقاً أن رغبتى في القراءة والبحث والتأليف تقف
في صف مضاد تجاه عزوفى عن طبع ما أؤلف . ولعل شواغل الحياة ،
وعدم مواناة الظروف ، والرغبة في الإرباء بالنفس عما يمسه ،
والانطوائية التي توشك أن تكون انقباضاً . . . لعل ذلك كله ، أو بعضه
مما قعد بي عن طبع هذه المؤلفات .

فلما تلاحت الجمهوريتان : العربية المتحدة والعربية اليمنية في وقتنا
الحاضر ، وارتبطت ثورتاهما في الأسلوب ، والهدف بدأنا نفتش في
أغوار الماضى عما كان بين الإقليمين العربيين من صلات ، وما كان
يربط بينهما من أسباب . وكان في تصورى أن عمارة البنى نموذج
واضح لما يستطيع أن يفعله الإنسان العربى حين يعلو فوق الحدود
المصطنعة التي تفرق بين أبناء الشعب الواحد ، ويتنقل هنا وهناك فوق
أرض عربية واحدة ، وبين إخوان عرب يتكلمون لغة واحدة ، ويجمعهم
تاريخ واحد ، ومصير مشترك . ولم يكن عمارة وحده بدعاً في هذا العمل ،

ولما رأينا شخصيات لامعة غيره قامت بالسفارة بين الإقليمين : المهرى
والبنى فى منتصف القرن السادس الهجرى :

فأبو الفتوح نصر الله بن عبدالله اللمى الإسكندرى ، الشاعر المهرى
المعروف بابن قلافس ، قد سافر إلى البنى ، ودخل عدن سنة ٥٦٣ هـ ،
واتصل بدعاتها ، ومدح أمراءها .

والقاضى المذهب ، الحسن بن على بن إبراهيم بن الزبير الغسانى ، أديب
أسوان الكبير ، وجليس الوزراء والكبراء فى القاهرة خلال أخريات
العهد الفاطمى ، قد أوفد فى سفارة إلى البنى ، وهناك اطلع على كتب
الأنساب ، وجعلها مصدراً لكتاب كبير صنّفه فى نحو عشرين مجلداً ،
كما تقول بعض الروايات .

وأخوه القاضى الرشيد ، أحمد بن على بن إبراهيم ، الذى ولى النظر
على الدواوين السلطانية بالإسكندرية زمن الخليفة العاضد ، قد سافر إلى
البنى أيضاً ، وبقي هناك سنتين ، حيث لقب « بقاضى قضاء البنى ، وداعى
دعاة الزمن » .

وإذن فن الحير أن نتحدث عن هذه الصلات القديمة التى تمت بين
الإقليمين ، لعل فى إذاعتها ما يزيد من تقوية الأواصر ، ويربط بين
الماضى والحاضر .

ولهذا بدأت أفكر فى طبع « عمارة البنى » باعتباره يميناً مصرياً ،
وعربياً نابهاً ، والتعريف به فى مثل ظروفنا الحالية يزيدنا ارتباطاً بإخواننا
البنين ، ويشير إلى علاقة كانت وطيدة بين الإقليمين منذ قرون وقرون .
ولكن أعراض ذلك الانقباض اللعين أخذت تطل برأسها من جديد ،

وبدأت تقف حائلاً دون هذه الرغبة ، وبقيت متردداً أكثر من عامين ، حتى أحس بهذا التردد زميلي العزيز الدكتور نظير حسان سعداوى ، الأستاذ بكلية المعلمين ، فهدانى رأيه ، بل أمره إلى ضرورة الطبع والنشر ، وأخذ يبدى — مشكوراً — إلى حيث انكسر هذا التردد ، وكان طبع هذا الكتاب .

وأيا ما كان ، فلم أشأ أن أغير فى هذا البحث شيئاً كما وضعته منذ خمسة وعشرين عاماً ، لا فى الصورة ، ولا فى المضمون ، اللهم إلا بعض تغييرات شكلية طفيفة ، اقتضاها فن الطباعة ، وتطلبها منهج الإخراج الحديث . حتى المراجع نفسها بقيت على حالها ، مع الإشارة فى الهوامش ، أو فى صلب الموضوع إلى ما حدث بشأنها ، من حيث التغيير ، أو الطبع ، أو نحو ذلك . وليس هذا جهوداً ، أو إبقاء على قديم مضى ، وإنما لأن ما رأيته فى صاحب الترجمة منذ اتصلت به لم يزل كما هو ، بل لقد زادنى مرور الوقت إيماناً بهذا الرأى ، وإصراراً على الدفاع عنه .

وما توفيقى إلا بالله ، عليه توكلت ، وإليه أنيب ،

مصر الجديدة | ٢ من ذى الحجة سنة ١٣٨٥ هـ
٢٥ من مارس سنة ١٩٦٦ م | ذو النور المصرى

مقدمة

حينما كنا نختلف إلى دروس الأدب العربي في كلية الآداب ، زمن الطلب ، كنا نتلقى على أساتذتنا - فيما نتلقاه - دراسة مفصلة عن تاريخ الأدب وأعلام الأدباء ، في كثير من البيئات العربية والإسلامية : في العراق والشام والجزيرة ، وكنا نبكر مع الزمن فنتحدث عن أدب الجاهليين ، ونسير معه حتى أواخر القرن الرابع الهجري . وقد يستمر سيرنا حتى نصل إلى العصر الحديث ، فلم بأدبه إلماً ، ونرد حول في شيء قليل من الإحاطة ، وعرض يسير من الإيجاز . أما البيئة المصرية الخاصة ، والأدب المصري الخاص ، فكان حظهما من العناية جد قليل . ولعل السبب في ذلك - فيما أتصور - أن مصر لم تكن حتى منتصف القرن الرابع في مركز يسمح لها بمنافسة حواضر الإسلام الكبرى ، كبغداد في الشرق ، وقرطبة في الغرب ، فكان النابغون من الأدباء والشعراء يهجرون مواطنهم الأولى ، ويحجون إليهما ، رغبة في التمتع بعطايا الخلفاء والوزراء ، فتتج عن ذلك رواج السوق الأدبية في تلك الحواضر وما حولها ، وضعفها في مصر وأمثالها من البيئات . وبعض مشاهير الأدباء والشعراء كانت تحملهم الظروف إلى مصر ، فلا يلبثون أن يغادروها ، بعد أن يتركوا لنا أدباً متأثراً إلى حد ما بمظاهر الحياة المصرية ، كأبي نواس حين وفد على الخصب ، والمتنبى لما اتصل بكافور الإخشيدى . ففي هذه الظروف فقط كانت تثار البحوث حول البيئة المصرية ، وإلى حد أثرت في شعر هؤلاء الشعراء .

فلما بدأ الانحلال السياسي يظهر في بغداد وقرطبة بعد القرن الرابع ، وظهر أمر الفاطميين ، واستولوا على مصر ، وأنشئوا القاهرة ، وجعلوها

حاضرة لدولتهم ، وأسسوا بها جامعة الأزهر ، لنشر مذهبهم الشيعي ، واجتذبوا إليهم أدباء العرب ، وأغدقوا عليهم العطايا ، وخصوصهم بالأرزاق لينشروا مذهبهم ، ويشيدوا بمجدهم . لما تهيأت لمصر كل تلك الظروف خلقت بالقاهرة بيئة جديدة جعلت تنازع بغداد وقرطبة زعامتهما الأدبية ، وحالفها النصر أخيراً خلفتهما في الزعامة السياسية لدول الإسلام ، وخصوصاً في عهد الأيوبيين . وحملت مصر على عاتقها ، منذ ذلك الحين ، عبء الدفاع عن الإسلام والمسلمين ضد خطر الصليبيين أولاً ، والمنغول ثانياً .

في هذه الدنيا الجديدة ظهر أدب جديد ، له مقومات خاصة ، وانجاهات متميزة ، ومظاهر مستمدة من الحياة المصرية والروح المصرية . وكان من الخير إذن أن نرى اتجاه المتأديين والباحثين إلى دراسة الأدب العربي المصري في هذه العصور ، لأنه فضلاً عما فيه من خير كثير نجد في إثارته وإحياء مواته ما يرضى كبرياءنا نحن المصريين . ولست أدعو إلى دراسة الأدب المصري الذي ينتجه المصريون الخالص فقط ، ولكني أريد أدباً مصرياً بمعنى أوسع : أريد الأدب الذي توطن أصحابه في بلادنا ، وعاشوا على ضفاف النيل ، واستقرت حياتهم بين ربوعه ، وشاركوا أهله آلامهم وآمالهم ، وتأقلم لذلك أديبهم ، وتمهتت أفكارهم وتصوراتهم ، بمستوى في ذلك الذين هم من أصل مصري ، أو الذين جذبتهم مصر إليها من أقطار أخرى ، فطابت فيها حياتهم ، وجعلوها وطناً ثانياً .

وإذن فقد ورثت القاهرة بغداد وقرطبة ، وصارت تشع منها أنوار العلوم والآداب على بقاع العالم العربي المختلفة . وقد كان واجباً علينا — نحن المصريين — أن نهتم بهذا الأدب ، وندعوه له ، ونتعمق في بحثه ، وننشر روائعه على الناس . ولكن الواقع أننا أهملناه ، وعكفنا على درس الأدب

العربي في الجزيرة والشام والعراق والأندلس ، وخصصنا كثيرا من وقتنا وكثيرا من مؤلفاتنا لدراسة جرير والفرزدق والأخطل ، وأطلقنا وأسرفنا في أدب أبي نواس ، والمتنبي ، وأبي تمام ، ولماذا اختلف أدب الحجاز عن أدب العراق والشام في زمن الأمويين ؟ وما الصلة بين أدب الأمويين وأدب العباسيين ؟ . . وإلى أى حد تميز أدب أهل المغرب عن أدب أهل المشرق في الصورة والمضمون ؟ . . كل ذلك فتنا به ، وتها لكنا عليه ، وفضلناه لانرضى عنه بديلا . أما أدبنا الوطني الإقليمي الذي يصور الأوساط المصرية ، ويعبر عن المزاج المصري فقد أسقطناه من الحساب .

حتى مؤلفات الأدباء ، قد تعرضت هي أيضا للمحسوبة والاستثناءات ، كما يشيع على الألسنة في هذه الأيام ، فبينما تطبع دواوين أكثر الشعراء الجاهليين والأمويين والعباسيين ، بل إن بعض تلك الدواوين قد طبع ونشر أكثر من مرة ، وناله شيء كثير من العناية والشرح والتعليق ، بينما يحصل كل ذلك نجد آثار أكثر شعرائنا وأدبائنا المصريين لازالت مخطوطة ، حبيسة بدور الكتب في الشرق والغرب ، تنتظر من ينفخ في روحها ، لتسترد الحياة وترى النور .

وحى الله بعض المستشرقين ، فقد عنوا بأمر هذه المخطوطات ، واقتنوها ، ونشروا بعضها ، وتركونا تهادى في هذا العقوق . ويظهر أن هذا الشعور قد عرض أخيرا الأولى الأمر فينا ، فوجهوا إليه عنايتهم ، وتناولوا بالتحوير دراسة الأدب العربي في كلية الآداب ، وكان للأدب المصري في هذا التحوير حظ عظيم ^(١) .

(١) أشير بهذا إلى إنشاء كرسي للأدب العربي المصري لأول مرة ، في كلية الآداب ، نولاه أساذنا المرحوم الدكتور أحمد أمين .

لا أدري كيف كنت مشغولاً بالأدب المصرى وقت الطلب ، فكنت أطيل النظر فيه ، وأمعن فى مطالعته ، وأستسيغ ما خلفه أعلامه من شعر يفيض عذوبة وظرفاً ، وتغمر معانيه الرائعة نفسى ، فأشعر بوقعها الهادى فى روحى ، وأثرها المبهج فى مشاعرى . أكان ذلك الشغف لحلاوة الأسلوب ، وموسيقية التركيب ، وروعة الأداء ؟ أم للبعان الطريفة ، والصور المستملحة ، والذوق السليم ؟ أم لخروج هذا الأدب من وسط مصرى ، وروح مصرية ، تتفق مع ذوق كمصرى ؟ أم كان شغفى لهذا كله ؟ والشئ المهم بعد هذا أنى لم أتمكن أيام الطلب من دراسة أدبنا الوطنى المصرى دراسة تعمق واستقصاء ، بل عمدت إلى مطالعته واستعراض ما خلفه بعض أعلامه ، رغبة فى اللذة والمتاع ، وتركت مادون ذلك حتى تحين الظروف المواتية . فلما صحت عزيمنى على التقدم إلى كلية الآداب برسالة للحصول على درجة الماجستير ، كان من الطبيعى أن أتجه فى اختيار موضوع الرسالة تلك الوجهة التى طالما شأقتنى ، والتى وطنت نفسى على إثارتها مهما يلاقى من صعاب .

بهذا الاستعداد أقبلت على الأدب المصرى فى عصر الفواطم والأيوبيين أقلبه ، وأفتش عن موضوع يرضينى ، ويخدم الغرض الذى أرمى إليه . وتصادف أن قابلت فى هذه الأثناء أستاذنا الكبير عبد الحميد العبادى ، فأطلعت على وجهة نظرى ، فمدانى أمره إلى أن أضع رسالة عن عمارة اليمنى ، لأنه شخصية جديرة بالدرس ، لما خلفه من آثار قيمة فى الأدب والتاريخ ، ولما كان له من خطر بمصر فى أواخر عهد الفاطميين وأوائل عهد الأيوبيين . فصادفت هذه الرغبة هوى فى نفسى ، وأخذت أقرأ مخلفات عمارة ، وأستعرض حياته فى كتبه وكتب من أرخوا له ، وأستخلص النتائج على ضوء ما قرأت وما وعيت .

ولكنى حينما أوغلت فى البحث تشعبت أمامى مراحل الدرس ،
والتوى على السبيل : فظهرت لى شخصية صاحبنا معقدة بعد إذ كنت
أتخيلها بسيطة ، وتكشفت لى أمور فى عقائده الدينية والسياسية تخالف
ما تكشف منها أمام كثيرين من الباحثين . والأقاليم التى استوطنها لم ترمه
رجلا ينفق أيامه فيها على نحو مايفعل جمهور الناس ، ولكنها لاحظته
ينفقه على أسلوب يلفت الأنظار ، ويغرى بالمراقبة والاستفسار . وأدبه ،
ذلك الذى يتجلى أكثر مايتجلى فى الشعر ، ليس من الرخاوة واللين
كما كنا نعتقد ، وكما لا يزال يعتقد بعض الناس ، وإنما هو شعر أكثره من
الطراز الأول ، ولا أكون غالبا إذا قلت أنه يقف فى صف واحد مع
ماخلفه أعلام الشعر فى أزهى العصور . هذا إلى أن الدراسات الأدبية
لتلك الأزمان وفى تلك الأوطان ما زالت غامضة ، ولم يمسه البحث العلمى
الحديث بعد .

وإذن فهذا الموضوع لن يتأتى فى سهولة ويسر ، وتلك التجربة ستحملنى
بعض العناء . ولكنى مادمت مؤمنا بهذا الأدب ، ومخلصا لتلك التجربة ،
فإن العقبات التى اعترضتنى لم تزدنى إلا رغبة ، وكنت أجد فى التغلب عليها
متاعا ولذة .

وأول شيء لفت نظرى فى شأن صاحبنا عقيدته الدينية ، فقد كنت
أعلم قبل أن أفكر فى دراسته أنه سنى شافعى ، فلما قرأت آثاره الأدبية
والعلمية ، واستعرضت الظروف التى أظلت حياته ، خيل إلى أنى كنت
على شيء غير قليل من الخطأ ، وذلك لأنه انحاز إلى مذهب الشيعة ، وسلك
نفسه فى زمرة الناطقين بها ، تدل على ذلك أشعاره ، ويترجم عنه تاريخ
حياته ، ومنطق أعماله . ثم لما قرأت ما كتبه عنه المؤرخون والكتاب
وجدتهم يقولون فى شبه إجماع أنه سنى شافعى ، بل ومتعصب لسنيته .

كيف التوفيق؟ وأين الحقيقة؟ والمهم بعد هذا أنى رحت أنلّس الخلاص ،
وأسوى بين المتنافرات ، حتى وصلت إلى ما أعتقد أنه الحق والصواب .

وأجمعوا أيضاً على أنه فقيه ، ودعاه بعضهم بالقاضى ، وقال هو عن
نفسه إنه تفقه على مذهب الشافعى ، وألف فى فقه هذا المذهب . فإذا
مارحت أنلّس هذا الفقه ، وأفتش عن هذا التأليف رجعت بغير طائل .

وقد أنفق حياته الأولى باليمن ، وأكبر الظن أنه قرض الشعر فى وصف
ربوعه ومدح عظمائه ، بل أنه صرح بذلك ، ووافقه جمهور الكتاب . فأين
إذن غرامياته ، ووجدانياته ، ومدائحه ؟ بل أين مدائحه فى أهل الشيعة
العدينيين ؟ هؤلاء الذين أنس إليهم وأنسوا به ، ولاقى فى سبيل صداقتهم
مالا لاقى من مطاردة وضيق ؟ لم يبق من ذلك إلا نذر يسير جداً لا يتفق مع
هذه الحياة الشعرية الحافلة . كل ذلك احتاج إلى تفسير ، وكل هذا لجأت
فى تحقيقه إلى شيء من المشقة غير يسير .

وقد استوطن عمارة بيئات متباينة وأقطاراً مختلفة ، فجاء أدبه وتفكيره
مرآة للحياة الدينية والسياسية والاجتماعية فى هذه البيئات وتلك الأقطار :
أقام شطراً كبيراً من حياته الأولى فى اليمن ، وشطراً كبيراً من حياته
الآخيرة فى مصر ، وكان يعبر الحجاز عبوراً فى تنقلاته بين البلدين .

أما فى اليمن فشاهد أموراً سياسية معقدة ، ومذاهب دينية متنافرة ،
وأحوالاً اجتماعية مضطربة ، فقد انقسمت البلاد على نفسها ، وتفرق أهلها
شيعياً فزبيداً وما حولها من جهات تهامة يتولى الحكم فيها بنو نجاح ، وهم أحباش
سنيون يخطبون للعباسيين ، وكان بنو نجاح على درجة من الضعف جعلت
أمر الحكومة موكولاً إلى وزراءهم من العبيد . وعدن وما حولها تحت حكم
بنى زريع ، وهم شيعة من دعاة الفاطميين . وكان النزاع بين المذهبين —

السنى والشيعة - على أشده ، وكثيراً ما قامت الحروب بينهما ، فانهطعت بسبب ذلك المواصلات ، واضطرب الأمن ، وشاع الفقر .

فى هذه البيئة المضطربة أنفق عمارة أيام الصبا وسنى الشباب . ورأى بثاقب رأيه أن يصادق الفريقين ، وينتقل ما شاء بين المعسكرين . فأولاده وأهل بيته مقيمون فى زبيد ، وعلاقاته مع أصحاب الحكم فيها على جانب عظيم من الثقة ، وهو فى الوقت نفسه ذو مقام كريم لدى دعاة الشيعة الزريعيين ، وأعماله التجارية الواسعة التى أخذ يزاولها ، أصبحت رابطة بين البلدين ، ومع أصحاب المذهبين ... ولكن بعض اليمنيين لم يرضوا عن هذا المسلك ، وبدءوا يظنون بصاحبنا الظنون ، فحاول أن يصلح ما بينه وبينهم ، ولكن تتابع الحوادث كان أسرع مما ظن ، فلم يطب مقامه ببلاد اليمن كلها ، وآثر أن يغادرها إلى قطر جديد .

هرب صاحبنا إلى الحجاز وأقام فيه بعض الوقت ، ثم غادره إلى مصر سفيراً عن أمير مكة لدى دولة المصريين . ولم يمض عام على دخوله فيها حتى عاد منها إلى الحجاز فالتين . ويظهر أن ما لقيه فى مصر من عناية ورعاية ، وما أصابه فى اليمن من عنت وضيق ، حجب إليه الرجوع إلى مصر ، وقد ساعدته الظروف على نيل ما يريد .

وحين عاد إلى مصر استقرت حياته فيها ، وقضى بين ربوعها بقية أيامه . وقد أظلمت بمصر ، فى أول أمره ، بيئة شيعية خالصة ، ودولة سياسية موحدة ، واختلط بقوم يخصونه بالتعظيم ، ويحيطونه بالرعاية ، ويقدمون إليه ما يشتهى من نعيم الحياة وطيبها . ولكنه لاحظ من جهة أخرى هوان أمر الخلفاء بجانب مركز الوزراء ، فقد صارت الخلافة فى أواخر عهد الفاطميين هزواً وسخرية ، وعظم أمر الوزراء حتى لقبوا أنفسهم بالملوك ، وجعلوا الوزارة وراثية فى أبنائهم ، ومن هنا كان التناحرن على

أشده بين المستوزرين ، وكانت الثورات في ذلك لا تخمد نارها ، وقتل الوزراء يتلو بعضه بعضا . أما الشعب فلا عمل له إلا إقرار الوزراء على ما يعملون .

في وسط هذا الانحلال الداخلي ظهر خطر خارجي يهدد الفاطميين، وينذر المسلمين ، ذلك هو خطر نور الدين زنكي السني صاحب دمشق ، وخطر الصليبيين . ولم يشأ رجال الحكم في مصر أن يتنبهوا لهذا النذير ، واستمروا في المشاحنات حتى فاجأتهم الجنود النورية ، وعلى رأسها أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين ، فعجل ذلك بسقوط الخلافة الفاطمية ، وقيام الدولة الصلاحية على أنقاضها .

أنفق عمارة من عمره نحو عشرين عاما في هذه البيئة المصرية ، بنجرها وشرها . وقد حظى لدى خلفاء الفاطميين ووزرائهم وعظمائهم بأسمى مقام ، وأغدقوا عليه من العطايا ما لا يقل عن عطايا الأكابر من حكام الإسلام في غابر الأزمان . ولما استبدد الصلاحيون بالأمر نال صاحبنا شر كبير : فقطعت رواتبه ، واضطربت أموره ، واعتبرته الدولة من الخارجين عليها ، فذاق بعد حلول العيش مرارة الحرمان . هذه الظروف المتقلبة ، والأحوال المتغيرة ، قد شكلت أدب صاحبنا ، ولونته بصور متفاوتة تختلف فيما بينها تبعاً لاختلاف بواعثها ومراميها .

* * *

وما تجدر الإشارة إليه أن أحداً من الأدباء القدماء أو المحدثين لم يخص كتاباً مستقلاً في أدب عمارة ، وحول عمارة ، إذا استثنينا كتاباً واحداً ألفه بالفرنسية المستشرق هـ . ديرنبورج 'Hartwig Derenbourg' . وكل ما ذكر غير ذلك شذرات وردت في بعض الكتب ، لمناسبة طارئة

أو لفكرة عارضة . كما ترجم له بعض مؤلفي التراجم ، ضمن من تعرضوا لهم من الشخصيات ، ولكنها سطور أو صفحات قليلة ، ينقلها بعضهم عن بعض . أما مؤلفاته فبقيت مخطوطة حتى قبض لها الله بعض المستشرقين في أواخر القرن الماضي فطبعوها ونشروها بين الناس .

وأياً ما كان ، فقد جعلت هذا البحث في ثلاثة أبواب ، وقسمت كل باب إلى ثلاثة فصول . ثم ختمته بتذييل تحدث فيه عن آثار عمارة التي بين أيدينا الآن .

* * *

وأختتم مقالتي ، بما كان يجب أن أبدأها به ، فأتقدم بوافر الشكر لأستاذي الجليلين : الأستاذ أحمد أمين ، والأستاذ عبد الحميد العبادي ، فقد حظيت بالتلمذة عليهما ، والسير وراء إرشاداتهما ، وكان من وراء ذلك تلك الرسالة التي أقدمها بين يديهما رجاء أن تنال شرف القبول ؟

ذو النون المصري

مصر الجديدة في أول أبريل سنة ١٩٤٠

مصادر البحث

- ١ - لقد اتخذت آثار عمارة الأدبية والعلمية عمدة المصادر ، يستوى في ذلك شعره ، ونثره ، وتاريخه ، وقد أفضت في شرحها أثناء البحث .
- ٢ - « سيرة عمارة اليمن وآثاره » ،

Oumara du yémen. Sa vie et son Oeuvre

ألفها بالفرنسية المستشرق هـ . ديرينبورج H. Derenbourg ونشرت في باريس سنة ١٩٠٤ م . وهي في ستة فصول ، مع مقدمة وفهارس قيمة . وربما كان هذا الكتاب أول بحث عن مؤلفه بأمر عمارة : طفولته وتعليمه ، وشبابه ، (الفصل الأول) . تنقلاته بين زبيد وعدن ، (الفصل الثاني) . سياحاته في أنحاء الجزيرة ، وسفاراته إلى مصر ، (الفصل الثالث) . إقامته بمصر حتى موت الوزير العادل بن الصالح بن رزيق ، (الفصل الرابع) . عمارة وعلاقته بالوزيرين : شاور وضرغام ، ثم موتها ، (الفصل الخامس) . وزارة شيركوه ، ووزارة صلاح الدين . موت الخليفة العاضد ، وسلطنة صلاح الدين . مؤامرة عمارة ومقتله ، (الفصل السادس) . كل هذا نجده مفصلاً في هذا الكتاب القيم . ويزيد في قيمة هذا الكتاب أن صاحبه أول من توفر من الباحثين المحدثين على دراسة عمارة كشاعر ، أديب ، مؤرخ . ونشر كثيراً من آثاره ، شعراً ونثراً .

٣ - « خريدة القصر وجريدة العصر » ، لعبد الدين الأصفهاني الكاتب : أبي عبد الله محمد بن أبي الرجا ، المتوفى سنة ٥٩٧ هـ ، والمعتبر في رأى بعض الباحثين سكرتيراً لصلاح الدين الأيوبي في المسائل السورية ، ومؤرخاً للشعر العربي في القرن السادس الهجري . تعرض العماد لصاحبنا في كتابه ببحث مستفيض ، بدأه ببذرة تاريخية ، ثم بنشر أمثلة قيمة من شعره ، وأتى بعد ذلك بخبر مؤامراته ومقتله . ثم عالج مذهبه الديني

والسياسى ، وكيف تأبى فى أول أمره عن الانتماء إلى الشيعة ، ثم لما ضاع ملكهم أراد أن يتعصب لهم فهلك .

والشئ المهم أن عمارة وعماد الدين كانا متعاصرين . وقد استطاع العماد أن يشاهد بنفسه كيف كانت أشعار عمارة متداولة فى كل مجتمع راق من مجتمعات زمنه ، وظلت كذلك حتى بعد موت صاحبها . وكثيراً ما كان العماد يسمعها تنشد فى مجلس القاضى الفاضل ، عبد الرحيم البيسانى ، بالقاهرة ، ومجلس الأمير نجم الدين بن محمد بن مصال فى بعلبك . والملاحظ أنه قد اختفت بعض الحقائق وراء بروق الزخارف البديعية التى شاعت فى هذا الكتاب . وقد اعتمدت على مخطوطات الخريدة وقت إعداد هذا البحث ، ثم طبعت بعض أجزائها أخيراً .

٤ — « الرسائل الفاضلية » للقاضى الفاضل ، عبد الرحيم البيسانى ، المتوفى سنة ٥٩٦ هـ . وهى كثيرة متنوعة ، منها المخطوط ، ومنها المطبوع . والرسالة الهامة التى أمدتنا بمعلومات طيبة تلك التى نشرت فى كتاب الروضتين ، وفى تاريخ الواصلين ، كما نشرت فى غيرهما من المراجع ، وهى خاصة بمؤامرة عمارة ومقتله . وقد تقلد القاضى الفاضل ديوان الإنشاء فى عهد الفاطميين ، والوزارة فى عهد صلاح الدين ، وشهد بنفسه ما حل بصاحبنا فى العهدين ، كما كانت صلته بعمارة متينة ، كل ذلك مما يضى على معلوماته أهمية خاصة .

٥ — « الروضتين فى أخبار الدولتين » ، (أو تاريخ عهد نور الدين وصلاح الدين) لأبى شامة : عبد الرحمن بن إسماعيل بن عثمان شهاب الدين المتوفى سنة ٦٦٥ هـ . وقد استمد معلوماته مما أنف القاضى الفاضل ، والعماد الكاتب ، ويحيى بن أبى طى ، المتوفى سنة ٦٣٠ هـ ، وابن شداد المتوفى سنة ٦٣٢ هـ . وغيرهم . وقد تعرض أبو شامة فى الجزء الأول من كتابه (٢ — البنى)

لاضمحلال الفواطم ، وظهور أمر الصلاحيين . وخصص لعمارة فصلا في نحو ثمانى صفحات أنى فيه على مجمل أحواله ، ووصف شعره ، وما قيل من تشييعه للفاطميين . وقد عالج هذه المسائل فى الحوادث التى حصلت بين سنتى ٥٦٤ ، ٥٧٠ هـ . وهذا الكتاب مطبوع فى مصر .

٦ - « تاريخ الواصلين ، فى أخبار الخلفاء والملوك والولاطين » . واسمه أيضاً « مفرج الكروب ، فى أخبار بنى أيوب » . لجمال الدين بن واصل المتوفى سنة ٦٩٧ هـ . شرح فيه تعصب عمارة للشيعى وفاء لهم على إحسانهم إليه ، وكيف حارل إرجاع ملكهم بعد زواله ، مع أنه ليس على مذهبهم ، فلم يتم له ذلك . كما أنى فيه بتفصيل واف عن أسباب فشل المتآمرين ضد صلاح الدين . توجد من هذا الكتاب نسخة بالتصوير الشمسى رقم ٥٣١٩ . تاريخ بدار الكتب المصرية .

٧ - « السلوك » ، فى طبقات العلماء والملوك ، ويعرف كذلك بطبقات فقهاء اليمن ، لأبى عبد الله بن يوسف بن يعقوب ، المعروف بالهاء الجندى ، المتوفى سنة ٧٣٢ هـ . والجندى فى السلوك يتحدث عن كتاب لعمارة اليمنى اسمه ، « المفيد فى أخبار زبيد » ، ويستشهد بما ورد فى الكتاب عندما يريد تحقيق من يذكرهم من أصحاب التراجم ، ويقول : « فانظر فى مفيد عمارة ، فإننى اختصرت كثيرأ من أخباره » . وأهم ما فى كتاب السلوك ، أنه تعرض لاختلاف المصريين فى هل دخل عمارة مذهب الفاطميين أم لا ؟ وبعد أن يناقش ذلك ينتهى إلى القول بأنه دخل فى مذهبهم . توجد من هذا الكتاب نسخة خطية بالتصوير الشمسى فى ثلاث مجلدات بدار الكتب المصرية رقم ٩٩٦ تاريخ .

٨ - « تاريخ نغر عدن » ، لأبى محمد عبد الله الطيب بن عبد الله بن أحمد باعمرمة ، المتوفى سنة ٩٤٧ هـ . وهو فقيه باحث من أهل عدن . هذا

الكتاب جزءان في مجلدين ، وبه مقدمة وبيان للمراجع بالألمانية ، مع منتخبات من تورايج ابن المجاور ، والجندى ، والأهدل . طبع في ليدن سنة ١٩٣٦ م . في الجزء الثانى من هذا الكتاب تراجم مرتبة على حروف المعجم لمن نشأ فى عدن أو وردها من العلماء والملوك والتجار والوزراء . وقد كتب باخرمة فى هذا الجزء فصلا عن عمارة فى ترجمته ، وذكر شىء من أشعاره ، وما قيل فى مذهبه الدينى والسياسى ، وهو من القائلين بدخوله مذهب القواطم .

وبالجزء الأول فى صفحة ٢٥ ، ذهب ابن المجاور فى كتابه : « المستبصر » إلى معلومات جديدة تخالف ما ذهب إليه الجمهور فيما يختص بلقب عمارة وكنيته وسلسلة نسبه . كما أنه يصرح بأنه يوجد كتابان باسم واحد هو : المفيد فى أخبار زبيد . « المفيد الأول الذى صنّفه الأمير جياش . والثانى صنّفه فخر الدين أبو على عمارة بن محمد بن عمارة » . وبدار الكتّاب نسخة بخط حديث فى مجلد واحد لبأخرمة عنوانها : « المختار من تاريخ نجر عدن » . فيها حديث عن عمارة من ص ١٤٥ إلى ص ١٥٦ .

٩ — « الانتصار لواسطة عقد الأمصار » ، لابن دقاق : لإبراهيم بن محمد المصرى ، المتوفى سنة ٧٩٠ هـ . وقد أمدنا ابن دقاق فى الجزء الرابع من كتابه بمعلومات طريفة عن سبب الجفاء بين عمارة وبين تقي الدين عمر شاه بن أخى صلاح الدين ، وكيف أولع عمارة بمرأى العاضد ، والتعريض بتنقيص غيره ، حتى بلغ به الأمر أن هجا تقي الدين ، وهجا آل صلاح الدين . وقد نقل ابن دقاق هذه المعلومات عن كتاب « إيقاظ المتغفل » ، واتعاض المتأمل ، لابن المتوج المتوفى سنة ٧٣٠ هـ .

١٠ — « المواعظ والاعتبار ، بذكر الخطط والآثار » ، تأليف المفيريزى : تقي الدين أحمد بن على ، المتوفى سنة ٨٤٥ هـ . وله كذلك كتاب « السلوك »

في معرفة دول الملوك ، . وقد اهتم المقرئى بتاريخ الفاطميين ، وذكر أنسابهم ، وشرح أحوالهم ، وتفصيل أنسابهم ، لأنه من أحفادهم . وقد تعرض لعمارة النينى ، ولطلائع بن رزيك ، ولغيرهما من الشخصيات ذات الخطر في عهد الفاطميين الأخير . كما أشار في كتاب السلوك إلى اجتماع طائفة من أهل القاهرة (سنة ٥٦٩ هـ) على الفتك بصلاح الدين ، وإعادة الفاطميين ، مع الاستعانة بالفرنجة . وأخذ يعدد رجال المؤامرة بأسمائهم ، ثم يشرح كيف كانت عاقبة أمرهم .

١١ — «الكامل» ، لابن الأثير ، على بن أحمد بن أبي السكرم ، المتوفى سنة ٦٣٠ هـ . ذكر أخبار عمارة في الجزء الحادى عشر ، وفصل تأمره مع الخارجين على الدولة الصلاحية ، وشرح كيف اتجه فرنج صقلية إلى الاسكندرية بناء على دعوة المتآمرين لهم ، لافتحام البلاد واحتلالها ، دون أن يعلموا بأن المؤامرة قد افتضح أمرها . أما فرنج الشام فلم يتحركوا لعلمهم بما تم . ولم يكتب ابن الأثير بالعرض التاريخى وإنما وصف عمارة بأنه شاعر مفلق ، وبأن له ديواناً مشهوراً فى غاية الحسن والروعة والملاحاة . ولقرب عهد المؤلف بالأحداث التى يؤرخ لها تعد معلوماته ذات قيمة من الوجهة التاريخية .

١٢ — «وفيات الأعيان» ، لابن خلكان ، شمس الدين أبى العباس أحمد بن إبراهيم بن أبى بكر الشافعى ، المتوفى سنة ٦٨١ هـ . وما ذكره فى تراجم الشخصيات البارزة فى أواخر العصر الفاطمى ، وأوائل العصر الأيوبى يعتبر من أحسن وأدق ما كتب فى هذا الموضوع ، وبخاصة تراجم الخليفة العاضد الفاطمى ، والسلطان صلاح الدين الأيوبى ، وعمارة النينى ، وأمثالهم ممن شاركوا فى أحداث نهاية الفاطميين ، وبدء ظهور الأيوبيين .

١٣ - « تاريخ الإسلام » ، للذهبي ، شمس الدين محمد بن أحمد ، المتوفى سنة ٧٤٨ هـ . وقد تعرض لعمارة في حوادث سنة ٥٦٩ هـ . وبين علاقته بالفاطميين والصلاحيين ، وذكر شيئاً من شعره . كما أورد رسالة للقاضي الفاضل إلى نور الدين زنكي صاحب دمشق بشأن المصلبين ومنهم عمارة . وهذا الكتاب مخطوط بدار السكتب تحت رقم ٤٢ تاريخ .

١٤ - « صبح الأعشى في صناعة الإنشا » ، للقلقشندي : أبي العباس أحمد ، المتوفى سنة ٨٢١ هـ . نجد في الجزء الثالث منه كلاماً مفصلاً عن الحياة العامة عند الفاطميين ، ونظام حكمهم ، ومذهبهم ، ومواسمهم ، وأعيادهم . وقد أشار في آخره إلى عمارة ، ونقل قصيدته اللامية المشهورة برمتها .

١٥ - « النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة » ، لأبي المحاسن : جمال الدين بن يوسف بن تغرى بردى ، المتوفى سنة ٨٧٤ هـ . أفاض في ذكر الفاطميين وحوادثهم ، وأسباب اضطهادهم ، والمؤامرات التي شنها أتباعهم على الصلاحيين ، وفي حوادث سنة ٥٦٩ هـ توسع في أخبار عمارة نقلاً عن ابن خلكان ، والعماد الأصمفاني ، وغيرهما . وهذه المعلومات وردت في الكتاب مرتبة منظمة .

١٦ - « مرشد الزوار إلى قبور الأبرار » ، للخزرجي ، زين الدين بن عثمان بن الموفق . ترجم لعمارة وتخير بعض أشعاره الفائقة فنقلها . والكتاب مخطوط في مجلد واحد بدار السكتب المصرية برقم ٥١٢٩ . تاريخ .

١٧ - « مرآة الجنان وعبرة اليقظان » ، للشيخ الإمام أبي محمد عبد الله ابن أسعد بن علي عفيف الدين ، اليافعي ، البني ، المسكي ، المتوفى سنة ٧٦٨ هـ . طبع حيدر أباد الدكن سنة ١٣٣٧ هـ . في أربعة أجزاء - ذكر عمارة في

الجزء الثالث ، حوادث سنة ٥٦٩ هـ . ويرى أنه كان أديبا ماهراً ، شديد التعصب لمذهب أهل السنة ، وسبب قتله راجع إلى تأمره مع غيره لإعادة دولة العبيدين .

١٨ — « النوارد السلطانية والمحاسن اليوسفية » ، للقاضى بهاء الدين أبى المحاسن يوسف بن رافع بن تميم ، والمعروف بابن شداد ، المتوفى سنة ٦٣٢ هـ . وهو من أدق ما كتب عن حياة صلاح الدين . لأن ابن شداد ممن اتصلوا بخدمة صلاح الدين وخدمة أبنائه من بعده . وكتابه مما يعتمد عليه فى البحث عن موضوع سقوط الفاطميين .

١٩ — وينبغى أن نذكر هنا أيضاً بعض كتب المحدثين الذين عالجوا بعض النواحي التى تعرضنا لها ، أمثال :

(١) صلاح الدين وسقوط مملكة بيت المقدس ،

“Saladin and the fall of the Kingdom of Jerusalem.” London, 1893”

ألفه بالانجليزية ، استانلى لين بول ، Stanley Lane-Poole . تعرض لعمارة فى أكثر من موضع : حينما شجع طوران شاه على فتح الين (ص ٢٥) . وحينما كان يرثى الفاطميين (ص ١١٥) . وحينما قام بالمؤامرة ودعا الصليبيين ، وفشل ، وصلب مع المتآمرين . ثم مجى صليبي صقلية إلى مشارف الاسكندرية بأسطول كبير ، تنفيذاً لوعدهم مع الثوار ، وعدم تحرك صليبي الشام من أماكنهم ، لعلمهم بافتضاح المؤامرة (ص ١٢٥) - (١٢٦) . والمؤلف فى كل هذا يعتبر عمارة فى مقام الزعامة بين هؤلاء المتآمرين .

(ب) « الفاطميون فى مصر » ، للدكتور حسن إبراهيم حسن . فالباب الرابع من هذا الكتاب موضوعه « الدعاية الأدبية » . وقد عنى بها الفاطميون

لنشر مذهبهم ، وإذاعة ما بلغته خلافتهم من أبهة وسلطان . وفي عصرهم الأخير كان عمارة الينى على رأس العاملين فى حقل تلك الدعاية الأدبية . ولذلك عرض المؤلف حياة عمارة بمصر فى نحو أربع صفحات ، بين فيها صلاته بالخليفة والوزراء والأمراء ، ومدى إسهامه فى الأحداث العامة ، ومبلغ تأثيره بسقوط الفاطميين ، وتورطه فى مؤامرة كلفته حياته ؛ مع أنه لم يكن على مذهبهم . كل هذا استقاه المؤلف من كتاب النكت ، ومن ديوان عمارة .

(ج) «حياة صلاح الدين» ، للدكتور أحمد بيللى . وفى حديثه عن عمارة - بمناسبة مؤامراته - اكتفى بتلخيص ما قاله المؤرخون حولها . أما الأستاذ فريد أبو حديد فى كتابه «صلاح الدين» ، فقد تناول موضوعه تناولاً أدبياً موفقاً (١) .

٢٠ - وهناك كتب أخرى أمدتنى بمعلومات أنارت أمانى طريق البحث . منها . على سبيل المثال : «معجم البلدان» و «معجم الأدباء» لياقوت الحموى المتوفى سنة ٦٢٦ هـ . و «طبقات الشافعية الكبرى» . للسبكي المتوفى سنة ٧٧١ هـ . و «تاريخ ابن خلدون» المتوفى سنة ٨٠٨ هـ . و «الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ» ، للسخاوى المتوفى سنة ٩٠٢ هـ . و «حسن المحاضرة» للسيوطى المتوفى سنة ٩١١ هـ .

(١) العدد ١٩ من سلسلة «اقرأ» التى تصدرها دار المعارف بمصر عبارة عن قصة بعنوان «سيدة القصور» «آخر أيام الفاطميين بمصر» . وقد مدر هذا العدد فى شهر يولية سنة ١٩٤٤ . والشئ المهم أن هذه القصة فيها تفصيل لحياة عمارة : حين كان باليمن ، وحين ذهب إلى مصر سفيراً ، ثم إقامته الدائمة بها ، واتصاله بالفاطميين ، ومؤامراته ضد المصلحين . مع ذكر نماذج كثيرة من شعره ، ثم مقتله . ولئن كانت الشخصية الأولى فى هذه القصة هى سيدة القصور ، فالشخصية التالية - وأكاد أقول - الأولى المكررة - هى شخصية صاحبنا عمارة .

ولا ننسى في هذا المقام كتب النقد الأدبي التي كان لا بد من الرجوع إليها للاستعانة بها على تفهم الروح الفنية في أدب صاحبنا . منها على سبيل المثال : « كتاب الصناعتين » ، لأبي هلال العسكري و« الوساطة » لعبد العزيز الجرجاني ، و« العمدة » ، لابن رشيق القيرواني . و« المثل السائر في أدب الكنان والشاعر » . لابن الأثير . وما كتبه قدامة بن جعفر . وغيره من نقاد العرب القدماء .

ولم أغفل ما كتبه المحدثون في هذا الصدد ، أمثال المرحومين الدكتور : أحمد أمين ، وزكي مبارك ، وأحمد ضيف . وكذلك أصحاب مذاهب النقد الأدبي في الغرب ، أمثال : سان بييف Sainte-Beuve و تين Taine ، من نقاد القرن التاسع عشر .

كما رجعت إلى دائرة المعارف الإسلامية (النسخة الانجليزية) للاستئناس بما جاء بها خاصة ببعض الموضوعات ؛ مثل :

الشيعة	Shia	الإسماعيلية	Ismailiya
الفاطميون	Fatimids	الزيدية	Zaidiya
عمارة	Omara		

الباب الأول

تفصيل حياة عمارة

لم يستقر عمارة في موطن واحد طول حياته ، ولكنه انتقل إلى موطن كثيرة ، واتخذ كلا منها دار إقامة ردياً من الزمن . وكان يتأثر في نفسه ، وأسلوب حياته ، وطرائق تفكيره ، بالإقليم الذي يستقر فيه . فمن الخير إذن أن نفصل حياته في كل موطن على حدة ، ونشرح صلته بأهم الأحداث والتيارات التي غمرت هذا الموطن ، وكان لها تأثير بين على سكانه أجمعين . ويمكننا أن نقول الآن أن تلك المواطن هي : اليمن . والحجاز . ومصر . وسنفرد فصلاً خاصاً لحياته في كل منها ، على النمط الآتي :

الفصل الأول : حياته في اليمن .

الفصل الثاني : تنقلاته بين الحجاز واليمن ومصر .

الفصل الثالث : حياته في مصر .

الفصل الأول

حياته فى اليمن

ميلاده :

اختلف المؤرخون فى تاريخ ميلاده ، فذهب بعضهم^(١) إلى أنه ولد سنة خمس عشرة وخمسمائة من الهجرة . وتحفظ بعضهم^(٢) فقال أنه ولد فى بضع عشرة وخمسمائة تقريباً . وهو تحفظ معقول لأن عمارة نفسه حينها تسلم عن نشأته فى كتاباته لم يتعرض لتحديد تاريخ ميلاده ، ولو ترجح عنده لما تأخر فى تدوينه ، يدلنا على ذلك قوله : « ولقد أذكر أنى دخلت زيد سنة ثلاثين وخمسمائة أطلب الفقه دون العشرين »^(٣) ، فهو هنا يحدد السن التى انتقل فيها إلى زيد ، وهى سنة ٥٣٠ هـ ، ولجهله بتاريخ ميلاده لم يشأ أن يحدد سنه ، بل قال أنها كانت دون العشرين ، وذلك أمر طبيعى يتناسب مع حالة صاحبنا فى صغره ، فقد كان مغموراً ككل صبيان قبيالته ، ولم يكن فى استطاعة أحد أن يتنبأ بما سيكون له من الخطر فى مستقبل أيامه ، فيحرص على تأريخ ميلاده ، هذا إلى أن بيئة عمارة البدوية لم تكن تشفع بالحرص على قيد مواليدها .

موطنه :

الصحيح أنه ولد فى تهامة اليمن ، ولكن فى أى بلد من تهامة ؟ الذى

(١) الحزرجى فى مرشد الزوار ص ٣٩٥ ، والذهبي فى تاريخ الإسلام ، حوادث سنة ٥٦٩

(٢) البهاء الجندى فى السلوك ، المجلد الأول ص ١٥٠

(٣) ص ٢١ تاريخ اليمن .

جرنا إلى هذا الاستفهام عمارة نفسه . فهو يذكر في النكت : « وأما الوطن فن تهامة بالين مدينة يقال لها مرطانة^(١) من وادى وساع^(٢) ، وبعدها من مكة في مهب الجنوب أحد عشر يوماً ، وبها المولد والمربي ، وأهلها بقية العرب في تهامة ، لأنهم لا يساكنهم حضري ، ولا يناكحونه ، ولا يجيزون شهادته ، ولا يرضون بقتله قوداً بأحد منهم . ولذلك سلبت لغتهم من الفساد^(٣) .

ويقول في تاريخ الين يصف الحرب بين الأمير علي بن محمد الصليحي سنة ٤٦٠ هـ وبين ابن طرف وأتباعه الأحباش : « فالتقوا بالزرايب من أعمال ابن طرف ، وهو الوطن الذي ولدت فيه ، وبها أهلى إلى اليوم ... وجبلا عكاء فوق مدينة الزرايب ، وأهلها بافون على اللغة العربية من الجاهلية إلى اليوم لم تتغير لغتهم ، لحكم أنهم لم يختلطوا قط بأحد من أهل الحاضرة في مناسكحتهم ولا مساكنتهم ، وهم أهل قرار لا يظعنون عنه ، ولا يخرجون منه ،^(٤) .

فعلى النص الأول يكون ميلاده في مرطانة ، وعلى الثانى يكون في الزرايب ، فكيف وقع في هذا التناقض ؟ يخيل إلى أن الأمر لا يعدو إحدى اثنتين :

١ — إما أن تكون مرطانة والزرايب اسمين على مسمى واحد ، فذكر

(١) رست هكذا في النكت ، وعقد الجبان للعبي في أكثر من موضع . ووردت برطان بالباء في مرآة الجنان لليافى جزء ٣ حوادث سنة ٥٦٩ . كما جاءت مرطان بدون تاء في مرشد الزوار ، للخزرجى ص ٣٩٥

(٢) في مرشد الزوار : وادى وساع ، أو السباع .

(٣) ص ٧

(٤) ص ٢١

مرطانة في موضع من كتاب، وذكر الزرايب في موضع من كتاب آخر،
يؤيد ذلك ما نلاحظ من تطابق وصفيهما ، واتفاق أهلها في أسلوب
الحياة، وفصاحة اللغة، والقرار .

٢ — وإما أن تكون تلك الناحية من تهامة الين باسم الزرايب، وبها
بلاد عدة، إحداها باسم الزرايب، والآخرى باسم مرطانة، وهكذا .
وكان كل هذا الإقليم تحت سلطان آل عمارة، فهم في مدنه وقراه، وسهوله
وجباله . وكانت الزرايب أكبر تلك الناحية ؛ يداننا على ذلك قول ياقوت
في معجم البلدان : « الزرائب بلد في أوائل بلاد الين من ناحية زبيد ،
وإليه ينسب عمارة الينى الشاعر فيها قيل ،^(١) . وياقوت لم يذكر مرطانة
في معجمه .

فلما أراد عمارة أن يكتب مختصراً عن تاريخ حياته في مقدمة النكت
ذكر البلدة التي ولد بها، وهى مرطانة، وحدد موقعها من مكة، ولكنه
في كتاب تاريخ الين حين أخذ يسرد الأحداث التاريخية التي حصلت بين
الصليحيين والأحباش ذكر موقعة حدثت بينهما في مدينة الزرايب،
فانتهر هذه الفرصة وتكلم عرضاً عن الزرايب ووصفها، وتحدث عن
أهل فيها، وقال إنه ولد بها، ولم يشأ أن يفصل فيذكر مرطانة لأن
المقام لا يشفع بذلك. وليس هذا بغريب؛ فكثيراً ما يقول أحدنا أنه من
أسيوط مثلاً: بها ولد وتربى، وفيها أهله وعشيرته، وهو في الواقع من
بلدة تابعة لمديرية أسيوط. وعلى هذا فقله عن الزرايب: « وهو الوطن
الذى ولدت فيه وبها أهلى إلى اليوم، لا يتنافى مع الحقيقة، وهو أن ميلاده
في مدينة مرطانة. وما يؤيد ذلك موافقة جمهرة المؤرخين على ما جاء في
النص الأول؛ مع أنهم قرءوا النصين معاً، كابن خلد كان وغيره .

ومهما يكن من شيء فقد نشأ عماره في هذا الموطن المحافظ على عربيته
الخالصة ، فصيح اللسان على سنن قومه وعشيرته ، حتى إنه لما توجه إلى
زبيد في سن العشرين يطلب الفقه كان فقهاء المدارس يتعجبون من كونه
لا يلحن في شيء من الكلام ، فأقسم أحدهم بالله تعالى أن هذا الصبي
— يعنى عماره — قد قرأ النحو قراءة كثيرة ، فلما طالت المدة ، وازداد
الاختلاط بين هذا الفقيه وبين عماره كان إذا لقيه يقول : « مرحباً بمن
حنثت في يميني لأجله »^(١) . وقد زاره أبوه وسبعة من إخوانه في زبيد ،
فحضر الفقهاء وتحدثوا معهم فلم يلحن أحد منهم إلا لحنه واحدة نقموها
عليه .

نسبه :

اتفقوا على أن اسمه عماره ، ولكنهم اختلفوا في كنيته ، وفي سلسلة
نسبه ، وفي لقبه .

فذهب الخزر جى ، والذهبي إلى أنه : عماره بن زيدان أبو محمد الحكيم ،
المذحجى ، اليمنى بنجم الدين . ويقول الجندى وباعخرمة : إنه أبو محمد عماره
ابن أبى الحسن على بن زيدان بن أحمد ، الحكيم نسباً ، ثم المذحجى .
وجاء فى الصفحة الثالثة من ديوان عماره المخطوط بدار الكتب المهرية :
ديوان الفقيه الأديب أبى محمد عماره بن أبى الحسين على بن زيدان الحكيم
ثم اليمنى .

ومن جهة أخرى يقول العماد الأصفهاني فى الخريدة : « أبو حمزة عماره
بن أبى الحسن اليمنى ... وجد أبيه زيد بن أحمد »^(٢) . وجاء فى الصفحة الرابعة
من مخطوط دار الكتب السابق : « قال أبو حمزة عماره بن أبى الحسن على

ابن زيدان القحطاني البني . فهذان رأيان يخالفان ما سبق في شيئين : إن كنيته أبو حمزة ، ويزيد العماد فيذهب إلى أن جد أبيه زيد بن أحمد .

ويذكر عمارة في النسكت عند كلامه على عرب مدينة مرطانة : وكانت رياستهم وسياستهم تنتهي إلى الميثب بن سليمان ، وهو جدى من جهة الوالدة ، وإلى زيدان بن أحمد ، وهو جدى لأبى ، وهما ابنا عم . . ولقد أدركت عمى على بن زيدان ، وخالى محمد بن الميثب ،^(١) .

ويقول أيضاً : « وحدثني أبى قال : مرض عمك على مرضاً أشرف فيه على الموت ، ثم أبل منه ،^(٢) .

وانفرد ابن المجاور برواية لم يتفق فيها مع غيره إلا فى اسم عمارة فقط ، واختلف بعد ذلك فى لقبه ، وكنيته ، وسلسلة نسبه . يقول فى كتابه المستبصر : « وما ذكره عمارة بن محمد بن عمارة فى كتاب المفيد فى أخبار زبيد قال : « إن جامع عدن بناه عمر بن عبد العزيز ، وجدده الحسين بن سلامة . والأصح أن ما بنى الجامع إلا الفرس ،^(٣) . ويتحدث عن كتاب المفيد لعمارة فيقول : « وصفه نحر الدين أبو على عمارة بن محمد بن عمارة ،^(٤) .

وما يدل على أنه يقصد صاحبنا أن الخبر المتعلق بجامع عدن قد أورده لعمارة فى كتابه : تاريخ اليمن^(٥) .

وحاصل كل ما سبق أن الخلاف يدور حول كنيته ، واسم أبيه ، ولقبه : ففريق يرى أن كنيته أبو محمد ، بينما يرى العماد وغيره أنه أبو حمزة . ويقول ابن المجاور إنه أبو على . وفريق يذهب إلى أن اسم أبيه على بن زيدان ،

(١) ص ٧ .

(٢) ص ٢٩ ضمن كتاب تاريخ نهر عدن

(٣) ص ٨ .

(٤) ص ٧ .

(٥) ص ٢٥ من المصدر السابق .

ويقول ابن المجاور أنه محمد بن عمارة ، بينما يرى العماد أن جد أبيه زيد بن أحمد ، في الوقت الذى ذكر فيه عمارة أن على بن زيدان عمه ، وأخذ يكرر ذلك فى النسكت متمدحاً بشمائل هذا العم وسؤدده فى عشيرته . والجمهور على أن لقبه نجم الدين . ويخالفهم ابن المجاور فيلقبه بفخر الدين ، فكيف نوفق بين هذه الأقوال المتضاربة ؟

أما كنيته فالراجح عندى أنه أبو حمزة ، بدليل ما جاء فى النسكت على لسان عمارة نفسه : « وأذكر وأنا طفل عمرى ثمانى سنين أن معلمى - واسمه عطيه بن محمد بن حرام - بعثنى إلى عمى ومعى لوح فيه اصرافة... فلما وصلت إليه ضمتى وأجلسنى فى حجره . وتصفح اللوح ، وكانت فيه سورة ص ، ثم قال : كم تدفع للأديب يا أبا حمزة ؟ قلت بقرة لبونا ، فضحك ، ثم أمر له بمائة بقرة » (١) .

أما اسم أبيه فيبدو لى أنه أبو الحسن على بن زيدان ، إذ يظهر أن هذا الاسم قد أطلق على عم عمارة وعلى أبيه ، فكانا أخوين باسم واحد . أما ما ذهب إليه العماد من أنه اسم لجد أبيه فليس صحيحاً ، لانفراد العماد بهذه الرواية ، ولأن عمارة لم يذكر بالتصریح ولا بالقرينة ما يدل على ذلك ، وربما كانت النسخة الأوروپية التى نقلت عنها هذا النص خاطئة وصوابها : « وجده لأبيه زيدان بن أحمد » . بدلا من « وجد أبيه زيد بن أحمد » .

وأيا ما كان فهو أبو حمزة نجم الدين عمارة بن أبى الحسن على بن زيدان ابن أحمد ، من الحكم بن سعد العشيرة ، من مذجع ، حتى تنتهى جرثومة نسبه إلى قحطان اليمنية . « وكان عمارة يعرف عن أهل بلده بالحزقى ، وعند أهل مصر بالبني ، وعند أهل اليمن وعند أهل عدن والجبال بالفقيه ، وعند أهل زبيد بالفرضى » (٢) .

(٢) باخرمة . تاريخ نقر عدن جزء ٢ ص ١٦٦

(١) ص ١٢ .

وكذلك البهاء الجندى : السلوك . المجلد ١ ص ١٥١ .

عشيرته ونشأته :

كان عمارة من بيت عربي يمني عريق ، انتهت إليه رئاسة العرب في مرطانة وما حولها من تهامة اليمن . وقد اشتهر من أجداده المنيب بن سليمان جده من جهة الوالدة ، وزيدان بن أحمد جده من جهة الأب ، وهما ابنا عم ، وقد تمثل فيهما الخلق العربي أتم تمثيل ، فعرفا بالكرم والشجاعة والنجدة والبأس : قالوا أن السلطان على بن صبابه الفرودى كان قومه قد أخرجوه من ملكه ، ولولوا عليهم أخاه ، فنزل السلطان ، بزيدان والمنيب ، فصارا معه في جموع من قومهما ، حتى عزلا السلطان الغاصب ، ووليا عليا وأصلحا له قومه ، بعد أن أنفقا في سبيل ذلك الآلاف من الذهب . فقال السلطان فيهما من قصيدة :

إذا طرقتك أحداث الليالى ولم يوجد لعلهم — طبيب
وأعوذ من يحيرك من سطاها فزيدان يحيرك والمنيب
هما ردا على شتيت ملكي ووجه الدهر من رغم قطوب

ويقول أحد الشعراء يخاطب على بن زيدان ، ومحمد بن المنيب ، مشيراً إلى هذه الحادثة :

أبوكما ردا على ابن صبابه ملكا تبدد شمله تبديدا
كفل المنيب عن الحسام بعوده من صال زيدان به فأعيدا
وبنيتما ما شيدا من سؤدد قدما فأشبهه والد مولودا

بعد أن مات هذان السيدان خلفهما ابناهما : على بن زيدان ، ومحمد بن المنيب ، وقد أدركهما عمارة ورئاسة الحكم بن سعد العشيرة تقف عليهما ، وتنتهى إليهما . فكان بهما غفورا ، وبأولهما مزهوا ،

فيقول : « وما أعرف فيمن رأيتَه أحدًا يشبه علي بن زيدان في السُودد .
وهذه اللفظة ، وهي السُودد ، يدخل تحتها كل ما يوصف به سادات أشراف
العرب من كل فضيلة ^(١) » .

وينقل عن أخيه يحيى بن أبي الحسن قوله في عمه علي بن زيدان :
« لو كان عمك علي بن زيدان في زمن نبي لكان حوارياً له أو صديقاً ،
لفرط سُودده .. أن علياً لم يكن يغضب ، ولا يقرع في القول ، ولا يبخل ،
ولا يضرب مملوكاً أبداً ، ولا يرد سائلاً ، ولا عصي الله تعالى بقول
ولا فعل . وهذه همة الملوك وأخلاق الصديقين ^(٢) » .

وهكذا كان علي بن زيدان مثلاً أعلى للرجل العربي ؛ فإذا استنجد لي
النداء ، لا يطلب على ذلك جزاء ولا شكوراً ، وإذا استعين في دفع دية
قتيل لا يتأخر ، وإذا أجذب الناس فرق الأموال عليهم . ولم تكن أمواله
تدخل تحت حصر ، بل كان الفارس يمشى من صلاة الصبح إلى آخر
الساعة الثانية في فرقانات من الأنعام الثلاثة : الإبل والبقر والغنم
كلها له ^(٣) .

وكان هذا العم يسكن ضاحية منفردة ، وأمر الناس مردود إلى والد
عمارة وخاله محمد بن الميثب ، فيقضيان بين الناس ، ويرعيان شئونهم ، فإذا
حضر علي بن زيدان كانا من جملة من يقف بين يديه ، وينطمس أمرهما
بحضوره . وإذا ركب مشياً بين يديه وفي ركابه حتى يأمرهما بالركوب .

واستمر الأمر في أسرة عمارة هكذا : علي بن زيدان (عمه) في مقام
الرئيس الأعلى لهذه المنطقة من تهامة ، ومحمد بن الميثب (خاله) ، وأبو
الحسن علي بن زيدان (والده) يحكمان بين الناس تحت إشراف هذا

(٢) النكت . ص ٩

(١) النكت . ص ٨

(٢) النكت ص ١٢

الرئيس ، حتى مات على بن زيدان سنة ٥٢٦ هـ ، وتبعه محمد بن الميثيب سنة ٥٢٨ هـ . فانفرد أبو الحسن بالرياسة .

وصلحت حال الناس على يديه سنة ٥٢٩ هـ ، وفيها أدرك عمارة الحلم ، ورأى بعينه أباه في مقام الرئاسة المطلقة . ولكن القدر لم يلبث أن ابتلاه سنة ٥٣٠ هـ فمنع المطر عنهم سنة وبعض أخرى ، حتى هلك الحرث والنسل ومات الناس في منازلهم ، ولم يجدوا من يدفنهم . فعم البلاء واشتد الكرب ، وأتى الإحمال على الغنى والفقير ، ولم ينفع عمارة وأباه إلا مال كانت والدته قد ورثته عن أبيها الميثيب بن سليمان ، واستغنت عنه حتى احتاجت إليه في وقت الشدة ، فأخذ عمارة بعض هذا المال ، وترك مرطانة ، ورحل إلى زبيد في طلب العلم .

هذه هي البيئة التي نشأ فيها عمارة النيني ، وهؤلاء أهله وعشيرته : بيئة عربية أعرابية ، في لغتها ، وعاداتها ، وتقاليدها . وقد امتاز بيته بالسؤدد والرياسة والغنى والكرم والشجاعة ، وقد أحس هو بذلك فتمدح بقومه ونشر بهم . وكان أسلافه أهل علم وفضل ، فيقول زيدان بن أحمد : « أنا أعد من أسلافي . أحد عشر جداً ، مامنهم إلا عالم مصنف في عدة علوم ^(١) » . ويقول عماد الدين الأصفهاني في زيدان بن أحمد هذا : « كان ذا قدرة على النظم ، وبلاغة في اللهجة واللسن ، وشعره كثير ، وعلمه غزير » ^(٢) . ولذلك عني بتربية ابنه وتعليمه منذ نعومة أظفاره ، فيحدثنا عمارة في النسك ، أنه كان يتعلم وهو طفل في الثامنة من عمره على معلم اسمه عطية بن محمد بن حرام ، كان يعلمه الكتابة والقراءة وحفظ القرآن الكريم .

(٢) الخريدة : المجلد الثاني . قسم شعراء اليمن .

(١) النسك ص ٨

وهكذا قضى عمارة طفولته ينعم برغد العيش ، ويتلقن أصول السؤدد
فى بيت بلغ الذروة فى المجد والغنى من جهة أبيه وأمه ، وكان لذلك أثر
واضح فى مجرى حياته كما سيجى .

انتقاله إلى زبيد (١) وأسلوب حياته فيها :

فى سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة زوده أبواه ببعض المال ، وأمره
بالذهاب مع الوزير مسلم بن سخت إلى زبيد لطلب العلم . وكانت زبيد
فى ذلك الوقت من أمهات المدن اليمنية . بها كثير من العلماء والأدباء
والفقهاء والمدارس ، يقصدها طلاب العلم من جميع نواحي تهامة ، وقد
شهدت كثيراً من الأحداث التاريخية الهامة . وتنازع الحكم فيها مذهبان
متعارضان فى المنهج الدينى والسياسى . هما المذهب السنى والمذهب
الشيعى .

(١) شهدت زبيد كثيراً من الحوادث التاريخية الهامة ، كالصراع بين قبس ونجاح من
موالى الدولة الزيادية السنية ، وانتهى الأمر باستيلاء نجاح عليها سنة ٤١٢ هـ . وأنشأ دولة
بنى نجاح السنية فيها ، ولم يلبث نجاح أن قتل سنة ٤٥٢ هـ على يد على بن محمد الصليحي الذى
نشر مذهبه الشيعى فيها . ثم تمكن سعيد وجياش ولدا نجاح من قتل على هذا سنة ٤٧٣ هـ
والاستيلاء على زبيد . إلا أن المكرم أحمد بن الداعى طى تمكن من دخول زبيد ومطاردة
آل نجاح ، ولكن سعيداً لم يلبث أن دخل زبيد مرة ثانية سنة ٤٧١ هـ وطرد حاكمها
الصليحي الشيعى . فاحتال المكرم مرة أخرى على سعيد وقتله ، ثم تمكن جياش من جمع
خمسة آلاف من الأقباش ، وسار بهم إلى زبيد سنة ٤٨٢ هـ واستولى عليها ، وبقي ملكاً
فى زبيد وتهامة يخطب للباسيين . ثم مات جياش على رأس المائة الخامسة ، وتولى بعده بنوه
قراية نصف قرن ، حتى قتل آخرهم سنة ٥٥٢ هـ ، ووقعت المدينة فى يد على بن مهدي الحارثي
سنة ٥٥٤ هـ .

تلك هى المدينة التى تلقى فيها عمارة علومه الأولى ، وهذه حالها فى قرن ونصف من الزمان .

وكان لتوالى حكمها الذين يختلفون في مشاربهم وأهوائهم الدينية والسياسية ، ولظواهر الحياة الاجتماعية فيها ، وتتابع حوادثها العنيفة المتلاحقة . كان لكل ذلك صدى عظيم في توجيه صاحبنا ، وفي تشكيل آرائه ومعتقداته كما سيحيى . وفي الوقت الذى وصل فيه عمارة إلى زيد لطلب العلم ، كان يتولى الحكم فيها بنو نجاح السنيون ؛ فكان من الطبعي أن يتجه التعليم فيها وجهة سنية بحتة ؛ وكان من الطبعي أيضاً أن يدرس عمارة على هذا المذهب ؛ فيحدثنا أنه نزل في دار الوزير مسلم بن سخت مع أولاده ، ولازم الطلب أربع سنين لا يخرج من المدرسة إلا لصلاة الجمعة . ثم زاره أبواه في السنة الخامسة ، ورد مصوغاً إلى والدته وكان قد أخذه منها ولم يحتاج إليه .

أقام بعد ذلك في زيد ثلاث سنين ، وعنده تلاميذ يقرءون عليه مذهب الشافعى والفرائض في المواريث . وفي سنة تسع وثلاثين وخمسمائة زاره أبوه وخمسة من أخوته في زيد ، فأنشده شيئاً من شعره ، فاستحسنه وقال له : « تعلم والله أن الأدب نعمة من نعم الله عليك ؛ فلا تكفرها بدم الناس » .

اتصاله بملوك زيد وعظماؤها :

كانت المملكة الحرة أم فائق آل نجاح صاحب زيد تقوم لأمير الحرمين بجميع ما يتناول من حجاج اليمن برأ وبحراً ، وتبث رجالها في طريق الحج لحفارته ، وتنظم الأدلاء ، وتعمل على أمن الحجيج ، وتسهيل الوصول إلى بيت الله الحرام . وقد يحج معها كثيرون من أهل اليمن . ويسافر الرجل منهم بنفسائه وأولاده والمواشى التى يأكلون لحماً ويحلبون دها ، ومعهم المطابخ والأسرة وجميع ما يحتاجون إليه .

فحدث أن حج عمارة في ركب هذه الملكة ، وفي ليلة من الليالي ، والقافلة تسير ، أحس عمارة بحركة ؛ فاتجه نحوها ؛ فوجد هودجاً مفرداً والجلل يركب ، فنادى على أهل هذا الجلل فلم يرد عليه أحد ، فدنا منه فإذا امرأتان نائمتان في الهودج ، وأرجلهما خارجة عنه ، ولكل واحدة منهما زوج خلخال من الذهب ، فأخذ الخلخال من أرجلها وهما لا يعقلان ، ثم أخذ بخطام الجلل وأبركه وعقله وجلس منه غير بعيد ، واستمر يراقبه حتى مرت قافلة من آخر الناس ، فأنشطوا عقال البعير وساقوه معهم ، وفي الصباح تبين لهم أنهما امرأتان لبعض أكابر زبيد نام الجمال عنهما ، فعدل الجلل عن الطريق . وكانت عادة الملكة الحرة أن تمشي في ساقية الناس ولا يمشي بعدها أحد ، فن نام أيقظته ، ومن انقطع حماته . وفي منتصف الليلة الثانية تأخر عمارة حتى مر به محملاً ، فسأله غلمانها عن أمره ، فأجابهم أن الحديث مع الحرة في خلوة . فحدثوها عن شأنه فأخرجت رأسها من الهودج ، فناولها الخلخال ، وكان وزنها ألف مثقال ، فسأله عن اسمه ، وشخصيته ، فأخبرها بواقعة الحال التي وجد الامراتين عليها .

كانت هذه الحادثة حداً فاصلاً في مجرى حياة عمارة ، فصلت بين حياته الأولى كطالب علم عادي في زبيد ، إلى عالم مغموور يلقي على تلامذته مذهب الشافعي في مدارسها ، وبين هذه الحياة الجديدة التي بدأ يحياها مندساً بين الملوك والوزراء والعظماء ، والتي أدت به إلى الارتحال جنوباً إلى عدن ، وشمالاً إلى مكة كما سيأتي . وقد صور عمارة نفسه هذا الحد الفاصل تصويراً دقيقاً حيث قال : « وياسبحان الله ، فما كان أوبركها ساعة ، لأنه حصل لي منها جانب قوى ، وصورة جميلة ، وشفاعة مقبولة ، ووجاهة مبذولة ، وتقدم على الأكابر من الفقهاء وأعيان الخواص ، وتسهيل الوصول إليها في أى وقت شئت ، والاستظهار بي على التوسط فيما بين

الناس . ومن صحبتى لها ومعرفتى بها حصل لى معرفة الوزير القائد أبى محمد سرور الفاتكى ، وهو القائم بدولتها ، ودولة فالك صاحب زيد ، وبمعرفتهما كسبت مالا جزيلا ،^(١) .

إرتحاله إلى عدن بقصد التجارة واتصاله بدعاة العبيدين فيها :

قلنا فيما سبق إن زيد كانت تحت سلطان بنى نجاح السنين ، وفى نفس الوقت كانت عدن تحت سلطان بنى زريع الشيعيين ، وكان التنافس مستحكما بين المذهبين فى هذه الجهات ، فقام أسطول بلال بن جرير الشيعى بعدن بغزوة على ساحل زيد ، فقتل ونهب وأحرق ، فانقطعت المواصلات بين زيد وعدن مدة ثلاث سنين ، فكسدت التجارة بين البلدين ، وفضى ذلك برخص بضائع كل منهما وغلائها فى البلد الآخر . فاتفق رأى الحرة هى والقائد سرور على الإذن لعمارة فى السفر إلى عدن ، للقيام بتصرف البضائع الزيدية فى عدن ، وجلب البضائع العدنية إلى زيد ، ثم دفعا له ألوفاً من المال وتذكراً بما يشتري من عدن ، وكلفاه بأن يشتري بهذا المال بضائع رخيصة من زيد ، ثم يبيعها فى عدن ، وما ينتج من الربح يأخذه لنفسه ، ثم يبتاع برأس المال من عدن ما فى التذكرة .

اشترى عمارة كثيراً من البضائع الرخيصة من زيد بما معه من المال ؛ ثم اتجه جنوباً إلى عدن . وكانت عدن فى هذه الأثناء تحت سلطان الدولة الزيرية الشيعية ، وعلى رأسها الداعى محمد بن سبأ . فشاهد صاحبنا بيئة جديدة تغاير بيئته الأولى ؛ فى الدين والسياسة وأسلوب الحياة ، ولم تقف مهمته فى عدن على البيع والشراء ، وارتباد الأسواق ، ومراقبة الحالة

التجارية في تلك الربوع ، شأن التجار في كل مكان ، ولكنه اندس بين أهل عدن ، وشاركهم في أفكارهم وآمالهم ، وتحدث معهم في معتقداتهم ، وتقرب من دعائهم ؛ فاتصل بالأديب أبي بكر محمد العيذى ، فأكرمه وقدمه إلى الداعى محمد بن سبأ صاحب الدعوة الشيعية في اليمن ، وأمره بمدحه شعراً ، فلم يقدر عبارة لأنه لم يكن قد عالج الشعر بعد . فلم يزل الأديب يلزمه ويحسن له عمل الشعر حتى عمل قصيدة غير مرضية ، فأعرض عنها الأديب ، وعمل بنفسه قصيدة مرضية على لسان عمارة ، ذكر فيها المنازل من زبيد إلى عدن ، وهنأ بها الداعى . فحازت القبول ، ونال بها عمارة جوائز من الداعى ، ومن كبير دولته بلال بن جرير . وكان ذلك من أسباب اشتغاله بالشعر وصحبة الملوك خصوصاً آل زريع الشيعيين . وقد بادره العدنيون حباً بحب حتى وصل د من مودتهم إلى غاية من الاختصاص والمساهمة ، فأما الصلات الغامرة ، والخلع الفاخرة ، والهدايا الجزيلة ، والتحف المذخورة ، فشيء يكثُر وصفه . وامتد هذا الشوط من سنة ثمان وثلاثين إلى سنة ثمان وأربعين ، ما من أهل دولتي زبيد وعدن إلا من يغار على نصيبه من مجالستي ومؤانستي ، ويطلقون ما وصل من البضائع باسمي من الهند ، ومن عدن ، ومن زبيد ، ومن مكة ، ومن عيذاب ، برأ وبحراً . فقضى ذلك باتساع الحال وذهاب الصيت ،^(١) .

هذه السنوات العشر من ٥٣٨ - ٥٤٨ كانت من أخصب أيام عمارة في اليمن ، من جهة المال والعلم والأدب والوجاهة وصحبة الملوك والعظماء ، خصوصاً آل زريع الشيعيين . ولكن دوام الحال من المحال ، فإن الصلة المتينة التي توطدت بين الشيعيين في عدن وبين عمارة ساعدت على كثرة حساده ومنافسيه ، ولفتت نظر السنين في زبيد نحو تصرفات مواطنهم

عمارة ، ذلك الذى خرج عن دائرة عمله كمتاجر يتولى تصريف البضائع وجلبها بين عدن وزيد ، إلى جليس للدعاة ، ومقدم على كبار أتباعهم . ومن يدرى؟ ربما لحظ الزبيديون تحول صاحبهم نحو مذهب الشيعة ، وبعده رويداً رويداً عن مذهبهم ، فبدؤوا يظنون به الظنون ، ويحصون عليه حركاته وسكناته . وقد وسع هوة الخلاف بينه وبين أهل زيد أن الداعى محمد ابن سبأ صاحب عدن أرسل كتاباً إلى عمارة يستدعيه إليه ، فاستأذن عمارة أهل زيد فى الرحيل إلى الداعى ، وكان الداعى عنده خمسة آلاف دينار قدمها له ليشترى بها أمتعة من مكة وزيد . فآذنوا له على غش ودخل من فساد الباطن . فلما وصل وجد الداعى خارجاً عنها فى حصن دخل فيه عروساً منذ ثلاثة أيام ، ولم يصل إليه أحد . وكان جماعة من أكابر التجار والأعيان قد سبقوا عمارة يريدون المثول بين يدى الداعى فلم يتمكنوا من ذلك ، فلما وصل عمارة طلب الإذن فى الاجتماع به فـكان له ما أراد .

أقام فى المستنزه مع الداعى معزراً مكرماً أربعة أيام ، فدبت الغيرة فى نفوس الجماعة ، وأجمعوا أمرهم على الإيقاع بصاحبنا ، فكتبوا إلى أهل زيد بما يوجب سفك دمه . ولكى يتمموا المكيدة ، ويحبكوا المؤامرة ضده أذاعوا أن على بن مهدي^(١) التمس من الداعى محمد بن سبأ أن ينصره على أهل زيد ، وأن عمارة كان الواسطة بين الداعى وبين ابن مهدي ، وقد انعقد الأمر بينهما بواسطته على محاربة زيد وإزالة دولتها^(٢) .

(١) الذى قام بالين فيما بعد ، وأزال دولة أهل زيد وغيرهم ، وسمى على بن مهدي الخارجى .

(٢) كان بين عمارة وبين ابن مهدي محبة ومودة فى بادى الأمر ، ولم يفارقه عمارة إلا بعد أن استفحل أمره ، وظهرت عداوته لأهل زيد . فتركه خوفاً على ماله وأولاده ، لأنه مقيم مع أسرته فى زيد . راجع ص ٣٠ من النكت .

لكل هذه الظروف مجتمعة حنق أهل زيد على عمارة ، وعزموا على قتله في بكرة يوم الجمعة الثاني من شهر ربيع الآخر سنة ٥٤٨ هـ . ولكن حدث أن زحف بعض الأعداء على تهامة ، فأزعج أهل زيد ذلك ، وانشغلوا عن عمارة بمقابلة هؤلاء الأعداء مدة . وحين عادوا إلى زيد بدمرا في تنفيذ مؤامرتهم ضده ، فبلغه ذلك ، فاخفى مدة ، ثم خرج إلى مكة هاجا سنة ٥٤٩ هـ .

الفصل الثاني

تنقلاته بين الحجاز واليمن ومصر

خروجه من اليمن إلى الحجاز :

قلنا في نهاية الفصل الأول إن عمارة وجد نفسه بزييد في غمرة من الدسائس والمؤامرات ، حيث قصده أهلها بالسكيد والوقعية ، فلما أحس بذلك خشى العاقبة ، فاخفى عن الأعين ردحا من الزمن ، ثم انتهز فرصة موسم الحج وغادر اليمن كله إلى مكة سنة ٥٤٩ هـ . كان مقبداً عمارة إلى الحجاز إذ أن نوعاً من الفرار ، وخوفاً من البطش والمحنة ، ولم يكن قضاء الفريضة إلا حجة الظاهرة .

سفارته الأولى لمصر :

وحين وصل عمارة إلى مكة كان أمير الحرمين في ذلك الحين هاشم بن فليته ، فمات في هذه السنة ، وولى الحرمين ولده قاسم بن هاشم . ويظهر أن الصلة كانت لا تكاد تنقطع بين الحكومة المصرية وبين البلاد المقدسة ، بسبب ما كان يتطلبه الحجاج المصريون كل عام من وسائل الرحيل والإقامة والأمن إلى غير ذلك . وكانت المخابرات مستمرة بين أولياء الأمور في مصر والحجاز ، فبحث هذا الأمير الجديد عن يقوم بالسفارة عنه لدى الدولة المصرية ، فوقع اختياره على عمارة ، فرضى بذلك ورحل إلى مصر فوصلها في ربيع الأول سنة ٥٥٠ هـ . وكانت تحت سلطان أكبر دولة شيعية في ذلك الحين ، وهي الدولة الفاطمية ، وكانت القاهرة — حاضرة الفاطميين — موئلاً للتفكير الشيعي ومركز دعايته ، ولبلاطها شهرة

واسعة في تشجيع الفنون والعلوم والآداب . فبهرتة ضخامتها وبهاؤها ومعاهدها وأنهارها . ولا غرو فإنه لم ير بالجزيرة سوى تلك المدن الصحراوية المتواضعة ، وتلك الوديان الصغيرة ، التي تروى بماء المطر حيناً وماء العيون حيناً آخر . فلم ير بالجزيرة كلها — حيث قضى طفولته وشبابه — مدينة في عظمة القاهرة وروعيتها ، وجامعة علمية في جلال الأزهر ومهابته ، ونهراً جارياً في ضخامة النيل وخيراته . وكان الخليفة بها يومئذ الفاتح ابن الظافر ، ووزيره الملك الصالح طلائع بن رزيك . فلما ذهب للسلام عليهما في قاعة الذهب بقصر الخليفة أنشدهما قصيدة عصفاء ، تظهر بجلاء نخامة ما رأى ، من جلال الخلافة ، وعظمة الملك ، وأبهة السلطان . جاء في مطلعها :

الحمد للعيس بعد العزم والههم حمداً يقوم بما أوتيت من النعم
ومنها :

قربن بعد مزار العز من نظرى حتى رأيت إمام العصر من أمم
ورحن من كعبة البطحاء والحرم وفداً إلى كعبة المعروف والكرم
فهل درى البيت أنى بعد فرقته ما سرت من حرم إلا إلى حرم
حيث الخلافة مضروب سرادقها بين النقيضين من عفو ومن نقم
وللإمامة أنوار مقدسة تجلو البغيضين من ظلم ومن ظلم
وللنبوة آيات تنص لنا على الحقيقة من حكم ومن حكم
ومنها :

أقسمت بالفائز المعصوم معتقداً فوز النجاة وأجر البر في القسم
لقد حمى الدين والدنيا وأهلها وزيره الصالح الفراج للغم

ومنها :

أرى مقاماً عظيم الشأن أوهمنى فى يقظتى أنها من جملة العلم
يوم من العمر لم يخطر على أسمى ولا ترقى إليه رغبة الهمم
ليت الكواكب تدنو لى فانظمها عقود مدح فما أَرْضَى لكم كلنى

ومنها :

خليفة ووزير مدد عدلها ظلا على مفرق الإسلام والأمم
زيادة النيل نقص عند فيضهما فما عسى يتعاطى منة الديم

ويحدثنا عمارة فى النسكت أن السامعين طربوا لهذه القصيدة أيما طرب،
فاستعادها الصالح فى حال النشيد مرارا ، والأستاذون والأمراء والعظماء
ذهبوا فى استحسانها كل مذهب . ثم خلعت عليه الخلع الفاخرة ، ودفع
له الصالح خمسمائة دينار ، والسيدة الشريفة بنت الإمام الحافظ خمسمائة
دينار أخرى ، وحمل المال إلى منزله ، وأطلقت له من دار الضيافة رسوم
لم تطلق لأحد من قبله ، وخصه الصالح بمجالسته ، ونظمه فى سلك أهل
مؤانسته ، وانهاالت عليه صلاته ، وغمره بره . وكان عمارة من جانبه يوالى
نظم الشعر فى مدح الخليفة ووزيره ، حتى اشتهر أمره بين رجال الدولة ،
من أعيان أهل العلم والأدب ، وأصحاب السيوف والأعلام ، فأثبتوه
- على حد تعبيره - فى جرائدهم ، ونظموه فى سلك فرائدهم .

من ذلك ماودع به الصالح فى دار الوزارة :

لازمت خدمته فأدب خاطرى فالمدح من إحسانه معدود
فإذا نظمت له المديح فإنما أهدى بضاعته له وأعيد
صدر حسدت به الورود وإنما ذمت به عندى المطايا القود

نخلع عليه ، ودفع له مائتي دينار ، وكتب إلى وإلى قوص أن يقدم له
مائة أردب قمحا .

وبما قاله يودع الخليفة والوزير بقصيدة جاء منها في ذكر الرجوع
إلى مكة واليمن :

من لى بأن ترد الحجاز وغيرها	أخبار طيب موارد ومصادري
زارت بي الآمال أكرم ساحة	فوق الثرى فغدوت أكرم زائر
ووفدت النفس الكرامة والغنى	فرجعت من كل بحظ وأفر
فكأن مكة قال صادق فألها	سافر تعد نحوى بوجه سافر

ويقول عمارة في ذلك : « فأوسعني إكرامهما توفيرا ، وإنعامهما
توفيرا . وعهدى بسيف الدين حسين وهو يقول : ثلثمائة دينار تسفير له
من الخليفة قليل ، فاستحووا من الرجل ، فسا جامكم مثله ، وزيدوه مائتي
دينار ، تكون الوفادة خمسمائة دينار ، والتسفير خمسمائة . ففعلت السيدة
الشريفة ست القصور ذلك ،^(١) .

وقبل أن يبرح عمارة مصر في نهاية هذا العام التمس من الصالح كتابا
إلى صاحب عدن عمران بن محمد ، بسبب ثلاثة آلاف دينار مات أبوه
الداعي محمد وهي له عند عمارة . فأجاب الصالح ملتزمه ، وكتب إلى الداعي
يسقط عن صاحبنا الآلاف الثلاثة ، ويبرئه منها . فقال عمارة في ذلك من
قصيدة يمدح الصالح :

أعزير مصر دعوة من مخلص	نفذت عنه خناق حظ موثق
أعتقه من رق الزمان وغله	وقف الثناء على ولاء المعتق

واسمع محاسن لفظه لاحفظه كالدر بل أنقى من الدر النقي
لولا ندى ماء السماحة ما غدا ماء الفصاحة مهرقا في مهرق
استمر عمارة ينعم في رغاوة العيش وهدوء البال في ظل الخلافة
الفاطمية من ربيع الأول سنة ٥٥٠ هـ إلى شوال من نفس السنة . ثم عاد
إلى الحجاز .

عودته إلى الحجاز :

سافر من مصر إلى الحجاز في شوال سنة ٥٥٠ هـ ، فأدرك الحج والزيارة
في بقية هذه السنة . ثم حدث أن طلب المقتنى الخليفة العباسي في بغداد
من أمير الحرمين قاسم بن هاشم أن يقيم على باب الكعبة الشريفة باب
ساج جديد ، قد ألبس جميع خشبه فضة ، وطلى بذهب ، وأن يأخذ أمير
الحرمين حلية الباب القديم لنفسه ، ثم يرسل خشب الباب القديم مجردا
إلى بغداد ، ليجمعه الخليفة تابوتا يدفن فيه عند موته . فأجاب أمير الحرمين
طلب الخليفة ، وأرسل الخشب إلى بغداد ، وأبقى الحلية له . فلما التقى
الأمير بعمارة أثناء الحج في هذه السنة رغب إليه أن يبيعه الحلية في اليمن ،
وكان وزنها خمسة عشر ألف درهم .

من الحجاز إلى اليمن :

وفي صفر سنة ٥٥١ هـ كان عمارة يغادر الحجاز ويتجه إلى اليمن مارا
بزيد فعدن . ويظهر أن العام الذي قضاه صاحبنا خارج زبيد قد ألهمها
عنه ، وأنسام ما كانوا يبيتون له من مكروه . ثم تجول في اليمن عدة شهور
وباع الفضة في أسواقه ، وقابل الداعي عمران بن محمد ، وقدم له كتاب
الصالح بن رزيك الخاص بما على عمارة من دين للداعي السابق . فلما وقف
على ما فيه أسقط عنه الآلاف الثلاثة . فكتب شاعرنا من عدن إلى مصر
يشكر الصالح على ذلك من قصيدة مطلعها :

ليالى بالفسطاط من شاطئ مصر سقى عهدك الماضى عماد من القطر
لقد غمرتنى من نداه مواهب أضافت إلى عز الغنى شرف القدر
قصدت الجناب الصالحى تفاؤلا وقد فسدت حالى فأصلح لى دهرى
ولم يرض لى معروفه دون جاهه فسير كتبنا كالكتائب فى أمرى
وما فارقتنى نعمة صالحة كأتى من مصر رحلت إلى مصر

قال عماره : د فلما وصلت هذه القصيدة إليه قال : د قد فرطنا فيه حين تركناه يخرج من عندنا ،^(١).

سفارته الثانية إلى مصر :

وفى موسم الحج من سنة ٥٥١ هـ رحل إلى الحجاز ، ودفع إلى أمير الحرمين ماله . ولما هم بالرجوع إلى اليمن بعد إتمام الفريضة ، رغب إليه أمير الحرمين فى الترسـل عنه مرة أخرى إلى الملك الصالح طلائع بن زريك فى مصر ، بسبب جنـاية جناها خدمه على حاج مصر والشام ، وهو مال أخذ منهم فى مكة . فوجدت هذه الرغبة هوى فى نفس عماره ، فرحل إلى مصر بعد أن غادر الحجاز والجزيرة كلها لآخر مرة فى أوائل سنة ٥٥٢ هـ . وهنا فى بلاد النيل طاب مقامه ، فاستوطن ديار مصر نهائيا ، وبقي بها حتى آخر حياته .

الفصل الثالث

حياته في مصر

قلنا إن عمارة غادر الجزيرة وانتقل إلى مصر في أوائل سنة ٥٥٢ هـ ، واتخذها دار إقامة حتى آخر حياته . وفيما قر به الوزراء والخلفاء والعظماء ، لأدبه وفضله وحسن صحبته وسمو مواهبه . فصار جليساً لهم ، وموضعا لأسرارهم ، ولهذا اندفع مع تيارهم ، وحذا حذوهم ، وتأثر في حياته بما كان يصيبهم من حلول الحياة ومرها ، وانعكست أخلاقهم على مرآة تفكيره ، ونقشت في صفحات آدابه . وكان للأحداث المصرية الداخلية والخارجية صدى عظيم في نفسه ، وفي طرائق تفكيره ، وأسلوب حياته . وكان وجوده بمصر في آخر أيام الدولة الفاطمية ، فلم يشاهد سوى عصر الخليفين الأخيرين : الفائز والعاقد . وعاش بعدهما سنتين آخرين في ظل الدولة الأيوبية بزعامة صلاح الدين .

حياته في أيام الفاطميين :

وإذا علمنا أن خلفاء الدولة الفاطمية في آخر أيامهم لم يكن لهم من الخلافة إلا ظمها ؛ فأمر الملك وسياسة الدولة في الداخل والخارج مردود إلى الوزراء ، وكان الشعب لاحيلة له إلا إقرار الوزراء في مراكزهم . يعترف للغالب منهم ، لعلمه الأمانة وبقوة الوزير وأتباعه والموالين له ، إذا علمنا كل هذا أمكننا أن نفصل حياة صاحبنا في الأوساط المصرية تبعا لعصور الوزراء في عهد هذين الخليفين .

١ - عهد الملك الصالح طلائع بن رزيك .

٢ - عهد ابنه العادل .

٣ - عهد شاور في وزارته الأولى .

٤ - عهد ضرغام .

٥ - عهد شاور في وزارته الثانية .

١ - عهد الملك الصالح :

قلنا في الفصل الثاني إن عمارة حينما حضر إلى مصر في أول مرة ، واتصل بالملك الصالح أكرم وفادته ، وأجزل عطاءه ، وقربه من مجلسه ، وقدمه على خلصائه ، وغادر مصر إلى الجزيرة والصحبة بينهما متمكنة . فلما عاد إليها للمرة الثانية نزل بمدينة قوص في طريقه إلى القاهرة وهو يتعجل الوقت ، ليتلاقى مع صديقه العتيد ، طلائع بن رزيك . ويظهر أن الصداقة الأكيدة بين الرجلين فيما مضى قد خلقت له بعض الحساد والمنافسين . فلما بدءوا يوقعون بينهما كان صاحبنا قد غادر مصر إلى الحجاز ، فنامت الفتنة وسكن أصحابها إلى حين . وحينما عاد إليها ونزل بقوص تحركوا ، وعلى رأسهم الأمير سيف الدين حسين بن أبي الهيجاء ، صهر الصالح ، ونقلوا إلى الوزير أن عمارة طعن في مذهب الإمامية — وكان الصالح متعصباً لهذا المذهب ، غالباً فيه — فلما بلغه ذلك حنق على عمارة ، وأصدر أمراً إلى الوالى بقوص بأن يعوقه ، ولا يأذن له في الرجوع ولا في القدوم إلى باب الوزير ، حتى يرد أمير الحرمين ما أخذ من مال التجار . وبعد أخذ ورد أذن له الصالح في القدوم إلى بابه ، فكتب إليه عمارة من مصر :

ولى تحت دار الملك يومان لم تلح لعينى علامات الكرامة والبشر
وقد أخذت أيام قوص نصيبها فهل نقلت تلك السجايا إلى مصر
فأمر الصالح بإكرامه وإيصاله إليه ، فأنشده — عند السلام عليه —

قصيدة أشار فيها إلى البراءة مما نسب إليه من القول في مذهبه ، منها :

إني حسدت على كرامتك التي من أجلها في كل أرض أكرم
أن كان ما قالوا وليس بكائن فأنا امرؤ ممن سعى بي الأثم
كذب وحقك لو حليت بذكره أقسمت أني بعده لا أحلم

« فزال ما كان عنده ، وعاد إلى أفضل عوائده ، وأمر لي بمائة دينار ، وخرج أمره إلى الأمير عز الدين باستخراج مائتا خرلى من رسوم الضيافة من بيت المال . ففعل . وأمرني بملازمة الخدمة في المجالسة والمواكلة والمدح له ، وتأكدت الحرية ، وتضاعفت المزية والاختصاص ^(١) . »

وكان مجلس الصالح عامراً بالأعيان والأدباء والعلماء . فانتظم عمارة في سلسكهم ، ونال حظوة عنده وعندهم . وكان هذا المجلس يخوض في كثير من المذاكرة في أنواع العلوم الأدبية والشرعية ، ويخوض عمارة مع الجماعة فيها بقدر ، خصوصاً ما يتعلق بمسائل الدين . وقد خاطبه الصالح يوماً في أمر دخوله في مذهبه ، فتأبى عمارة عن الانتهاء إلى هذا المذهب ، وقع من الصالح بصدافته دون الدخول في مذهبه . وكان الصالح مرتاضاً حصيفاً ، بعيداً عن خشونة الوزراء . شاعراً محباً للأدب وأهله ، يكرم جلسيه ويبسط أنيسه . فعاش عمارة في كنفه راضياً مرضياً . فلما قتل هذا الوزير فجع فيه صاحبنا ، فجعله مشاراً لنظم أشعاره وخير مراثيه .

٢ — عهد الملك العادل :

استمر عمارة على ولائه لأسرة رزيك ، فلازم العادل ومدحه ومدح آل بيته ، ونفر بصدافته وصدافتهم ، وأخذ يجمع الناس تحت رايتهم . وكان قتل

الصالح لا يزال يحز في نفس صاحبنا ، ويذكره بأياديه عليه . فلما ظفر العادل
بقتلة أبيه ظفراً عجيباً ، وشتنهم في البلاد ، رضى عمارة عن ذلك تمام
الرضا ، فقال في ذلك من قصيدة :

ضافت بهم سعة الفجاج وربما نام الولي ولا ينال الثار
ولما نقل العادل تابوت أبيه إلى القرافة كان ذلك مثاراً لنظم أشعاره .
وتجديد أحزانه . فقال من قصيدة :

خربت ربوع المكرمات لراحل عمرت به الأجداد وهما فقار
ومنها :

غضب الإله على رجال أقدموا جهرأ عليه وآخريـن أشاروا

وكان للحوادث الداخلية والخارجية في عهد العادل أثر عظيم في نفس
عمارة ، فاشترك فيها كلها ، ووقف على خباياها ، وسجلها في أشعاره ، وقيدها في
كتابات^(١)ه . وعلى الرغم من أن الصالح وصى ابنه العادل ألا يغير شيئاً مما بيد
شاور . وقد كان والياً من قبله على أعمال الصعيد - فإنه خالف الوصية وأرسل
يعزله . فجمع شاور جموعه ، وحضر إلى القاهرة ، وقبض على العادل
وأهله ، وأشبع أهله تقتيلاً ، ونهب أموال بني رزيك ، وقضى على
أسرتهم بطريقة عنيفة ساحقة . فأخذ الأسى من عمارة كل مأخذ ، وأحاطته
اللوعة من كل جانب ، أسفاً على تلك الأسرة التي عاش في كنفها معزلاً
مهيئاً مروقاً . قال عمارة يصف جانباً من ذلك الحادث العصيب : « ثم دخلت
قاعة السر من دار الوزارة ، وفيها طي بن شاور ، وضرغام ، وجماعة من

(١) في أيام العادل قتل الخارجي ابن نزار ، وطرد الافرنج من البلاد بعد أن احتلوا
بعضها ، وقام بهرام الغزي بمهمة يطلب الصعيد ففضى عليها . راجع ص ٤٤ و ٥٥ من النكت .

الأمراء ، ورأس رزيك بن الصالح بين أيديهم في طست ، وما هو إلا أن لمحته عيني ، ورددت كمي على وجهي ، ورجعت على عقبي ، وما ملأت عيني من صورة الرأس . وما من أحد من هؤلاء الجماعة الذين كان الرأس بين أيديهم إلا من مات قتيلًا ، وقطعت رأسه عن جسده . فأمر طي من رذني . فقلت : والله ما أدخل حتى تغيب الرأس عن عيني ، فرفع الطست . . قلت : لاخير في شيء يؤول الأمر بصاحبه من الدست إلى الطست . ثم خرجت وفلت :

أعزز على أبا شجاع أن أرى ذاك الجبين مضرجا بدمائه
ما قلبته سوى رجال قلبوا أيديهم من قبل في نعمائه (١)

٣ — عهد أمير الجيوش شاور في وزارته الأولى :

لما قضى شاور على أسرة بني رزيك تولى الوزارة بعدهم ، فجلس في دار الذهب على شط الخليج ، واثالث عليه وعلى ولديه : طي ، والسكامل ، أموال بني رزيك . ثم قام الشعراء والخطباء ولقيف من الناس ينالون من بني رزيك ، فأنشده عمارة قصيدة في اليوم الثاني من جلوسه ، والجمع حافل ، مطلعها :

صحت بدولتك الأيام من سقم وزال ما يشتكيه الدهر من ألم
ثم أخذ يثنى على أصدقائه - بني رزيك - بطريقة شجاعة ، دلت على وفائه لهذه الأسرة في وقت عصيب كهذا عز فيه الوفاء .

وكانت أخلاق شاور في وزارته الأولى مستورة باستمرار السلامة والطاعة والاستقامة ، ولكن عمارة لم يغتفر له قتل العادل بن رزيك ، ويرى

أن قتله أقمح فعلة ، سودت ما ابيض من عالى قدره ، وأعربت عن ضيق عطنه وخرج صدره،^(١) .

ومهما يكن من شيء فقد ارتاح عمارة لمعظم خصاله ، خصوصاً كرمه وشدة بأسه وحماسته ، فمدح فيه هذه الصفات على الرغم من نكاله السابق ببني رزيك . قال يهنته بفتح بليس بعد أن حاصرهما الأعداء :

ضجر الحديد من الحديد وشاور فى نصر آل محمد لم يضجر
حلف الزمان ليأتين بمثله حنث يمينك يا زمان فكفر

٤ — عهد الملك المنصور ضرغام :

لم يكد شاور يطمن فى دست الوزارة بعد نكبة بني رزيك حتى هاجمه الأمير ضرغام بن سواد بجموع من أتباعه ، واضطره إلى الفرار نحو نور الدين زنكى صاحب دمشق مستنجداً ، فاستولى ضرغام على الوزارة ، وأعمل سيفه فى رقاب الأمراء وكبار الدولة حتى يخلو له الجو . وكان إذا ظن بإنسان شراً جعل الظن يقيناً . وكان كرمه محدوداً على الرغم من فروسيته وجميل محضرته . وقد خشي عمارة على نفسه شر هذا الوزير المغامر ، خصوصاً بعد ما بلغه أنه متغير عليه ، ومضمر شراً ، بسبب قوله فى شاور وبني رزيك :

فقد وقعت وقوع النسر خانهم من كان مجتمعاً من ذلك الرخم

فكان ضرغام ينقم عليه هذا البيت ويقول له : أنا عندك من الرخم؟ وأيضاً بسبب ما كان بين عمارة وبين أحد الثائرين على ضرغام من أكيد

الصحبة . قال عمارة : « وكنت في أيامه خائفاً منه ، متعلقاً بصحبة أخيه ناصر المسلمين »^(١) . وروى عمارة في النكت أن ضرغاماً قال : « غلط معي عمارة يوماً غلطة في شهر رمضان الذي قتل فيه الصالح ، أنا أحفظها عليه ، وهي أني قلت له : اخرج معي إلى الهدف الذي على باب البرقية ، فقال : أنا أكره أن أرى البرقية ومرتفع^(٢) في الاعتقال ، ومذ قبض عليه الصالح لم أجز بالبرقية ، ثم يقول عمارة : « ولعمري لقد جرى مني هذا القول ولم أعلم ما تقول إليه الحال ، ولا ما في نفس بعضهم من بعض . ولما داخلني الخوف من ضرغام انقطعت إلى أخيه همام ، ولم يكن ذلك إلا في آخر مدته ، فلما جاء شاور من دمشق بالغز شغل عني وعن نفسه »^(٣) .

هذه حال صاحبنا في عهد ضرغام : خوف وحذر ومداراة . وكان لقلّة كرمه ، وشدة وطأنه على الناس ، وقتلهم بالظنة صدى مخيف في نفس عمارة . يمدحه عن رهبة لا رغبة ، وينأى عنه ما استطاع إلى ذلك سبيلاً . ثم تابعت الحوادث بسرعة فلم يمر على ضرغام في الوزارة الشهر التاسع حتى انتقض شاور بجيوش نور الدين زنكي على ضرغام ، فحزوا رأسه ، وجازوا بها على الخليج في القاهرة حيث يسكن عمارة ، فروعه ذلك المنظر ، وتمثلت أمام ناظره مصائب الحكم في مصر ، وغليان النفوس فيها ، فقال مرتجلاً :

أرى دست الوزارة صار سيفاً يحز بحده صيد الرقاب
كانك رائد البلوى وإلا بشير بالمنية والمصاب

(١) النكت ص ٧٤ .

(٢) هو الظهير المرتفع الذي ناز على ضرغام ، وكان صديقاً لعمارة .

(٣) النكت ص ٧٧ .

٥ - وزارة شاور الثانية: (١)

تسكر شاور في هذه الوزارة للناس ، وأخذ يظلم إخوته وأولاده وعبيده ومن يلوذ به ، وأكثر من سفك الدماء بغير حق . وكان يأمر بضرب الرقاب بين يديه في قاعة البستان من دار الوزارة ، ثم تسحب القتلى إلى خارج الدار . فضج الناس من ذلك ، وبحثوا عن أقرب المقربين للوزير ليرفع عنهم هذا النير ، فلم يجدوا إلا عمارة ، فكتب في ذلك نصيدة منها :

ألا أن حد السيف لم يبق خاطراً من الناس ألا حائراً يتردد
ذعرت الورى حتى لقد خاف مصلح على نفسه أضعاف ما خاف مفسد
فأغمد سفار المشرفى وعد بنا إلى عادة الأحسان وهى التغمد
تجاوز وإلا فالعظم صخره يذوب وماء النيل لا شك يجمد

فلم يكن لصوت عمارة هذا من أثر إلا منع القتل داخل الدار .

وعلى الرغم من صرامة هذا الوزير ، وشدة بطشه بالناس ، كانت الصلة بينه وبين عمارة متينة ، فاخصه بأنسه ، واصطفاه لنفسه ، وأولاه رعايته وجعله يتردد على داره ، ويجلس إلى مائدته مرتين في كل يوم . وكان الناس يلوذون بعمارة فيما يرجونه من شاور ويخشونه منه ، فكان يتشفع فيهم لديه ، فيقبل شفاعته ، ولا يرد له أمراً . من ذلك أنه طلب منه الكف عن سفك الدماء بغير حق ، ولم يكن في مقدور غير عمارة أن يشير عليه بهذا . وكثيراً ما نجا أناس من القتل بعد أن رأوا الموت عياناً . كما التمس

(١) تولى شاور الوزارة مرة أخرى على أنقاض وزارة ضرغام ، بمساعدة الجنود النورية ، فسكرت هذه الجنود خارج القاعة ، وهدد الإنرج بدخول البلاد ، وقام المنافسون لشاور بطلبون الوزارة ، فتأرجح كرسى الوزارة تحته ، فلم يجد بدا من استعمال العنف في أفقع صورته .

منه أن يعفيه من قرض الشعر وينقل الجارى على الخدمة راتباً على حكم الضيافة ، فأمر الوزير بإنشاء سجل بإعفائه من قوله ، وأخذ عليه خطه وخط الخليفة بذلك . ومن كرم شاور معه أنه بعد حرق داره ، ونهب ما أبقى النار منها لزم عمارة دين كثير فأداه عنه . وقبلما تمضى ليلة من مجالس أنسه إلا ويحمل إلى دار عمارة أصناف عديدة من الحلوى والمأكولات الشهية . وكان شاور يقول لعمارة : « ما تركنا الزمان نفعل في حقك بعض ما يجب من حقك » . كما كان يقول إذا غاب عمارة عن مجلس أنسه : « لعن الله مجلساً لا يحضره فلان »^(١) .

« وله معنى من الأحسان ما هو أشهر من هذا وأكثر ، ولكنى أتركه لكثرة »^(٢) . وقد سجل عمارة كل ذلك في شعره ونثره .

ثم أدى اضطراب الأمور في مصر في تلك الأثناء إلى أن قبضت الجنود النورية على شاور وأرسلته إلى الخليفة العاضد ، فأمر بقطع رأسه ، وطويت بذلك صفحة حياته .

ولم يقف عمارة هواه فقط على الخلفاء والوزراء الذين قدمنا بعض شأنهم معه ، ولكنه اندس في أوساط أقارب الوزراء وكبار الأمراء ، وشاركهم جملة أسرارهم ، وغوامض أخبارهم وأحوالهم . يقول عمارة فيهم : « فما منهم إلا من كاشفتهم وعاشرتهم ، وبلوت سمينهم وغتهم ، وقويهم ورثهم ، وانكشف المصقول من الصدى ، والجيد من الردى »^(٣) . وكانوا يكرمونه ويعتزون بصحبته ، فبادلهم حباً بحب ، ونظم فيهم الأشعار . نذكر منهم على سبيل المثال :

(١) النكت ص ٩١ (٢) النكت ص ٩٣ (٣) النكت ص ٩٣ .

طى بن شاور : فهو الذى زاد فى راتب صاحبنا خمسة عشر دينارا إقامة ، وأطلق له فى القوت مائة أردب وستين ، وأطلق له رسم الشعير الخيله ، ورتب له عشرين أردبا من القمح فى كل شهر ، وعشرة شعيرا . وخلع عليه ثلاث مرات ، وحله على مهرة دهما ، وقبل شفاعته عنده . فنظم عمارة فيه شمرا كثيرا ولكنه نهب كله من دار الخليج^(١).

ومنهم ورد الصالحى : وقد مدحه عمارة بقصائد غر ، فكان ورد من جانبه لا يقطع صلاته به ، وقد أرسل له فى يوم واحد « مهرا كيتا ، وعشرة خرفان رضع سمان ، وعشرة أباليج سكر ، وخمس دكا كيج كبار زيت طيب ومثله حار ، وخمسين أردبا من القمح ، وعشرين دينارا »^(٢).

ولم تقف صلاتهم له عندهذا الحد ، بل كانوا يقدمون له هدايا لطيفة ، كالسلال الملىء بالحلوى والكمك والنقود فى الأعياد . ولم يكونوا معه فى الكرم سواء بل كانوا يتفاوتون ، كل على حسب قدره . ومنهم من كان يصحبه ويقربه حيناً ، ثم يتنكر له حيناً آخر ، ومثال ذلك الكامل ابن شاور ، فإنه فى زمن بنى رزيك لم يكن ينقطع عن منزل عمارة ، وربما ظل فيه معه النهار كله وبعض الليل ، بل ربما طرقة سحرا ، وخرج عشيا ، فلما تولى أبوه الوزارة احتجب عن صاحبنا وكأنه ما يعرفه ، فتلقاه يوما بقصيدة منها :

وما راعنى غدر الشباب لأننى أنست بهذا الخلق من كل صاحب
وغدر الفتى فى عهده ووفاته وغدر المواضى فى نبو المضارب
ومنها :

رأيت رجلا أصبحت فى مآدب لديكم وحالى وحدها فى نوادب

تأثرت لما قدمتهم علاكم على وتابى الأسد سبق الثعالب
ومع هذا لم يرجع الكامل عن تنكره لصاحبنا .

ومهما يكن من شيء ، فقد أنفق عمارة أيامه في عهد الفاطميين يرح
في بحبوحة الرخاء والمجد ، لما كان يغدقه هؤلاء عليه من العطايا الوافرة ،
والخلع الكثيرة ، والرواتب المخصصة له من بيت المال . وكانوا يقرّبونه
من مجالسهم ، ويقدمونه على سائر الشعراء وأهل الأدب . وقد رعى ذلك
لهم ، فصار من أنصارهم ، ومن أشد المتحمسين لهم ، فلما شعره بمدائحهم ،
وجلب على نفسه كره الأيوبيين لما استبدوا بأمر البلاد بعدهم .

حياة عمارة في عهد الأيوبيين

في عهد أسد الدين شيركوه وصلاح الدين :

بقتل شاور في ربيع سنة ٥٦٤ هـ انتهى أول فصل من فصول مأساة
سقوط الخلافة الفاطمية ، وبدأ المذهب الشيعي يتوارى سريعاً . فتولى
الوزارة أسد الدين شيركوه قائد الجيوش النورية بأمر العاضد ، وكان أسد
الدين سني المذهب ، يتبع نور الدين زنكي السني صاحب دمشق ، ولم يطل
به إلا لجل فئات ، وتولى الوزارة بعده ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن
أيوب ، بأمر العاضد أيضاً . فقامت المكائد في وجهه على ساق وقدم ،
خصوصاً مكيدة نجاح كبير الخصيان وما تبعها من ثورة العبيد . ولكن
صلاح الدين تمكن من تشتيت شمل الجميع . وما لبث أن قطع الخطبة
الشيعية وأحل محلها الخطبة السنية العباسية . وتبع ذلك موت العاضد في
محرم سنة ٥٦٧ هـ ، فصار صلاح الدين سيد مصر المطلق ، ولا مرد لحكمه فيها .
هذه الحوادث المتلاحقة حزت في نفس عمارة ، حيث رأى دعائم
الخلافة الشيعية التي كثيراً ما تغنى بها تنهار أمام عينيه ، ورأى العاضد -

إمام الدولة الفاطمية - يموت كذا لما انتقلت الخطبة إلى المستنصر العباسي في بغداد . وزاد في نكده أن صلاح الدين أمر عامله قراقوش بفتح خزائن القصر وتفريق ما فيها على قومه وأتباعه ، وإخراج آل العاضد من القصر ، ووضعهم في دار فسيحة : الرجال وحدهم ، والنساء وحدهن ، حتى لا يتناسلوا . كما جمع كتب القوم وأحرق معظمها . هال عمارة ذلك ، ولم يستطع التعرض له بقول ولا فعل ، لعلها جزوة وستخبو بعد حين .

انزواء عمارة :

ولكن الرياح أتت بما يشتهي صلاح الدين ، فضعفت الدولة النورية في دمشق ، وتمكن صلاح الدين من الاستقلال بمصر ، وأخذ يوطد ملكه الجديد، ويفشر مذهبه السني بكافة الوسائل ، ويقضى على كل ما هو شيعي أو شبه شيعي ، ويجمع حوله الأنصار . إلى هنا انزوى عمارة ، وانقطعت رواتبه ، وزال ما كان مقررا له من الرسوم ، وقضى الذين كانوا يرعونه في زمن الفاطميين . فانقلبت حاله من حلو العيش إلى مره ، وأصبح حزنه على ما فرط من أيام الفاطميين مثارا لنظم أشعاره . فأخذ يكثر من ذكرهم ، والتأسف عليهم ، والدعاء على من كان سببا في هلاكهم . ويقول في حسرة مريرة ، وقلب منجوع يرثيهم بقصيدة مطلعها :

رميت يادهر كف المجد بالشلل وجيده بعد حسن الحل بالعطل

ولما اشتد الضنك بعمارة ، وزاد ما لحقه من بؤس وشقاء وجه قصيدة إلى صلاح الدين ، ولم ينشدها أمامه ، وكانت بعنوان : « شكايه المتظلم ، ونكاية المتألم ، مطلعها :

أيا أذن الأيام إن قلت فاسمعي لنفثة مصدور وأناة موجه

ولكن انحياز عمارة نحو الفاطميين أصمى أذن صلاح الدين عنه ،

فقدم غيره من الأدباء والشعراء وقربهم من دولته ، وأجزل من عطائهم ، واعتمد على ولائهم في تثبيت دعائم مملكته السنية الجديدة ، أمثال القاضي الفاضل ، وعهاد الدين الكاتب ، والقاضي ابن شداد ، وغيرهم من أعلام الدولة الصلاحية .

مؤامرة عمارة ومقتلة

ولما رأى عمارة أن ما كان يؤمله من قيام الشعب بثورة قوية تقضى على الدولة الصلاحية السنية ليس إلا حلما من الأحلام ، وأن بعض الثورات التي اندلعت بالفعل لمقاومتها قد أخذت في مهدها ، لما رأى ذلك أخذ منه الأسى كل مأخذ ، وجعل يفكر في طريقة تقضى على هذه الدولة ، وتعيد أصدقاءه الفاطميين من جديد .

١ — وكان أن دبر مؤامرة سرية واسعة النطاق ، امتدت إلى داخل البلاد وخارجها ، وضمت رجالا من أتباع الفاطميين ، كما ضمت بعض الناقمين من أتباع صلاح الدين . اتفق رأى الجماعة على استدعاء الفرنج من صقلية والشام إلى مصر ، على شىء بذلوه لهم من المال والبلاد . وكان مقصودهم أن الفرنج إذا قصدوا البلاد وخرج إليهم صلاح الدين بنفسه ثاروا هم بالقاهرة ومصر ، وأن كان صلاح الدين يقيم في القاهرة ويرسل جنوده لتقابل الفرنج قام المتآمرون في وجهه ، وقبضوا عليه وأخذوه أخذاً باليد ، وفي كلتا الحالتين يعيدون الدولة العلوية بإجلاس أحد أبناء العاضد على كرسي الخلافة . وقد احتاط عمارة - رئيس الجماعة - للأمر ، فشجع أخا صلاح الدين على فتح اليمن ، حتى يأخذ جانبا كبيرا من الجنود معه فيضعف جانب صلاح الدين . ثم خطت الجماعة خطوة جريئة أخرى ، فقبل أن ينفذوا مؤامرتهم اتفقوا فيما بينهم على تعيين الخليفة والوزير ، وتقاسموا الدور والأملاك .

هكذا حبكت المؤامرة ولم يبق إلا تنفيذها . ولكن الستر انكشف ،
وظهرت الخبايا سافرة أمام صلاح الدين .
وقبل في انكشاف أمرهم إن الفقيه الواعظ زين الدين بن نجاد
أدخلوه في سرهم ، فاطلع على جميع أمورهم ، فنقل أحوالهم إلى صلاح الدين .
كما أتى الخبر من بلاد الفرنج بجملة الحال ، عن طريق رسول أتى في الظاهر
إلى الصلاحيين ، وفي الباطن إلى المتآمرين ، فوضع صلاح الدين على
الرسول من يثق به من النصارى ، فأخبره الرسول بالخبر على حقيقته .

وقد ذكر وجه آخر في انكشاف أمرهم ، وهو أن عبد الصمد الكاتب
كان إذا لقي القاضي الفاضل يخدمه ويتقرب إليه ، فتسكر له يوماً ، يخاف
القاضي أن يكون قد صار له باطن مع صلاح الدين ، فأخبر على بن نجاد
الواعظ بهذا التسكر ، وطلب منه كشف سببه ، فبحث فعلم مقصود الجماعة ،
وأخبر القاضي الفاضل به ، فأمره أن يطلع صلاح الدين على واقعة الحال ،
فتم ذلك .

ومهما يكن من شيء ، فقد أخذ صلاح الدين الجماعة وقرروهم فأقروا ،
فأمر بصلبهم جميعاً (١) . والحقيقة أن هؤلاء المتآمرين ، وعلى رأسهم
صاحبنا عمارة ، قد ارتكبوا خطأ جسيماً في حق أنفسهم ، وفي حق وطنهم ،
وفي حق دينهم ، أيا كان هذا الدين ، فلا يصح أن نستعدي الأجنبي على
بلادنا مهما كانت الدوافع . وهم من أجل هذا خائنون خيانة عظمى
تستوجب العقاب الذي أنزل بهم ، فكانوا عبرة لغيرهم .

(١) اللوحتان ٤٤ ، ٤٥ من تاريخ الواصلين وحوادث سنة ٥٦٩ هـ من الجزء ١١
في ابن الأثير . وقد توارثت أخبار هذه المؤامرة في كثير من كتب المؤرخين والكتّاب ،
أمثال : المقدسى ، وابن خلكان ، وابن خلدون ، والعقاد ، والذهبي ، والياقنى ، وغيرهم .

٢ — ويذكرون سيباً آخر لقتل عمارة ، وهو أن صلاح الدين لما توجه إلى الشام استناب عنه في مصر ابن أخيه تقي الدين عمر ، فبلغه ولوع عمارة بمراثي العاضد ، والتعريض بتنقيص غيره ، فأمر بشنقه ، فاستشفع بالقاضى الفاضل على ألا يعود إلى مثل ذلك ، فشفع فيه ، فقبلت شفاعته . ثم بلغ تقي الدين أن عمارة قال :

عظمتما الأمر ونخمتما ما ابن شاه شاه إلا ابن شاه
ومن تكون الشاة أما له فما يكون التيس إلا أباه

فأمر بشنقه لثاني مرة ، فلما بلغ عمارة ذلك ذهب إلى القاضى الفاضل وقال له :

عبد الرحيم احتمل صداعى فالرأس يعتاده الصداع
فضحك منه ، وشفع فيه .

ولكن تعلق صاحبنا بالفاطميين ، وحسرتة على ما فرط من أيامهم أنسته خطر الشنق ، فقال يرثيهم من قصيدة رائعة :

لى بالديار غداة البين وقفات أبكى رسوما خلت منهن سادات
هى المنازل لى فيها علامات من بعد سكانها أهل العلامات
منازل العز تبكىنى بسعيهم منازل لم تزل عندى عزيزات
ومنها فى التعريض بالأيويين :

قد مات قوم ومامات مكارمهم وعاش قوم وهم فى الناس أموات
يارب أن كان لى فى وصلهم طمع عجل على فلتأخير آفات

وإلى هنا لم يعد فى قوس الصبر منزع ، فأمر بطلبه وبشنقه . فلما بلغ

عمارة ذلك ترمى إلى باب القاضى الفاضل ، فأخبر أنه نائم ، فخرج ليهرب وهو يقول .

عبد الرحيم قد احتجب أن الخلاص من العجب
ولكن الرسل أدركوه فأمسك به وشنق^(١) .

وذهب جمهور المؤرخين والكتاب إلى أن الذى تألم من هذه الأشعار وأمر بالشنق هو صلاح الدين نفسه^(٢) .

٣ — وثمة سبب ثالث لمقتله ، فقد قالوا : يرجع سبب قتله إلى بيت من الشعر نسب إليه فى القصيدة التى حرض فيها شمس الدولة أخا صلاح الدين على فتح اليمن ، وهذا البيت هو :

قد كان مبدأ هذا الدين من رجل سعى إلى أن دعوه سيد الأمم
فأفتى الفقهاء بقتله بسبب الزندقة الواضحة فى هذا البيت^(٣) .

وفى ظن الخزرجى أن هذا البيت المنسوب لعمارة وضع أعاديه عليه ، فإنه يحاشيه من قول مثله^(٤) .

ويقول عماد الدين الكاتب : « وقعت اتفاقات عجيبة فى قتله ، فمن جملتها أنه نسب إليه بيت من قصيدة ذكروا أنه يقول فيها :

قد كان مبدأ هذا الدين من رجل سعى إلى أن دعوه سيد الأمم

(١) ص ٩٧ ج ٤ من كتاب الانتصار ، لابن دقيق .

(٢) باخرمه ، والبهاء الجندى ، وابن واصل ، والذهبي ، والأصفهاني ، وغيرهم .

(٣) الذهبي فى تاريخ الإسلام . حوادث سنة ٦٠٩ هـ .

(٤) مرشد الزوار . ص ٣٩٦

ويجوز أن يكون هذا البيت معمولاً عليه ، فأقنّى فقهاء مصر بقتله ،
وحرصوا السلطان على المثلة بمثله^(١) .

تنفيذ الشنق : هذه هي الأسباب التي تذرّع بها الأيوبيون لقتل عمارة ،
ومهما اختلفوا فيها فما لا شك فيه أن عمارة ظهر للدولة صلاحية شجاً في
حلقها ، ومتآمراً على سلامتها . يذب عن أعدائها الشيعيين باللسان ،
ويحاول أن يعزز ذلك بالعمل . فلم ير صلاح الدين إزاء هذا إلا القضاء
عليه ، وإراحة البلاد من متاعبه .

وقد ذكر الخزرجي كيف تم الشنق فقال :

« ويقال إن السلطان صلاح الدين لما استشار القاضي الفاضل في أمره
قال : عمارة نسجنه . فقال : يرجي خلاصه . فقال : نضربه عقوبة . فقال :
الكلب يضرب فيسكت ثم ينبع . فقال : نشنقه . فقال : الملوكة إذا أرادوا
شيئاً فعلوه . ونهض قائماً . فعلم السلطان أن هذا هو الرأي .

وقيل : أحضر عمارة ، فأخذ الفاضل في تلطيف أمره مع السلطان بينه
وبينه ، فقال عمارة : بالله يامولانا لا تسمع منه ما يقوله في . فقال السلطان :
نعم ، والله أعلم بأمر الفاضل وأمر عمارة . ثم أنه رسم فيه بما رسم . فقال
عمارة للموكلين به : بالله مروا بي على باب القاضي الفاضل لعله يرق بي .
فروا به . وكان الفاضل جالساً على باب داره ، فلما رآه مقبلاً دخل
داره ، وأغلق بابه . فقال عمارة :

عبد الرحيم قد احتجب إن الخلاص من العجب^(٢)
ثم سيق إلى المشنقة .

(١) خريدة القصر وجريدة مصر . قسم شعراء المين . اللوحة ٢٥٧ .

(٢) مرشد الزوار ص ٣٩٦ وتوانرت رواية استغفاه بالقاضي الفاضل ، واحتجاب
هذا عنه في كتب الجهرة من المؤرخين والكتاب .

وأختلفوا أيضاً في زمان ومكان صلبه . فذهب بعضهم إلى أنه شئق في درب يعرف بجزاة البنود في القاهرة في ثاني عشر من رمضان سنة ٥٦٩ هـ (١) .

وذهب آخرون إلى أنه شئق بين القصرين في يوم السبت لليلتين مضتا من شهر رمضان من هذه السنة (٢) . بينما يرى المقرئى أنه شئق وصلب فيما بين بابي الذهب وباب البحر في يوم السبت ٣ من رمضان . وتحفظ البعض فلم يحدد يوماً بل قال أنه شئق في رمضان (٣) .

ويقول عماد الدين السكائب أنه شئق في شعبان أو في رمضان (٤) .

وحقق بعض الباحثين يوم شئقه بالتاريخ الميلادى ، فاتهموا إلى أنه شئق في ١١٧٤/٤/٦ م (٥)

وعمهما يكن من شيء فقد شئق عمارة سنة ٥٦٩ هـ ، وصلب في القاهرة ، وطويت بذلك صحيفة حياته ، وأسدل الستار على مأساته :

ومد على صليب الصلب منه يميناً لانتطول إلى شمال
ونكس رأسه لعتاب قلب دعاه إلى الغواية والضلال (٦)

(١) باخرمة . في تاريخ ثغر عدن ص ١٧ ج ٢

(٢) ابن واصل . في تاريخ الواصلين ، اللوحة ٤٥

(٣) الحزرجى . في مرشد الزوار ص ٣٩٦

(٤) الحريدة . نسخة خطية مصورة بدار الكتب . اللوحة ٢٥٧

(٥) أمثال ابن بول . ودير نبورج . والمستشرق كراتشوفسكى في مقاله عن عمارة بدائرة المعارف الإسلامية .

(٦) هما لعمارة في أحد المصلين .

ولم يسلم عمارة بعد شنقه من لسان الشعراء ، فقال فيه تاج الدين
الكندى بعد صلبه :

عمارة في الإسلام أبدى خيانة
وبائع فيها بيعته وصليبها (١)
فأمسى شريك الشرك في بغض أحد
وأصبح في حب الصليب صليباً
وكان خبيث الملتق أن عجمته
تجد منه عوداً في النفاق صليباً
سيلقى غداً ما كان يسعى لأجله
ويسقى صديداً في لظى وصليباً

(١) الحريدة . قسم شعراء اليمن . اللاوحة ٢٥٨ .

الباب الثاني

مذهبه الدينى والسياسى

شاع بين المؤرخين والكتاب القدماء أن عمارة سنى شافعى، بل ومتعصب لسنيته . ونحنا نحوهم بعض كتابنا المحدثين (١) .

ولكنى حينما أطلت النظر فى ديوان عمارة ، واستعرضت كتابيه : تاريخ اليمن ، والنكت العصرية فى أخبار الوزراء المصرية ، وقرأت ما نشر من رسائله النثرية ، كونت لى رأياً آخر يخالف ما ذهب إليه القدماء والمحدثون . وأستطيع أن أقول الآن فى غير حرج أن عمارة ليس سنياً متطرفاً ، ولكنه شيعى معتدل . وسأحاول تفصيل ما أجملت ، ذاكرآ من شعره ونثره ما يدل فى ظاهره على سنيته، وما أثبتته الكتاب والمؤرخون فى هذا الصدد . ثم أناقش هذا الكلام ، مبيناً ما فيه من شطط . وبعد هذا أقدم ما عندى من نصوص وقرائن ناطقة بشييعيته . كل ذلك فى ثلاثة فصول على النمط الآتى :

الفصل الأول : عمارة سنى شافعى

الفصل الثانى : الرد على النصوص السابقة

الفصل الثالث : عمارة شيعى

(١) أمثال الدكتور حسن ابراهيم حسن فى كتابه « الفاطميون فى مصر » ص ١٧٤

الفصل الأول

عمارہ سنی شافعی

۱ - يقول عمارۃ : « وكانت تجرى بحضرته ^(۱) مسائل ومذاكرات ، ويأمرني بالخوض مع الجماعة فيها ، وأنا بمعزل عن ذلك لأنطق بحرف واحد . حتى جرى من بعض الأمراء الحاضرين في مجلس السمر من ذكر السلف ما اعتمدت عند ذكره وسماعه قول الله عز وجل : (فلا تقعد معهم حتى يخوضوا في حديث غيره) ، ونهضت فخرجت ، فأدركني الغلمان . فقلت : حصاة يعتادني وجعها ، فتركوني ، وانقطعت في منزلي أياماً ثلاثة ، ورسوله في كل يوم والطبيب معه . ثم ركبته بالنهار فوجدته في البستان المعروف بالمختص في خلوة من الجلساء ، فاستوحش من غيبتى وقال : خيراً . فقلت : إني لم يكن في وجع ، وإنما كرهت ما جرى في حق السلف وأنا حاضر ، فإن أصر السلطان بقطع ذلك حضرت وإلا فلا . وكان لى في الأرض سعة ، وفي الملوك كثرة . فعجب من هذا وقال : سألتك بالله . ما الذى تعتقد في أبي بكر وعمر ؟ قلت : أعتقد أنه لولا هالم يبق الإسلام علينا ولا عليكم ، وأنه ما من مسلم إلا ومحبتهما واجبة عليه ، ثم قرأت قول الله تعالى : (ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه) فضحك ، وكان مرئاضاً حصيفاً قد لقي في ولايته فقهاء السنة وسمع كلامهم .

ومما يلتحق بهذا الفصل أننى لم أشعر في بعض الأيام حتى جاءتنى منه رقعة فيها أبيات بخطه ، ومعها ثلاثة أكياس ذهباً ، والأبيات قوله :

قل للفقيه عماره يا خير من أضخى يواف خطبة وخطابا
اقبل نصيحة من دعاك إلى الهدى قل حطة وادخل إلينا البابا
تلق الأئمة شافعين ولا تجد إلا لدينا سنة وكتابا
وعلى أن يعلو محلك في الورى وإذا شفعت إلى كنت مجابا
وتعجل الآلاف وهى ثلاثة صلة وحقق لا تعد ثوابا

فأجبهته مع رسوله بهذه الأبيات :

حاشاك من هذا الخطاب خطابا يا خير أملاك الزمان نصابا
لكن إذا ما أفسدت علماءكم معمور معتقدى وصار خرابا
ودعوتم فكبرى إلى أقوالكم من بعد ذاك أطاعكم وأجابا
فأشدد يدك على صفاء محبتي وامنن على وسد هذا البابا (١)

ويقول عماره أيضا :

« وقال لى يوماً (٢) ونحن على خلوة : أعلمت أن الصالح طمع فيك أن
تصير مؤمناً من يوم أن دخل الأشر بن ذى الرياستين فى المذهب ، ولولا
طعمه فيك أن ترجع إلى مذهبه ما ساه ابن ذى الرياستين بدرهم . فأنشدته
قولى :

مجالس الأنس تطوى على الذى كان فيها

فقال : قل ولا حرج عليك . قلت : لو لم أكن على بصيرة من مذهبي
لمنعنى النخوة من التنقل . فكان بعد ذلك يقول للصالح : ما لكم فيه طمع
فأنزكوه (٣) .

(١) النكت ص ٣ وما بعدها .

(٢) أى سيف الدين الحسين بن أبى الهيجاء .

(٣) النكت ص ١٢٦ و ١٢٧ .

٢ - ويقول عمارة في موضع آخر :

« فمن أول ما صنعه الله تعالى ذكره معي ، وله الحمد ، ثم له الحمد ، على نعمه التي لا تحصى ولا تعد ، وأطافه التي لا تحد ، أنى تفقهت . وقد قال الله تعالى : (فلو لا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم .) وقال صلى الله عليه وسلم : (من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين) . وأقمت في زبيد ثلاث سنين وجماعة من الطلبة يقرءون عندي مذهب الشافعي والفرائض في المواريث ، ولى في الفرائض مصنف يقرأ بالبين ،^(١) .

ويقول عمارة عند كلامه على زريق الفانكي ، وزير فانتك بن منصور آل نجاح : « فكان له بين ذكور وأناث ثلاثون ولداً ، وتناسخت فريضة وفريضة من مات من أولاده وأولادهم قبل القسمة ، فانتشرت واتسعت حتى لم يقدر أحد من العلماء على قسمتها ١٠٠٠ ، ثم بين عمارة أن بعض الناس أراد شراء بعض الأراضى من ورثة الوزير زريق فلم يتمكنوا ، لعدم القدرة على صحة سهام كل وارث . وحدث أن اتصل عمارة بشيخ فرضى قد جاوز الثمانين ، فذاكره فريضة زريق ، فاندفع فيها الشيخ كأنه يحفظها غيباً ، حفظها منه عمارة ، إلى أن يقول : « ولما وصلت إلى زبيد أسكنت الفقيه في آخر الدار بحيث لا يراه أحد غيرى . وكنت بالليل أقرأ عليه الفرائض ، وبالنهار أقرأ عليه حرف أبي عمرو بن العلاء في القرآن العظيم ، وكان فيما يقرؤه القراءات السبع . ثم أخذت أكرر المسألة التي لأولاد زريق إلى أن صرت أنحدث فيها مع نفسى غيباً . ثم تقدمت إلى القائد سرور الفانكي فادعيت عنده معرفتها ، وهو من أشد الناس حرصاً على

الابتياع من آل زريق وقال : أن صحت دعواك دفعت لك كذا وكذا مبلغاً قد أنسيته . فلما صحت أحضر المال فدفعته إلى الفقيه أبي محمد عبد الله ابن القاسم الأبار ، فهو رأس الشافعية يومئذ بزيد ، وعليه قرأت المذهب الشافعى . . ولم يبرح من هنالك حتى قسم المال بين الفقهاء وأجزل نصيبى فيه ... (١)

٣ - جاء فى قصيدة «شكاية المتظلم ونكاية المتألم» بيت من الشعر يشيد بكرم الفاطميين ، ويشير بوضوح إلى أن عمارة سنى المذهب ، وهو : مذاهبهم فى الجود مذهب سنة وإن خالفونى فى اعتقاد التشيع وأنا أزعى أن جمهور المؤرخين والكتاب قد اعتمدوا على النصوص السابقة حينما ذهبوا إلى أن عمارة سنى شافعى ، وسأعرض أقوال بعضهم هنا ، على سبيل المثال لا الحصر :

(١) من ذلك ما قاله ابن واصل : «وكان عمارة بن على البنى كثير التعصب لهم» (٢) لأنه قدم عليهم من الذين فأحسنوا إليه ، وخولوه ، فرعى ذلك لهم ، ووفى لهم . والإنسان - كما قيل - صنعة الاحسان ، ولم يكن على مذهبهم ، وإنما كان شافعيأ سنياً ، فلما زال أمرهم رثاهم بالشعر ، وذب عنهم باللسان إذ لم يمكنه الذب عنهم باليد . » (٣)

ويقول أيضاً : «كان عمارة بن على البنى من الشعراء الفحول المجيدين ، ولم يكن شيعياً وإنما كان فقيهاً على مذهب الشافعى . وقد ذكر مباينته لمذهب القوم من قصيدة حيث يقول :

أفاعيلهم فى الجود أفعال سنة وأن خالفونى فى اعتقاد التشيع

(١) تاريخ اليمن من ص ٧٤ الى ص ٧٦ (٢) أى الفاطميين

(٣) تاريخ الواصلين ، اللوحة ٣٥

وذكر هو عن نفسه في كتاب صنفه أنه أقام بزييد ثلاث سنين يقرأ عليه مذهب الشافعي رضي الله عنه . قال : ولي في الفرائض مصنف يقرأ باليمن .^(١)

(ب) ويقول ابن خلكان في ترجمة عمارة :

« ورأيت في كتابه الذي جعله تاريخ اليمن أنه فارق بلاده في شعبان سنة اثنتين وخمسين ، وكان فقيها شافعي المذهب ، شديد التعصب للسنة ، أديباً ماهراً ، شاعراً مجيداً ، محادثاً ممتعاً . فأحسن الصالح وبنوه وأهله إليه كل الإحسان . صحبوه مع اختلاف العقيدة لحسن صحبته . »^(٢)

(ج) ويقول الخزرجي : « وكان شافعيًا شديد التعصب للسنة . . »^(٣)

(د) وكذلك قال بسنيته : الذهبي في تاريخ الإسلام ، وهو ينقل قول ابن خلكان في هذا الصدد . كما ذكره السيوطي في باب فقهاء الشافعية من كتابه : « حسن المحاضرة » بقوله : « كان عمارة فقيهاً فرضياً »^(٤) . ويقول الياقبي : « الفقيه عمارة بن علي بن زيدان الحمكي المذحجي اليمني الشافعي ، نزيل مصر ، وشاعر العصر ، كان شديد التعصب للسنة »^(٥) . ويقول العماد الأصفهاني : « والعجيب من عمارة أنه تأبى في ذلك المقام عن الانتماء إلى القوم وترك ، وغطى القدر على بصره ... فملك »^(٦) .

(١) تاريخ الواصلين للوحتان ٤٦ - ٤٧

(٢) وفيات الأعيان ج ١ ص ٤٧٥ - ٤٧٧

(٣) مرشد الزوار إلى قبور الأبرار . ص ٣٩٦ (٤) ص ٢٨٨

(٥) مرآة الحنان ج ٣ ص ٣٩٠

(٦) الحريدة . قسم شعراء اليمن . اللوحة ٢٦٣ .

الفصل الثاني

الرد على النصوص السابقة

١ - أما النصوص الأولى فالرد عليها سهل ميسور إذا علمنا أن طرفي النزاع مختلفان في العقيدة الدينية ، وأعني بهما : الملك الصالح طلائع ابن زريك وزير الفائز والعاقد الفاطميين ، وعمارة البني . فعمارة الشيعي معتدل ، تلقى مبادئ شيعيته الأولى في اليمن ، موطن الزيدية القريبة إلى أهل السنة ، ومسرح الشيعة العبيدية ممثلة في الدولة الصليحية ، والدولة الزيدية .

أما الصالح فشيوعي إمامي متعصب في إماميته حتى آخر ليلة من حياته . فقد قالوا : أنه « قدم في أول أمره إلى زيارة مشهد الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه بأرض النجف من العراق في جماعة من الفقراء ، وكان من الشيعة الإمامية » . ثم ساعدته الظروف فانتقل من العراق إلى مصر ، واتصل بالخلفاء الفاطميين حتى قلد أمر البلاد . « ولما ولي الوزارة مال على المستخدمين بالدولة وعلى الأمراء ، وأظهر مذهب الإمامية ، وهو مخالف لمذهب القوم . » واستمر في تشييعه الإمامية ، يجمع لها الأنصار بالبذل والعطاء إلى آخر أيامه .

« ولما كان في الليلة التي قتل صبيحتها قال : في هذه الليلة ضرب في مثلها أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وأمر بقرعة بمنلثة فاغتسل وصلى على رأى الإمامية مائة وعشرين ركعة ، ^(١)

وهكذا عاش الصالح حياته إمامياً ومات إمامياً ، على الرغم من أن الدين الرسمى للدولة هو الشيعة الإسماعيلية . ولم يكن للخلفاء قوة تروىب الخارجين على دين الدولة ، بل كان الوزراء أصحاب السلطة العليا فى البلاد . فشنون الدولة فى أيديهم ، ومصائر الشعب تحت تصرفهم ، ولم يكن المصريين إلا إقرار عملهم ، والاعتراف للغالب منهم . فإذا مات الخليفة قام وزيره باختيار من يراه ، لا من يريده قوم الخليفة . وليس أدل على ذلك من قول الصالح بن رزيك عند استخلافه العاضد ، وقد سمع ضجة من الخارج قيل له عنها : أن الناس يفرحون بالخليفة ، فقال : « كئانى بهؤلاء الجهلاء وهم يقولون : مامات الأول حتى استخلف هذا ، وما علموا أننى كنت منذ ساعة استعرضهم استعراض الغنم » (١) .

« واستولى الملك الصالح طلائع بن رزيك على الديار المصرية ، وبايع العاضد ، وأقامه صورة ، وكان كالحجور عليه لا يقضى فى كل ما يريد » (٢) .

وكانت إمامية الصالح مشهورة ، يعرفها القاصى والدانى ، وكثيراً ما كان بعض الناس يكيدون لأعدائهم بادعاء أنهم يطعنون فى مذهب الإمامية ، لينكل بهم الملك الصالح وأعوانه . ولم ينبج شاعرنا من مثل هذه الوشايات ، فيحدثنا عمارة بعد أن ذكر سفره إلى مصر للمرة الثانية أنترسل عن أمير الحرمين لدى الملك الصالح بسبب جنائى جناها خدمه على حاج مصر والشام ، يقول : « فخرج الأمر من عند الصالح إلى الوالى بقوص أن يعوقى بقوص ، ولا يأذن لى فى الرجوع ولا فى القدوم إلى باب السلطان حتى يرد أمير الحرمين ما أخذ من مال التجار ، وقيل أن ذلك بسبب

(١) حياة صلاح الدين الأيوبى ، للدكتور أحمد بىلى ص ٥٦ .

(٢) التجوم الزاهرة ، لأبى المحاسن ص ٨٨ .

ما نقل إلى الصالح عن أنى طعنت في مذهب الإمامية . . فأشدته عند السلام عليه قصيدة . . وأشرت فيها إلى البرامة مما نسب إلى من القول في مذهبه ، (١) .

وكانت أحواله طوراً له وتارة عليه ، فيما هو عليه فرط العصية في المذهب ، ولو شرحت هذه الواحدة لكثرت وطالت ، واتسعت وعالت ، (٢) .

وإذن فقد كان للصالح مذهب ديني يتعصب له ، ويدعو إليه ، وهو الإمامية المتطرفة ، التي تستبيح شتم الخلفاء الراشدين ، وتعرض بالسوء للسلف الصالح . كما كان للدولة الفاطمية مذهب شيعي آخر هو الإسماعيلية . وإذا علمنا أن سلطان الدولة في يد الوزراء - وخصوصاً في آخر أيامها - كما قدمنا ، فهمنا السبب الذي جعل عمارة يأبى ما عرضه عليه الصالح من الأموال والهبات ، وما أغراه به من جاه وسلطان ، ثمناً لانتقاله إلى مذهبه الخاص ، وهو الإمامية ، لا إلى المذهب الرسمي للدولة ، وهو الإسماعيلية ، وعلمنا أنه ليس بغريب على عمارة أن يترك مجلس الصالح لما تعرض جلساؤه بالطعن في حق الساف ، والانتقاص من شأن الخليفتين : أبي بكر وعمر .

٢ - أما النصوص الثانية فتحتمج إلى وقفة قصيرة :

استأنف عن شاعرنا اشتغاله بفقهِ الشافعي في فجر حياته ، ففي سنة ٥٣١ هـ وهو حدث أرسله والداه إلى زبيد لتلقي العلم . وكانت زبيد في هذا الوقت سفينة تخطب للعباسيين . فلازم القلب أربع سنين على الفقيه

(١) النكت ص ٤٢ . وقد أجمع المؤرخون والكتّاب على أنه كان شديد المبالاة في تشييعه لمذهبه ، حتى أنه صنف كتاباً سماه : الاعتماد في الرد على أهل القناد . وجمع له الفقهاء وناظرهم عليه .

(٢) النكت ص ٤٨ .

ابن الأبار وغيره . وقد صنف كتاباً في الفرائض على هذا المذهب ، ومن هنا سمي بالفرضي ، واتسم بميمس السنية . وإذا سرنا مع القائلين بأنه واد سنة ٥١٥ هـ فمعنى هذا أنه تلقى مذهب الشافعي حول سن العشرين . ثم حدث أن ترك صاحبنا زبيد وانتقل إلى عدن بقصد التجارة . فقدمها وهي محكومة بدولة شيعية عبيدية ، هي الدولة الزيدية ، فاتصل في أول الأمر بالأديب الفاضل أبي بكر بن محمد العيذى ، فأكرمه وأمره بمدح الداعي محمد بن سبأ ، وهو إذ ذاك صاحب الدعوة . قال الفقيه : (١) « فاعلمته أنى لست بشاعر ، فلم يزل يلزمني ، حتى عملت قصيداً غير مرضى . فأعرض الأديب عنه ، وعمل على لسانى قصيداً مرضياً ذكر به المنازل من زبيد إلى عدن وهنا به الداعي محمد بن سبأ بأعراسه على ابنة الشيخ بلال ، بالفاظ خاصة كناية ، ثم تولى عنى نشيدها بالمنظر ، وأنا حاضر كالصنم ، لا أنطق . أخذ لى جائزة من الداعي بلال وطيباً ، واشترى لى بضاعة بالمال الذى كان معى . ثم لما عزم على السفر قال : يا هذا ، إنك قد وسمت عند القوم بسمة الشاعر ، فطالع كتب الأدب ولا تجمد على الفقه ، » وكان ذلك سبب تعلمه له ، واشتغاله بالشعر ، وصحبة الملوك من ذلك الوقت . فلما أكمل من الأدب ، وصار عيناً من أعيان زمنه لم يزل مصاحباً للملوك آل زريع خاصة ، ولم يكن يشمر له شعر بأحد من ملوك اليمن غيرهم ، (٢) . وهكذا ترك شاعرنا زبيد وبضاعته ، يومئذ مزجاة فى الأدب ضعيفة ، فلما اتصل بدعاة الشيعة فى اليمن ترك الفقه السنى ، واشتغل بالأدب حتى نبغ ، ولم يتصل بعد ذلك إلا برجال من الشيعة . ثم زال نشاطه كفقيه سنى شافعى ، واتجه إلى اعتناق المذهب الشيعى ، وخصص له لسانه ونشاطه وحياته على ما سياتى :

(١) وأنا أشارك هـ . درينبورج فى أنى لم أر هذا النص المنسوب لعامة فى أحد مؤلفاته .

(٢) السلوكة . للبهاء الجندى . المجلد الأول ص ١٥٠ . راجع كذلك الخريدة ، قسم شعراء اليمن ، اللوحة ٢٦٤ .

وفى تصورى أن شهرته كفقيه سنى على العموم، وفرضى على الخصوص ربما أتت من حله لفريضة زريق الفاتكى المذكورة آنفاً . ولا فضل لعمارة فى حلها ، ولكن الفضل لذلك الشيخ الفرضى الذى عثر به عمارة وحجزه بداره ، وأخذ يقرأ عليه الفرائض ليلاً ، حتى حفظ منه تلك المسألة . ثم تقدم إلى سرور الفاتكى وادعى عنده معرفتها . وقد كانت هذه الشهرة سبباً فى نجاته من القتل حين همت الحبشة فى زبيد بالفتك به سنة خمسين وخمسمائة ، إذ قال لهم القائد سرور : « أليس هو صاحب مسألة (زريق) ؟ والله لا يقتل »^(١) .

وقد شاع اتسامه بهذه الصفة حتى كان يعرف عند أهل زبيد بعمارة الفرضى .

٣ — أما النصوص الثلاثة فقد اعتمد على البيت الأول منها جل المؤرخين القائلين بسنيته . ولست أدري كيف انفقوا فى شبه إجماع على هذا التخريج ، مع أن القصيدة يصح أن تسمى متهمة ، كما يقول أصحاب الشرع . فماذا كان ينتظر من أديب متهم بالهوى نحو الدولة السابقة ، واضطرتته الظروف السيئة إلى تلمس المعونة والحياة من حاكم مستبد قابض بيد من حديد على البلاد والعباد ؟ يعلم عمارة أن صلاح الدين أحدث ثورة دينية داخل البلاد ، فقد حولها سريعاً من مذهب شيعى نشر لوائه على مصر نحو قرنين من الزمان إلى مذهب سنى شافعى . وذلك أن صلاح الدين بعد أن تولى الوزارة للعاقد ، وثبت قدمه فى مصر ، وأزال المخالفين له ، وضعف أمر الخليفة العاضد ، وصار قصره يحكم فيه صلاح الدين ونائبه قرافوش^(٢) ، أخذ غلاة السنة يحرضون على المثلة بالشيعية والشيعة ومن تابعهم ، وكان على هواهم . فقال عماد الدين الكاتب مخاطب صلاح الدين :

(١) تاريخ اليمن ص ٧٦ — ٤ — السلوك ، لالهء الجندى . المجلد الاول ص ١٥١ .

(٢) الكامل لابن الاثير ، حوادث سنة ٥٦٧ ج ١١ .

دع الخلافة عباسية ودع الدعى فيها يصادف شر منقلب
لا تقطعن ذنب الأفعى وتركها فالحزم عندى قطع الرأس كالذنب

ثم تقدم صلاح الدين خطوة أخرى فقطع الخطبة الفاطمية وخطب
للعباسيين ، فقوبلت هذه الخطبة بسكون وهدوء عجيبين ، « ولم ينتطح فيها
عنزان ^(١) » كما قال بعض المؤرخين . فلما علم العاضد بها مات مغتما
سنة ٥٦٧ هـ . فانقرضت بموته دولة الفواطم الشيعية ، وجمع صلاح الدين
كتبها وأحرقها ، وبدد من غير مبرر حضارة ديلة بلغت شأوا بعيداً في
المدنية . وقد كان بمصر دار للشحنة تسمى دار المعونة ، يحبس فيها من يراد
حبسه ، فهدمها صلاح الدين وبنائها مدرسة للشافعية أيضاً ، وعزل قضاة
المصريين ، وكانوا شيعية ، وأقام قاضياً شافعياً في مصر ، فاستناب القضاة
الشافعية في جميع البلاد ^(٢) .

ويعلم عمارة أيضاً أن صلاح الدين مشتط في تنفيذ مبادئه الدينية
والسياسية بالقوة والعنف ، لا يعترضه معترض إلا أجهز عليه . وأمامه في
ذلك مثل واضح . فحينما كان صلاح الدين وزيراً للعاضد حدث أن قام
مؤمن الخلافة رئيس قصر الخليفة يعارضه في سياسته الدينية والمدنية ،
فدس عليه صلاح الدين من قتله ، فثار من أجل ذلك جند الخليفة
السودانيون ، « وكانوا أكثر من خمسين ألفاً ، وكانوا إذا قاموا على وزير
قتلوه ، واجتاحوه ، وأذوه ، واستباحوه ، واستحلوه » ^(٣) .

هؤلاء السودانيون الذين كانوا يرعبون أى وزير تحدّثه نفسه بالوقوف
ضدهم أحرق صلاح الدين محلّتهم قرب باب زويلة ، وفيها عيالهم ومتاعهم

(١) الكامل ، لابن الأثير . حوادث سنة ٥٦٧ ج ١١

(٢) نفس المصدر ج ١١ .

(٣) الخريدة ، للمهاد الأصفهاني .

وأموالهم ، قشتتوا وأخذوا وقتلوا تقتيلاً ، ومن بقى طورد إلى الصعيد .
ثم أيد معظمهم .

نظر عمارة فوجد صلاح الدين قوة هائلة لا يقاومها إلا مثلها ، وأنى
لشاعرنا من عدد وعدد ليجاهر بعدائه لهذا المذهب السنى الذى فرضه
صلاح الدين على مصر فرضاً ، وأزال أكبر معقل للشيعة فى الإسلام .
وقد فكر مؤتمن الخلافة السابق فى مقاومته ، ومعه جند الخليفة السودانيون
فقتل وتشئت شمل أعوانه . هذا إلى أن أمور عمارة قد اختلت بسبب
فقره واضطراب حياته . ومادام لا يستطيع التجاهر بمعارضته للصلاحيين ،
ومادام عاجز أعن إظهار دينه ومذهبه على رموس الأَشهاد ، فلماذا لا يتظاهر
بعقيدة لا يعتقد بصحتها ، ويكتم ما فى نفسه حتى يتمكن من عدوه ؟ ولماذا
لا يلجأ إلى « التقية » التى أقرها الشيعة وعملوا بها فى مختلف العصور ؟ بل
أن منهم من أسرف فى استعمالها فأقر بإظهار الكفر لأدنى مخافة أو طمع ؟

فليس من الكياسة إذن لشاعر متهم بالهوى نحو الدولة الشيعية
السابقة وقد أرغمته الظروف القاهرة على القول أن يتحدث إلى رئيس
الدولة السنية الجديدة — وحاله كما ذكرنا — بما يخالف الرأى السائد
الذى أراد هذا الرئيس العنيف . فلم يكن بد من استعمال اللين والمشى مع
تيار الحوادث فى الظاهر حتى يقضى الله أمراً كان مفعولاً . ولهذا اتهم
عمارة شهرته كفقيه شافعى وأخذ يضرب فى قصيدته العينية : (شكايه المتظلم
وفكاية المتألم) على هذا الوتر ، لعله ينال من ورائها شيئاً ، فيذكر كيف تأبى
عن الانتماء إلى الشيعة مع ما بذل له من المال ، وما أحاطوه به من مغريات ،
صمد للزعازع التى عصفت بدينه وهو ثابت لها ...

ويقول كل هذا فى الوقت الذى يتآمر فيه سرّاً للقضاء على الدولة
الصلاحية السنية ، ويعمل جهده لإرجاع الدولة الشيعية من جديد .

وكما تعلق صاحبنا في قصيدتنا هذه بالمذهب السنى ظاهراً ، موجهاً كلامه إلى صلاح الدين ، أخذ يغرى شمس الدولة أخا صلاح الدين بفتح اليمن ، « وكان إذا خلا به يصف له بلاد اليمن وكثرة أموالها » (١) . ويشهد الله أنه لم يكن مخلاًصاً فيما يقول ، « إنما كان تحريضه لشمس الدولة على المسير إلى اليمن ليتم هذا الأمر ، لأن فيه تقليلاً لعسكر صلاح الدين ، وأبعاداً لأخيه وناصره عنه » (٢) .

ومن قوله في ذلك :

أمامك الفتح من شام ومن يمن	فلا ترد جهاح الخيل باللجم
فاخلق لنفسك ملكاً لا تضاف به	إلى سواك وأضر النار في العلم
حاسب ضميرك عن رأى أذاك وقل	نصيحة وردت من غير متهم
ومن قوله أيضاً يحرضه :	

أفاح أرض النيل وهى عظيمة	على كل راج فتحها ومؤمل
مى توقد النار إلى أنت قاذح	بغمدان مشبوباً سناها بمندل
وتفتح ما بين الحصين وأبين	وصنعاء من حصن حصين ومعقل
وتخلق ملكاً لا يحيل بفخره	على أحد إلا على عزمك العلى

فالقصيدة العينية التى وجهها عمارة إلى صلاح الدين مشيراً فيها إلى سنيته لا يصح أن تؤخذ على ظاهرها ، للأسباب التى ذكرتها . كما لا تؤخذ القصائد التى وجهها إلى أخيه شمس الدولة بقصد فتح اليمن على ظاهرها كذلك . وإذن فلا يصح أن نعتبر ما جاء فى تلك القصيدة التى تشبث بها المؤرخون شاهداً على أنه سنى شافعى ، لأنه لم يكن فى مقدوره أن يقول غير هذا .

(١) الروضتين لأبى شامة ج ١ ص ٢١٦ .

(٢) نفس المصدر ج ١ ص ٢٢٠ .

الفصل الثالث

عمارة شيعي

قلنا أن عمارة استنفذ نشاطه كفقهاء شافعي في سنواته الأولى التي قضاهما بزييد . ثم لما سافر منها إلى عدن بقصد التجارة ، واتصل بدعاة الشيعة فيها ترك مذهبه السني جملة ، وأصبح اتصاله ومعاملاته مع الشيعة الذين آنسوا فيه القدرة على الإشادة بمذهبهم ، والدعوة إليه . ولست أعدو الحق إذا قلت أن عمارة انغمس في بيئة شيعية منذ ترك زييد لأول مرة إلى أن قضى عليه صلاح الدين .

فن ذلك الوقت ترك الفقه واشتغل بالأدب لحساب الشيعة وخواص دولتهم . وكان ذا حظوة لدى دعاة الشيعة في اليمن أكثر من غيره . وقد تعرض لبعض ذلك في كتابه : تاريخ اليمن . قال عمارة :

« ورأيت^(١) في يوم عيد وقد أحرقت الشمس في المصلى بظاهر مدينة الحدود ، والشعراء يتسابقون بالنشيد ، فقال لي : قل لهم وارفع صوتك ، لا يتزاحموا . فليست أقوم حتى يفرغوا . وكانوا ثلاثين شاعرا ،^(٢) ويقول أيضا : « واذكر ليلة وأنا عنده في قصره بالحدوة أريد النزول إلى عدن ، وعنده القاضيان . . . ثم يذكر أن الشعراء تقدموا بمدائحهم إليه ، فاستشار جلساءه في مكافأتهم ، فأفتوا بمائة دينار . فقال الداعي : « اجعلوها ثلاثمائة دينار وهي قليل ، ثم نهض وتولينا قسمتها بينهم ،^(٣) » .

(١) أي الداعي محمد بن سبأ .

(٢) تاريخ اليمن ص ٥٥ .

(٣) تاريخ اليمن ص ٥٦ .

« وجاء في كتابه إلى زيد من ذى جبلة يستدعني إليه ، فوصلته ، فعند منولى بين يديه قال : ما أهديت لي ؟ قلت : كذا وكذا من أشياء كنت قد أعددتها له ، قال : ما أريد إلا الشعر ، قلت : والله ما عملت كلمة ، ولا أقدر أعلمها ، خوفاً من أهل زيد ، لأنهم ينقمون علىّ في عمله . فلم يزل يسألني ، والله ، حتى أخجلني .. فلما أنشدته قال : قد كنت أنيت القاضي بخمسمائة دينار وخلعة ، وإنما أتيتك بما تحت^(١) يدك بمثل ذلك ، وأزيدك عنه في الخلعة بثيابي التي على . فقبضت المال والثياب . وكان ذلك أحد الأسباب التي نقمها علىّ الحبشة وهموا بقتلي ،^(٢) .

« ومات في سنة ٥٤٨ هـ . وملك بعده ولده عمران بن محمد بن سبأ ، فنعني أهل زيد من السفر إليه ، وقضى الله بتوجهي إلى ديار مصر . . . سنة ٥٥١ هـ . فأخذت كتاباً من الملك إلى الداعي عمران بن محمد أسأله عن تقسيط المال الذي مات أبوه محمد الداعي وهو عندي له ، وهو ثلاثة آلاف دينار ،^(٣) .

هذه النصوص تدلنا على مبلغ ما كان لشاعرنا من الخطوة لدى دعاة الشيعة ، وأنه كان يتقدم سائر الشعراء ، بل كان الواسطة بينهم وبين الدعاة . وتؤكد من جهة أخرى مقدار ما كان يصيبه من سكان زيد ، لأنه ترك مذهبهم ، وانحاز نحو مذهب الشيعة . يدلنا على هذا ، أنه كان يخاف قول الشعر في مدح الشيعة ، فيعتذر إلى الداعي من قوله . كما أن دولة بني نجاح بزيد كانت تنقم عليه ، لأنها دولة سنية تخطب للعباسيين . بل أن بعض أفرادها تآمروا عليه ، وكادوا يقتلونه ، وأبوا عليه أن يسافر إلى عدن

(١) يريد ديناً له عند عمارة .

(٢) تاريخ اليمن ص ٥٧ .

(٣) تاريخ اليمن ص ٥٨ .

لما مات الداعى محمد بن سبأ . وكذلك تلك العلاقة المادية بين عمارة وبين الداعى ، حتى أنه مات وعند عمارة له حوالى ثلاثة آلاف دينار ، وتنازل الداعى الجديد عمران بن محمد عن هذا الدين لعمارة بواسطة شيعى آخر هو الملك الصالح طلائع بن رزك ، وزير الفائق والعاقد الفاطميين ، وأقر عمران هذا التنازل بالوثيقة الآتية :

« بسم الله الرحمن الرحيم . أقول وأنا عمران بن الداعى المعظم محمد ابن الداعى الأجل سبأ بن أبى مسعود بن زريع بن العباس الياضى ، أن الفقيه عمارة بن الحسن الحكيم برىء الذمة من المال الذى درج من يده لولانا الداعى محمد بن سبأ . وهو ألفان وسبعمائة دينار ملكية ،^(١) .

هذا مع مبالغة الداعى محمد بن سبأ فى إكرام شاعرنا وتمجيده لدرجة تجعلنا لانشك فى إسهامه فى العمل الذى يدعو له هذا الداعى ، وهو العمل على سيادة المذهب الشيعى فى بلاد الإسلام ، ومناهضة المذهب السنى . فيحدثنا عمارة^(٢) أنه كتب رقعة إلى الداعى يطلب الإذن فى الاجتماع به ، فكتب الداعى بخطه على الرقعة ما مثاله :

مرحبا مرحبا قدومك بالسعد — فقد أشرفت بك الآفاق
لو فرشنا الأحداق حتى تطأه — من لقلت فى حقك الأحداق

فلما علم أتباع الداعى المقربون بما فى هذه الرقعة من الأسراف فى الاحترام لهذا الشاعر ثارت حفيظتهم عليه ، وحاكوا حوله الدسائس فى زييد بما يوجب سفك دمه ، حتى اضطر إلى ترك زييد إلى مكة .

(١) تاريخ اليمن ص ٥١ .

(٢) النكت ص ٢٩ .

فرجل هذا شأنه عند أصحاب الدعوة الشيعية في اليمن ، وتلك علاقاته المادية والروحية بهم ، يقابل ذلك نظرة مريبة من أهل السنة في زبده ، وإضمارهم الحقد عليه ، وتربصهم به . « حتى خرج من زبده حاجا ، بل حاجا سنة تسع وأربعين وخمسمائة »^(١) ، ولم يطل مقامه في مكة بل سرعان ما تركها ، واتجه نحو قطر شيعي جديد ، وهو مصر .

رجل هذا شأنه ، لا أشك أبدا في أنه شيعي ، يعيش لهذا المذهب ، ويعمل له ، ويلتقي في سبيله ما يلتقي أصحاب العقائد من عنت وإرهاق ومطاردة .

ولسكى تتأكد من وضوح مذهب شاعرنا الديني والسياسي ، يكفي أن تقرأ مدائحه في آل البيت ووزرائهم ، لترى كيف تنطق بأنه شيعي : فالفاظها وتعبيراتها ومعانيها لاتخرج عن مثيلاتها المألوفة عند الشيعيين : من ذلك قوله يمدح العاضد :

ورثوا الإمامة حاضرا عن غائب وتتداولوها حاضرا عن أول
من ظافر أو فائز أو عاضد بيت خلافته على النص الجلي
أوصى إليك بها ابن عمك بعده نصا كما نص النبي على على

فتأمل معنى قوله : حاضرا عن غائب ، فهمي من التعبيرات الخاصة بالشيعية ، فإذا مات أحد أئمتهم لايقولون أنه مات ولكن غاب . وكذلك قوله : بيت خلافته على النص الجلي ، وكما نص النبي على على . وهذا يؤكد صحة نسب الفاطميين في نظره .

ومن قوله يرد على أحد الشعراء^(١)، وقد أنشد بدم الفاطميين بين يدي صلاح الدين عندما سكن قصر اللؤلؤة :

أُتِمَّتْ يا من هجا السادات والشرفا وقلت ماقلت في ثلهم سخفا
جملتهم صدفا حلوا بلؤلؤة والعرف ما زال سكنى اللؤلؤ الصدفا
وإنما هي دار حل جوهرهم فيها وكفت فأسناها الذى وصفا
فقال لؤلؤة عجبا بيهجتها وكونها حوت الأشراف والشرفا
والجوهر الفرد نور ليس يعرفه من البرية إلا كل من عرفا
لولا تجسمه فيهم لكان على ضعف البصائر للأبصار محتظفا
فذكره للجوهر الفرد، وتجسمه في أئمة الشيعة، من التعابير والمبادئ
المألوفة عندهم . والمهم في هذا الشاهد الذى يسيل حماسة للشيعة أن عبارة
قاله في عصر صلاح الدين بعد أن تقلص سلطان الفاطميين .

والقصيدة الآتية نص في التشيع للعلويين، ويحمل لما حل بهم منذ بدم
دعوتهم :

شأن الغرام أجل أن يلحاني فيه وأن كنت الشفيق الحاني
أنا ذلك الصب الذى قطعت به صلة الغرام مطامع السلوان
ملئت زجاجة صدره بضميره فبدت حقيقة شأنه للشانى
غدرت بموقعها الدموع فغادرت سرى أسيرا فى يد الإعـلان
ومنها :

قد سهلت حزن الكلام لنادب آل الرسول نواعب الأحزان
فابذل مشايعة اللسان ونصره إن فات نصر مهند وسان
واجعل حديث بنى الوصى وظلمهم تشيب شكوى الدهر والخذلان
غصبت أمة إرث آل محمد سفها وشتت غارة الشنآن

(١) هو الأحدب بن أبى حمينة . ومن الايات التى أنشدما قوله :

تسرت بك عنى كان يسكنها فليس بها اعز ولتلبس بك الشرفا
كانوا بها صدفا والدار لؤلؤة وأنت لؤلؤة صارت لها صدفا

وغدت تخالف في الخلافة أهلها
لم تقنع أحلامها بركوبها
وقعودهم في رتبة نبوية
حتى أضافوا بعد ذلك أنهم
فائق زياد في القبيح زيادة
حرب بنو حرب أقاموا سوقها
لهفي على النفس الذين أكفهم
أشلائهم مرق بكل ثنية
مالت عليهم بالنمالي أمة
دفعوا عن الحق الذي شهدت لهم
ما كان أولام به لو أيدوا
أنسام المختار صدق ولانه
فكل بيت من هذه القصيدة الطويلة^(١) ينطق بتشيع صاحبه للعلويين
بأجلى بيان .

ومن قول عمارة يمدح العاضد من قصيدة :

ياخير من نظم المديح لمجده وتنزلت سور الكتاب بمجده .
ومنها :

واذكر أبا الميمون يعتل ذكره شرفا ولا تتعد نحو معده
الحافظ المحفوظ عند مغيبه بثلاثة ورثوا الهدى من ولده
فهو يقول أن العاضد لا يموت ولكنه يغيب ، فإذا غاب ورثه أولاده ،
والغيبة كما قلنا من مبادئ الشيعة .

(١) يقصد بزياد ، زياد بن أبيه ، عامل العراق في بدء عصر بني أمية . ويريد يزيد ،
يزيد بن معاوية الخليفة الأموي ، وقد قتل الحسين بن علي في زمنه .
(٢) تحتوي على ٥١ بيتا .

ومن قوله يعزى بالفائز ويهنى "بجلوس العاضد :

لأن عرضت للفائز الطهر نقلة فأنت أمير المؤمنين مقيم

ومنها :

ورثت الهدى بالنص منه وقوله أخى وابن عمى أن عدمت يقوم

وقد سن ذاك المصطفى فى ابن عمه فمن شر فيكم حادث وقديم

فهو هنا يذكر النقلة يعنى بها الموت ، وهو تعبير شيعى . وكذلك قوله :

نص النبي صلى الله عليه وسلم على ابن عمه على .

وقال يمدح العاضد مضافاً عليه ثوباً من الجلالة لا تكون إلا للأنبياء ،

وأعلى من الأنبياء :

سجوداً فهذا صاحب الركن والحجر ووارث علم النحل والنمل والحجر

وهمساً لأصوات وغمضاً لأعين تشاهد أنوار الهدى وهى لا تدرى

ومن قوله أيضاً يمدح العاضد :

أن حارت الأفكار كيف تقول فى ذا المقام فعذرهما مقبول

ومنها :

لا يبلغ البلغاء وصف منافع أثنى على إحسانها التنزيل

شيم لكم غرأتى بمدحها الفرقان والتوراة والإنجيل

سير نسخناها من السور التى ماشأنا نسخ ولا تبديل

قامت خواطرنا بخدمة نظمها فيكم وقام بنثرها جبريل

شرف تبیت، به قریش كلها عولا لكم وعليكم التعويل

أن الرسول أبوكم من دونها فمن الذى منها أبوه رسول ؟

ومنها :

وسللت غرب فصاحة نبوة شهدت بأنك للنبي سليل

ولا ننسى في هذا المقام قصيدته اللامية المشهورة التي رثى بها الفاطميين بعد انقراض دولتهم ، وهي التي قال ابن سعد فيها : « ولم يسمع فيما يكتب في دولة بعد انقراضها أحسن منها ^(١) » . يقول في مطلعها :

رميت يادهر كف المجد بالشلل وجيده بعد حسن الحلى بالعطل

وقد تناقل الكتاب هذه القصيدة أمثال القلقشندي والمقرئزي وابن واصل وغيرهم . فهذه القصيدة الغراء تدلنا على مقدار ما ألم بشاعرنا ، لانقراض أكبر معقل للعوليين ، وهي الدولة الفاطمية . فهي ليست وفاء لأحسان زال بزوالهم فقط ، ولكن بكاء على انهيار دولة تمثل عقيدة شاعرنا الدينية والسياسية . « وبسبب هذه القصيدة قتل عمارة رحمه الله ، وتمحلت له الذنوب ^(٢) » . وهي « تحقق ما ذكر من الاجتماع على مكاتبة الفرنج ، والخوض في فساد الدولة ، بل الملة ، وتوضح عذر السلطان في قتله ، وقتل من شاركه في ذلك ^(٣) » .

ولا يتسع هذا المقام لسرد كل النصوص الشعرية التي تدل على أن عمارة شيعي متعصب لشييعته ، وما ذكرت فيه الكفاية .

وكان المنتظر من شاعر سني - كعمارة في رأي بعض الباحثين - أن يودع الدولة الفاطمية العلوية كما يشاء وفاؤه لها ، ثم يستقبل بعد ذلك الدولة

(١) خطط المقرئزي جزء ٨ ص ٣٩٢

(٢) الخطط جزء ٢ ص ٣٩٢

(٣) الأروستين جزء ١ ص ٢٢٣

السنية الجديدة بما يليق لها ولؤسسها صلاح الدين من عاطفة دينية واحترام .
ولكننا وجدنا شيئاً آخر : وجدنا عمارة يتنكر للدولة الصلاحية ، فلا يمدح
رئيسها إلا لماماً^(١) ، و صار يظهر في فلتات لسانه ، في نظمه ونثره ، ما يقتضى
التحيز منه ، وأبعاده . وهو يرى ذلك منهم فيزداد فساداً في نيته . وأن
مدحهم تكلف ذلك ، وصرح وعرض فيه بما في ضميره^(٢) ، . أنظر قوله من
قصيدة يمدح بها نجم الدين أيوب :

وكان لى فى ملوك النيل قبلكم	مكانة عرفتها العرب والعجم
وكان يبنى وبين القوم ملحمة	فى حربها ألسن الأديان تختصم
تركت قصدك لما قيل إنك لا	نجد إلا على من مسه العدم
ولست بالرجل المجهول موضعه	ولا لنزر من الأحسان أغنم
ولا إلى صدقات المال أطلبها	ولا عنى نال أعصابى ولا صمم
وإنما أنا ضيف للملوك ولى	دون الضيوف لسان ناطق وفهم

وانظر قوله فى الملك المظفر ابن شاهنشاه أخى صلاح الدين :

عظمتا الأمر وخمته	ما ابن شاهنشاه إلا ابن شاه
ومن تكون الشاة أما له	فما يكون التيس إلا أباه

ثم قارن بين مثل هاتين القصيدتين وبين القصائد التى ذكرت فى مدح
الفاطميين تجد الفرق واضحاً جلياً : فهو يلبس الفاطميين ثوباً من الوفاق
والجلال والتعظيم . أما هنا فيتعاضد ويشعر الممدوح بالاستغناء وعدم
المبالاة ، بل ويتهادى فيسف فى الهجاء .

(١) لا تزيد فيما قرأت عن عشر قصائد .

(٢) الروضتين جزء ١ ص ٢٢٢

ولم يقتصر صاحبنا على التنكر للدولة الصلاحية السنية باللسان ، بل أردف ذلك بالعمل . فيحدثنا المؤرخون أن عمارة السني تزعم مؤامرة سرية واسعة النطاق ، جعلت نصب أعينها سحق الصلاحيين وإرجاع العلويين إلى خلافتهم من جديد . وكاد الأمر يتم على ما يشتهي المتآمرون لولا مظهر بين صفوفهم من تصدع ، وبين أتباعهم من خلاف ، فنقل خبرهم إلى الحكومة ، فنكلت بهم جميعاً .^(١)

ومن رسالة للقاضي الفاضل إلى نور الدين زكي صاحب دمشق يشرح فيها قضية المتآمرين ، وكيف فشلوا وقتلوا تقيلاً ، جاء منها :

«... أن الله سبحانه اطلع على أمرها من أوله ، وأظهر على سرها من مستقبله . والمملوك يأخذ في ذكر الخبر ، ويعرض عن ذكر الأثر لم يزل يتوسم من جند مصر ، ومن أهل القصر ، بعد ما أزال الله من بدعتهم ، ونقض من عرى دولتهم ، وخفض من مرفوع كلمتهم ، أنهم أعداء ، وأن تعدت بهم الأيام ، وأضداد وأن وقعت عليهم كلمة الإسلام . لا تخلو سنة تمر ، ولا شهر يكر ، من مكر يجتمعون عليه ، وفساد يتسرعون إليه ، وحيلة يرمونها ، ومكيدة يتمونها . وكان أكثر ما يتعللون به ، ويستريحون إليه ، المسكاتبات المتواترة ، والمراسلات المتقاطرة إلى الفرنج . . . وكان ملك الفرنج كلما سولت له نفسه الاستتارة في مراسلاتهم ، والتحيل في مفاوضاتهم ، سير جورج كاتبه رسولا إلينا ظاهراً ، وإلهم باطناً .. وعند وصول جورج في هذه الدفعة الأخيرة رسولا إلينا بزعمه ، ورد إلينا كتاب بمن لا زتاب به من قومه ، يذكرون أنه رسول مخائله ، لارسل مجاملة . . . ولما تكاثرت الأقوال ، وكاد يشتهر علينا بهذه الأحوال ، استخرنا الله تعالى ، وقبضنا على جماعة

(١) أنظر مؤامرة عمارة ومقتله في الفصل الثالث من الباب الاول . من هذا الكتاب

مفسدة ، وطائفة من هذا الجنس متمردة . قد اشتملت على الاعتقادات المارقة ، والسرائر المناقفة . فكل أخذ الله بذنبه . فمنهم من أقر طائعاً عند إحضاره ، ومنهم من أقر بعد ضربه .

وبعد أن فصل القاضى أخبار المتأسرين وما كانوا يبيتونه للدولة من مكروه ، قال : « وتناقلت من أهل العلم الفتاوى ، وتوالت من أهل المشورة بسبب تأخير القتل فيهم المراجعات والشكاوى » ، ثم يقول : « قتل الله بسيف الشرع المطهر جماعة من أهل الغواة الغلاة ، الدعاة إلى النار ، الحاملين لأثقالهم وأثقال من أضلوه من الفجار ، وشنقوا على أبواب قصورهم ، وصلبوا على الجذوع المواجهة لدورهم ، ووقع التبع لأتباعهم ، وشردت طائفة الاسماعيلية ونفوا » . (١)

أشهد فى غير نخرج أن القائمين بهذه المؤامرة وعلى رأسهم عمارة البنى لم يقوموا بها لمجرد الوفاء وحده للدولة الماضية ، ولكن لأن عقيدتهم الدينية حملتهم على ذلك ، لأن الوفاء لا يكون على حساب الدين ، خصوصاً فى مثل عصر الأيوبيين .

واست أدرى — مع وضوح النصوص السابقة وشيوعها بين الناس — (٢) كيف اتفق المؤرخون والكتاب فى شبه إجماع على القول بسنيته ، فى تعبيرات يكاد أكثرها يتطابق لفظاً ومعنى ، مما يحمل الإنسان على الاعتقاد بأنهم جميعاً قد استقوا من مصدر واحد لم يتحر الدقة فيما نقل . فى الوقت الذى نرى فيه أشعاره فى مدائح العلويين ، وتفاصيل حياته ، ومنطق وفائعه ناطقة

(١) الروضتين جزء ١ ص ٢٢٠

(٢) يقول ديربذورغ فى مقدمته الفرنسية لكتاب النسكت بصف شيوع أشعار عمارة : « وكانت فى ذلك الوقت متداولة فى كل مجتمع راق من مجتمعات القاهرة » — كما يفهم عماد الدين الأصفهاني فى الحريدة بأن أشعار عمارة ظلت متداولة حتى بعد موت صاحبها .

بشيعة . وقد أتعبت نفسي كثيراً في البحث عن هذا الفقه الشافعى المنسوب
لعمارة فلم أجد له أثراً . كما استعرضت أسماء الفقهاء الذين ذكرهم السبكي
في الطبقات الشافعية الكبرى تحت عنوان : « الطبقة الخامسة فيمن مات
بعد الخمسة » فلم أجد اسمه مدرجاً في هذه الطبقة ، مع أن الشهرة الفقهية
الشافعية التي أذاعها المؤرخون لهذا الشاعر كانت كافية لإغراء السبكي
بذكره ، لأنه ذكر عشرات من النكرات دونه في الشهرة .

ومن محاسن الصدف أنى عثرت على نصوص تؤيد ما ذهبت إليه :

من ذلك مقاله بالخرمة : « جعل عمارة يكثر ذكرهم (أى العبيدين)
والتأسف عليهم ، والدعاء على من كان سبباً لهلاكهم . وكلما هم السلطان
صلاح الدين بأذيته ذب عنه القاضى الفاضل ، حتى كان من قوله فيهم :

لما رأيت عراض الحى خالية من الانيس وما فى الربع سادات

... الأبيات إلى أن يقول :

« واختلف فى دخول عمارة فى مذهب العبيدين ، فيروى أنه مات على
السنة . ويروى أنه دخل فى مذهبهم . قال أبو الحسن الخزرجى : وهو
الراجح عندى ، وأشعاره فى مدائح القوم ناطقة بذلك .^(١) ،

ويقول البهاء الجندى : « ثم المصريون مختلفون ، هل دخل مذهب
الفاطميين أم لا ؟ فالذى ذهب إليه ابن خلكان أنه لم يدخل بمذهب
الفاطميين ، بل مات على السنة . والذى عرفته من مشافهة أحد فضلائهم
من قدم الين ، وهو الشيخ أبو محمد الحسن بن المختار الآتى ذكره فيمن قدم

(١) تاريخ نثر عدن جزء ٢ ص ١٧٠ — ١٧١ طبعة ليدن . والمختار من تاريخ نثر عدن

ص ١٥٦ نسخة مخطوطة بخط حديث فى دار الكتب

الين ، وقد جرى ذكر عمارة فقلت له : « أثنى عليه ابن خلدان ، وذكر أنه بذل له على الانتقال مال فكره ، فكان متعصباً للسنة . فقال : ما هو بصحيح ، بل الأصح أنه دخل بمذهبهم ، وهذا ما صححته ^(١) . »

ويذكر ابن خلدون في تاريخه تحت عنوان : (واقعة عمارة ومقتله) « كان جماعة من شيعة العلويين بمصر ، منهم عمارة بن أبي الحسن الينى الشاعر ... ^(٢) . » وابن الأثير يقول : « صلب صلاح الدين يوسف بن أيوب جماعة ممن أرادوا الوثوب به بمصر من أصحاب الخلفاء العلويين ، وسبب ذلك أن جماعة من الشيعة منهم عمارة بن أبي الحسن الينى الشاعر ... ^(٣) . »

والمستشرق هنرى كاسلز كاي H. C. Kay يقول تعقيباً على قصيدة عمارة اللامية .

رميت يادهر كف المجد بالشل ..

« وفي الحق لو أن هذه الأشعار وصلت إلينا كما أنشأها الشاعر لما كان عجباً أن ننظر إليه كرجل شيعى . وعلى الضد من ذلك ، يكون من الصعب أن نفهم لماذا رفض بالخاص أن ينضم إلى الجماعة ، في الوقت الذى كانت فيه مطامحه النفسية تحمله على أن يفعل ذلك ^(٤) . »

(١) العلوك في طبقات العلماء والملوك . المجلد الأول . ص ١٥٢

(٢) العبر جزء ٥ ص ٢٨٣

(٣) السكامل جزء ١١ حوادث سنة ٩٠٠

(٤) ص ١٠ من المقدمة الإنجليزية للكتاب : تاريخ الين

الخلاصة :

وحاصل القول أنه يمكننا بعد الاستعراض السابق أن نصور تطور مذهبه بطريقة مجملة فنقول :

(أ) الطور السنى :

لقد قضى عمارة طفولته الأولى فى مسقط رأسه بهامة اليمن ، ثم حفظ القرآن ، ولكنه لم ينل من التعليم شيئاً لخلو بيئته من المدارس . وفى سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة ، أى بعد ميلاده بنحو عشرين سنة تقريباً ، انتقل إلى زبيد ليتلقى فيها العلوم والمعارف . وكانت زبيد فى ذلك الوقت فى يد دولة بنى نجاح السنية ، فكان من الطبيعى أن يتلقى فيها تعاليم السنة . فلأزم الطلب أربع سنين ، ثم عاد إلى مسقط رأسه لزيارة أبيه وأمه . بعد هذا قفل راجعاً إلى زبيد ، وأقام بها زهاء ثلاث سنين ، إلى سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة ، وجماعة من الطلبة يقرءون عنده مذهب الشافعى والفرائض فى المواريث .

إلى هنا ينتهى الدور الأول من حياته المذهبية ، وهو الدور السنى الذى اشتغل فيه طالباً ، ثم معلماً .

(ب) الطور السنى الشيعى :

ثم حدث أن اتصل عمارة بالملكة الحرة أم فائك ملك زبيد أثناء تأديتها الحج ، فحصل له منها جانب قوى ، وشفاعة مقبولة ، وتقدم على الأكابر من الفقهاء وأعيان الخواص ، وتسهيل الوصول إليها فى أى وقت .

وحدث أن انقطع الناس عن السفر من زبيد إلى عدن وبالعكس مدة ثلاث سنين ، بسبب اضطراب الأمن على سواحل زبيد ، فقضى ذلك برخص بضائع كل بلد منهما وغلائها فى البيلد الآخر . فأذنت الحرة لعمارة

في السفر إلى عدن ، ودفعت له ألوفاً من المال ، وتذاكر بما يشتري من عدن . وهكذا قضت الظروف بأول اتصال لعمارة بدعاة الشيعة في عدن ، وكانت حكومة في ذلك الحين بالدولة الزريرية العبيدية ، وعلى رأسها الداعي محمد بن سبأ . فاتصل به عمارة ومدحه ، حتى اتسم عند القوم بسمه شاعر ، وأخذ يطالع كتب الأدب ولم يجمد على الفقه . وهنا نلاحظ تطوراً جديداً في حياة عمارة المذهبية ، فبعد أن كان سنياً خالصاً في زيد ؛ في معاملاته وتعليمه وبيئته ، نجد حياته الآن قد اختلطت بأصحاب المذهبين ، وأصبح هوام مقسماً بين رجال الدولتين : دولة بني نجاح الصنية في زيد ، ودولة بني زريع الشيعة في عدن ، مع اختلافهما في العقيدة الدينية والسياسية ، واستمر ذلك نحو عشر سنوات . وكان ذلك طريقاً مأموناً ، خصوصاً عند رجل يقوم بأعمال تجارية عظيمة ، فهو صديق الجميع ، ويعمل للجميع ، إلا أنه كان أكثر ميلاً واختلاطاً بالشيعيين ودعاتهم ، كما بينا في الفصول السابقة .

ولكن دوام الحال من المحال ، فإن المنافسة الدينية والسياسية بين أهل السنة في زيد ، وأهل الشيعة في عدن حملت صاحبتنا على توضيح مذهبه . فادت الظروف وتطور الحوادث إلى انخيازه نحو رجال الشيعة وأخذ جانهم .

وتفصيل ذلك أنه في حدود سنة ثمان وأربعين وخمسمائة كان عمارة في زيد ، فجاءه كتاب من الداعي محمد بن سبأ الزريري صاحب عدن يستدعيه إليه ، وكانت للداعي بيده خمسة آلاف مثقال سيرها معه لibtاع له بها أمتعة من مكة وزيد . فاستأذن عمارة أهل زيد في السفر ، فأذنوا له على غش ودخل من فساد الباطن كما يقول ، فلما قدم إليه وجده خارجاً في حصن ومنتزه ، وقد دخل فيه عروساً منذ ثلاثة أيام ، ولم يصل إليه أحد . وكان جماعة من أكابر التجار وأعيان من أمائل الناس قد سبقوه بمدة ولم

يوصلهم الداعى إليه. فلما وصل عمارة إلى الحصن كتب إليه رقعة مضمونها طلب الإذن بالاجتماع به. فأجاب الداعى ملتزمه ، ورد على رقعته بأسلوب يفيض عطفاً . ثم ركب عمارة إليه ، وأقام عنده في المنزه أربعة أيام ، محاطاً بكثير من الرعاية والتعظيم ، في الوقت الذى لم يسمح فيه لكثيرين غيره بالمثل أمام الداعى . وهنا ثارت ثائرة هؤلاء الأعيان على عمارة ، حسداً منه ، وحقداً عليه . كما ثار أهل زبيد لخروج مواطنهم عمارة عن حدوده ، كصاحب أعمال ، إلى مجلس مقرب للداعى ، عدوهم الدينى والسياسى . فأجمعوا أمرهم على قتله دون علمه . فلما رجع إلى زبيد — مقر بيته وأولاده — من تلك السفرة علم بالمسألة ، فخرج منها إلى الحجاز هارباً . ولا شك فى أن هذه الحوادث المتلاحقة تبين بجلاء مقدار تباعد صاحبنا عن مذهبه السنى شيئاً فشيئاً ، ووقوفه — إلى حد ما — فى صف الشيعيين . وقد رأينا كيف قرب به الداعى دون غيره من أكبر شيعته ، وكيف خاطبه على رقعته بهذا الأسلوب الذى لا يخاطب به إلا أخلص المقرئين . ولو كان عمارة تاجراً فقط يتعامل مع الداعى وحاشيته تلك المعاملات التجارية المألوفة لسكان من السهل على الداعى أن يكل أموره المالية إلى أحد أعوانه يصرفها مع عمارة كما تقضى المصلحة ، أو يصرفها هو بطريقة طبيعية كالتى بين البائع والزبون . ولكن المسألة ليست معاملة تجارية فحسب ، ولكنها علاقة روحية دينية بدأت تتسرب إلى ذهن صاحبنا . ومن يدرى ؟ ربما أنس الداعى منه ميلاً إلى التشيع فأراد إنماء فيه ، بهذه المعاملات الخاصة التى يخصه بها دون سواه ، تأليفاً لقلبه على الدين الجديد . وهل هناك عمل آخر للدعاة سوى نشر دعوتهم بكافة الطرق بين الناس .

وهناك قرينة أخرى ربما تلقى ضوءاً على اتجاه عمارة نحو المذهب الشيعى . ذلك أنه لما هرب إلى مكة تولى السفارة عن أمير الحرمين إلى الدولة الفاطمية . ونحن نعلم أن الخلافة الفاطمية فى مصر كانت تمثل أكبر

معقل للمذهب الشيعى . وكان الزريعيون فى عدن - أصحاب عمارة - يخطبون باسم العبيدين ، ويجىء تقليد دعائهم من مصر . فلماذا وقع اختيار أمير الحرمين على عمارة ، وهو لم يزر مصر من قبل ؟ وربما كان فى الحجاز من المصريين وغيرهم من هم أولى منه وأجدر . وكيف قبل عمارة أداء تلك المهمة ؟ وإذا كان سنياً متعصباً - كما يقول بعضهم - واضطر إلى ترك زيد السنية ، فلماذا لم يتوجه إلى قطر آخر سنى كالعراق مثلاً ؟ الجواب على هذه الأسئلة هو أن عمارة أخذ هواه يتجه إلى المذهب الشيعى ، ويريد أن يتصل بدعائهم وخلفائهم عن كذب . فأخذ يسعى عند أمير الحرمين للقيام بالسفارة عنه إلى الدولة الفاطمية فى مصر ، وقد تم له ما أراد . وهكذا توطدت العلاقة بين عمارة من جهة ، وبين الخلافة الفاطمية فى مصر وأتباعها الزريعيين فى اليمن من جهة أخرى . وصرنا نرى المشاكل المالية تحل بين الطرفين بدون التجاء إلى طرف ثالث . أما الاتصال الروحى فظاهر من الأمثلة الشعرية والنثرية التى تعرضت لها فى الفصول الماضية .

(ب) الطور الشيعى :

ويمكننا أن نقول الآن ، إن عمارة بعد استيلائه مصر نهائياً قطع علاقته بأهل السنة ، وترك مذهبهم جملة . واسكنه لم يعلن تشيعه صراحة ، بل ظهر ضمناً فى مدائح لآل البيت وتشيعه لهم . وقد خاطبه الملك الصالح وزير الفائز والعاظم فى ضمه إلى مذهبه فأبى ، لأن هذا الوزير صاحب الأمر والنهى الفعلى فى البلاد ، وكان شيعياً إمامياً متطرفاً فى إماميته ، وكان فى الوقت نفسه صديق عمارة ، فرأى الشاعر أن يكتف أمره حتى لا يعلن إسماعيليته ، فيغضب صاحبه . ومع اعتراف عمارة بأن النبى صلى الله عليه وسلم قد وصى على على نساء ، وتبعاً لذلك يعتبر أبو بكر وعمر قد اغتصبا الخلافة منه ، مع كل هذا كان يتعرج هذا الشاعر من سب الخلفاء الراشدين ،

(٧ - اليمن)

وينسكرك على غيره من الشيعة ذلك ، حتى إنه ترك مجلس طلائع بن رزيك لما خاض جلساؤه في حق السلف . والسبب في ذلك أن عمارة حديث العهد بمذهب الشيعة ولم ينس بعد أصول مذهب أهل السنة الذي نشأ عليه ، وليس من المعقول أن ينقلب فجأة من سني إلى شيعي متطرف ، بل إنه أخذ من الشيعة نواحيها الهادئة .

وبعد قتل الصالح غيلة توالى الحوادث بسرعة ، واضطربت أحوال الخلافة والوزارة معاً ، فقتل الوزراء الشيعة الذين جاءوا بعده . ثم وقعت البلاد في أيدي أسد الدين شيركوه ، وابن أخيه صلاح الدين السنين . ولم يكن للخلفاء في هذه الآونة ظل من السلطة . فاستمر عمارة في كتمان مذهبه حتى تنجلي تلك الغمة . ولكن سرعان ما سقطت الدولة الفاطمية سنة ٥٦٧ هـ ، وقامت على أنقاضها دولة بنى أيوب السنية . فكان لذلك وقع سيئ في نفس عمارة ، فحاول إعادة الدولة الشيعية من جديد ، باللسان وبالعمل ، فأخفق ، وانتهى الأمر بقتله .

ولنا أن نسأل الآن هل كان عمارة مخلصاً لمذهبه الديني ، أم كان أناانياً يجرى وراء مصالحه الشخصية ؟ ويتفرع من هذا هل حينما شعر بضعف مركزه ، وهوان نفسه عند صلاح الدين ثار ضده باللسان وبالعمل ؟ ولو أن صلاح الدين أعطاه ما أراد ، هل كان من الممكن أن يقف في صفه ؟

بعد دراستي لشخصية عمارة اليني ، ووقوف في عند كل معنى من معاني كلامه ، يمكنني أن أقول في غير حرج إنه كان مخلصاً فيما يعتقد أنه الحق ، بحيث لا تأخذه في ذلك لومة لائم . نعم قد تضطره الظروف أحياناً إلى كتمان هذا الذي يراه صواباً ، فيظهر غيره ، وفي الوقت نفسه يعمل جاهداً على أن يعود الحق إلى نصابه . وليس ذلك عيباً ، بل هي مرنة يجب أن

يتحلى بها أهل الفطنة والكياسة ، وذلك ما يسمى عند أهل الشيعة « بالثقية » ، وهذا الاخلاص في العقيدة يمكننا أن نوضحه بالأمور الآتية :

١ — إن عمارة عربي أعرابي ، تربى مع أهله بأحد أودية تهامة ، وأهل هذه الناحية بقية من العرب لا يساكنهم فيها حضري ولا ينأكونه ، ولا يجيزون شهادته ، ولا يرضون بقتله قوداً بأحد منهم . فهذه البيئة الأعرابية خلقت في نفس عمارة أنفة تأبى عليه التلون والتذبذب ، ولذلك وجدناه يرد على أحد أتباع الصالح بن رزيك حين عرض عليه الانتقال إلى مذهبه هذا الرد المفحم : « لو لم أكن على بصيرة من مذهبي لمنعتني النخوة من التنقل » .

وقد يقال^(١) أن هذه النخوة العربية هي التي جعلته يشور ضد صلاح الدين ، وفاء لأصدقائه الفاطميين . ولكنني أرى أن للنخوة حدوداً يجب ألا تتعداها ، فلا يصح لعمارة — السنّي في نظر بعضهم — أن يستعدي الفرنج ضد الدولة السنية التي يدين بمذهبها ، إرضاء لنخوته وأنفته ، ورغبة في إرجاع أصدقائه الفاطميين إلى الحكم ، مع أنهم ليسوا من مذهبه الديني . هذا لا يستقيم ، لأن النخوة والوفاء لا يكونان على حساب الدين ، ولكنه ثار ضد الصلاحين ليعيد سلطان الفاطميين الذين يدين بمذهبهم .

٢ — الوفاء من أظهر أخلاق هذا الرجل ، وهي صفة لازمة طول حياته . وقد كان بنو رزيك ، أصحاب الوزارة أيام الفائز والعاقد ، من أصدقاء عمارة ، فمدحهم ووفى لهم . فلما قتل العادل بن طلائع بن رزيك على يد شاور ، أقبل الشعراء والخطباء لهنتة شاور بالوزارة ، فقالوا من بنى رزيك ، فتألم لذلك عمارة ، وأنشد لشاور قصيدة منها :

(١) ذهب هذا المذهب ابن واصل في كتابه (مفرج الكروب) .

صحت بدولتك الأيام من سقم وزال ما يشتكيه الدهر من ألم
زال ليلالي بنى رزيك وانصرمت والحمد والذم فيها غير منصرم
كان صالحهم يوما وعاد لهم في صدر ذا الدست لم يقعد ولم يقم
ولو شكرت لياليهم محافظة لعهدا لم يكن بالعهد من قدم
ولو فتحت في يوما بدمهم لم يرض فضلك إلا أن يسد فمي

فانظر كيف مدح عمارة أعداء شاور في مجلسه ، وأمام جمع حافل من أتباعه ، وذلك وفاء لهم . فشكره شاور وابناه على هذا الوفاء . ولو جاز الوفاء مع الأشخاص حتى بعد ذهاب ريجهم ، وفي حضرة أعدائهم ، فلا أقل من أن يكون ذلك في المذهب الديني .

٣ - لو كان عمارة يجري وراء مآربه الخاصة ، فيرمى بشعره في السوق لينال العطايا ، ولا يهمه بعد ذلك أكان سفيا أم شيعيا ، لوجدنا له شعراً مشهوراً في كل قطر حل به . ولكننا وجدناه يقيم مدة طويلة في زبد السنية ، وفيها من الأعيان والوجهاء كثيرون . ومع هذا لم نظفر له بشعر في أعيانها . وكذلك الحال في الحرمين . بينما شهر شعره في أعيان بنى زريع الشيعيين بعدن . ولهذا يقول البهاء الجندی : « فلما أكل من الأدب وصار عينا من أعيان زمنه ، لم يزل مصاحباً للملوك آل زريع خاصة ، ولم يكذب يشتهر له شعر بأحد من ملوك اليمن غيرهم ^(١) » .

٤ - وإذا كان عمارة غير مخلص لمذهبه الديني لانتع الملك الصالح في إماميته عند أول إشارة ، خصوصاً وأن خزائن الدولة الفاطمية تحت تصرفه وحده . وقد وعده بإعلاء شأنه بين الناس ، وقبول شفاعته في أى شخص أراد ، وعجل فأرسل إليه ثلاثة آلاف دينار ، ووعدته بالمزيد . ومع

(١) الملوك . المجلد الأول ص ١٢١ .

كل هذا تأبى عمارة عن الالتئام إلى مذهبه ، لأن الصالح إمامى ، أما عمارة فهمواه مع الإسماعيلية .

٥ — ولو كان أناًياً لا يهتم بمسائل الدين ، لانتهمز فرصة انهيار الدولة الفاطمية ، وقيام الدولة الصلاحية ، وأطلق البخور أمامها ، ومشى فى زمرة الناطقين بلسانها ، كالقاضى الفاضل ، وابن شداد ، وعماد الدين الكاتب وغيرهم . وعمارّة خير من يجيد هذا النوع من الإعلان ، بفصاحته وحسن بيانه ، لو كانت الدولة الصلاحية على هواه . والمعروف عن صلاح الدين أنه أراد فى أول أمره تأليف قلوب المصريين حوله بشقى الوسائل ، خصوصاً أمثال عمارة من النابغين ، فقد كان يسره أن ينضم إلى دولته هذا اللسان ، ولكنه التوى عليه ، وصار يظهر فى فلتاته ما يقتضى التحرز منه وأبعاده . فأخذ صلاح الدين حذره منه . ولا يصح أن يرد علينا بقصيدهته العينية المسماة : « شكاية المتظم ونكاية المتالم » ، لأنه قالها بعد أن ظمرت خبايا نفسه للدولة ، فتركته يقول ويشكو دون أن تلتفت إليه .

٦ — ولا ننسى فى هذا المقام هجاءه لكبار رجال الدولة الأيوبية خصوصاً آل بيت صلاح الدين ، فى الوقت الذى يرى فيه الفاطميين رثاء خشى من قيام ثورة بسببه ضد الدولة الجديدة . وحينما كانت تهم الدولة بمعاقبته كان القاضى الفاضل يذب عنه . ولو أن عمارة تقدم للدولة فى أول الأمر تائباً منضمّاً إلى مذهبها لكان له شأن وأى شأن ، خصوصاً وقد كانت فى حاجة ماسة إلى علماء أهل السنة وعلى الأخص من أتباع الشافعى ، لتنظيمها من جهة الإدارة والقضاء والتعليم . ولكن كيف ذلك وإخلاص صاحبنا لمذهبه الشيعى يأبى عليه هذا الانضمام ، ولم يقنع بمجافاة الدولة سلبياً بل أردف ذلك بالعمل ، فأنشأ جمعية سرية خاطبت الفرنج فى أمر دخول البلاد ، وإرجاع الفاطميين إلى تولى السلطة ، فكشف أمرها ، وتشتت أصحابها .

عما تقدم يتبين أن هذا الرجل مخلص في دينه ، وفي لمذهبه ، وقد لاقى
في سبيل ذلك ما لاقى من عنت وإرهاق ، وانتهى أمره بالشنق .

وبعد :

فلعل هذا الباب أكون قد وفقت لتصحيح بعض الأخطاء التي
وقع فيها جمهرة السابقين ، وجاراهم فيها بعض اللاحقين . ولست أدعى
العصمة فيما أقول ، فقد تظهر أدلة تخالف ما ذهبت إليه ، وقد يفهم بعض
الناس النصوص التي ذكرتها على غير ما فهمت . لأن المسألة - في تصوري -
لا تعدو أحد أمرين : أحدهما أن عمارة سني ، والثاني أنه شيعي . وقد
ترجح الثاني عندي ، واطمأنت إليه نفسي ، للأسباب والنصوص التي
تعرضت لبعضها في هذا الباب .

الباب الثالث

آثاره الأدبية والعلمية

عاش عمارة قرابة خمسة وخمسين عاما ، قضى حوالى عشرين منها فى طفولته وصباه . يمرح فى كنف أسرته بوادى وساع بهامة اليمن . لا يشغله عن لوه إلا فترات من اليوم يركن فيها إلى شيخ يعلمه القرآن ، ويأخذه بشيء من الكتابة والقراءة . ثم انتقل إلى زبيد وانقطع إلى العلم والتعليم فى مدارسها نحو خمس سنين . وكان يتلقى أثناءها فيما يتلقاه الفقه الشافعى على الفقيه ابن الآبار . وعلى غيره . فبرع فيه وتخصص فى بعض مسائله .

وإذن فقد قضى صاحبنا الخمسة والعشرين عاما الأولى من حياته ، طفلا ، وفتى ، وطالبا ، على نحو ما كان يفعله أولاد الأشراف فى تلك الجهات ، ولم يعرف عنه إنتاج علمى ولا أدبى حتى سنة ١٥٣٥ هـ ، وهى السنة التى وقف عندها تحصيله العلمى فى زبيد . وبانتهاء هذا الطور من حياته بدأ طور الإنتاج ، وقد شغل باقى حياته . وهو يربو على الثلاثين عاما .

وقد ظهر نشاطه العلمى أول ما ظهر فى زبيد بعد خروجه من مدارسها ، وظهوره أمام علمائها وطلبتها بمظهر الأستاذ . فيحدثنا عمارة فى النكت أنه اجتمع عنده بعض الطلبة ، وأخذوا يقرءون عليه مذهب الشافعى والفرائض فى المواريث . استمر هذا شأنه مع تلاميذه ثلاث سنين كان من نتائجها أن صنف كتابا فى الفرائض يقول عنه أنه يقرأ فى اليمن^(١) .

ويبدو لى أن هذا الصنف ما هو إلا شبيه بالمذكرات التى يلقيها بعض

المدرسين في مدارسنا الآن على تلاميذهم في علم من العلوم، فلا حظ لها في الذبوع، إلا بين طلبة المدرسة التي يدرس فيها صاحب المذكرات . وبمرور الأيام قد يأتى مدرس آخر ويعمل غيرها في نفس العلم مع بعض التعديل والتحويل أو الزيادة أو النقصان ، فيقل شأن الأولى ، وأحيانا ما يهملها صاحبها فتضيع . وإذن فهذا الذى صنفه عمارة في الفقه ليس كتابا كالسكتب المعروفة ، يحدث عند ظهوره إثارة من بحثه وتمحيصه ، والحكم عليه أوله ، خصوصا وكانت زبيد غاصة بالعلماء والمفكرين والمتأدبين في ذلك الحين . وكان عمارة عند ظهور مؤلفه هذا عالما صغيرا ترك كرسى التلمذة قريبا ، فلم يأت به العلماء بكتابه ، ولم يبق من قيمة له إلا في نفس صاحبه . يدلنا على قلة شأن هذا المصنف أن أحدا من السكتب لم يشر إليه ، وإن أشار إليه أحد فيسند ذلك إلى عمارة نفسه . والسبب في « طبقات الشافعية » لم يذكر عمارة كفقهاء شافعى ، ولم يشر إلى كتابه هذا . وحاجى خليفة في « كشف الظنون » يذكر تحت عنوان : « علم الفرائض » كثيرا من كتب هذا الفن في ثمانى عشرة صفحة^(١) وينسبها إلى أصحابها ، وليس بينها هذا السكتب . وأشار هـ . ديرينبورج إلى هذا المصنف ، ولكنه اعترف بضياعه^(٢) . ومسألة الميراث التي كانت لزريق الفاتكى والتي وردت في كتاب عمارة « تاريخ اليمن » وتعرضت لها في الباب الثانى ، ليس لعمارة فضل في حلها ، وإنما الفضل يرجع إلى ذلك الشيخ الفرضى الذى عثر به عمارة وسأله عنها . فأفتاه بحلها ، فنقل صاحبنا الحل إلى من يهمهم ، فنسب إليه ، ونال بسببه الجوائز .

فإلى أن يعثر على هذا السكتب ، أو يوجد من رآه فيصف موضوعاته

(١) من ص ٣٩٢ إلى ص ٤١٠ .

(٢) ص ٣٤٣ ، عمارة اليمنى ، الجزء الفرنسى .

ونظامه . وإلى أن نقف على فصول من فقه عمارة في أى مؤلف له أو لغيره ، إلى أن نصل إلى شيء من هذا يصح أن نترك البحث في هذا الكتاب الضائع ، وأن نترك الكلام على عمارة كفقيه .

وكما ظهر إنتاجه العلمى أول ما ظهر فى زبيد كذلك الحال فى إنتاجه الأدبى كشاعر . فيحدثنا أن أباه زاره فى زبيد . سنة ٥٣٩ هـ فأنشده شيئاً من شعره ، فاستحسنه وشجعه^(١) . واستمرت حياته حافلة بالشعر والأدب خصوصاً لما استقر بمصر واتخذها وطناً جديداً . وأضاف إلى نشاطه كشاعر أديب فتجا آخر فى عالم المعرفة فألف بمصر كتابين عظيمين فى التاريخ ، أحدهما : تاريخ اليمن ، والثانى : النكت العصرية فى أخبار الوزراء المصرية .

وسينتظم هذا الباب ثلاثة فصول :

الفصل الاول : عمارة الشاعر .

الفصل الثانى : عمارة الكاتب .

الفصل الثالث : عمارة المؤرخ .

الفصل الأول

عمارة الشاعر

التوزيع الإقليمي لشعره :

قلنا فيما مضى إن عمارة جال في ثلاثة أقاليم واسعة ، وشاهد فيها أنواعا من الحياة تختلف في أسلوبها ومظاهرها . وكان من الطبيعي كشاعر أن يترك في كل منها شيئا من شعره ، وأثرا من فنه . ولكن ما بين أيدينا من شعره لا ينمض مع هذه الحقيقة ، فلم أر له شعرا قط له صلة بالحرمين ومن فيهما ، ورأيت له شعرا قليلا جدا في اليمن وأهله ، والباقي بعد ذلك من شعره في مصر وأهلها .

في الحرمين :

وإذا نلّمسنا الأسباب لهذا الشذوذ وجدناها تسعفنا إلى حد ما فيما يختص بالحرمين . فقد كان وجود الشاعر فيهما عبورا فقط ، أو بقصد الحج والزيارة ، وكان ذلك في ثلاث فرص . ولم تزد كل فرصة عن عدة شهور ، كان الشاعر يشتغل أثناءها بشئونه ، ولم يكن عنده متسع من الوقت يرجع فيه إلى نفسه ، ويطمئن إلى شاعريته ، فيواتيه الفن ، ويجرى لسانه بالشعر . أضف إلى ذلك ما عليه الحجاز وأهله من شظف العيش ، وقلة الموارد ، فلم يكن لدى أمرائه وكباره من فائض الأموال ما يغدقونها على أصحاب البيان ، وينشئون حولهم حاشية من الشعراء والأدباء ، على نحو ما نرى عند أمراء بغداد والقاهرة . كما أنه فر من زييد متبها من حكومتها السنية بميله نحو الشيعة ، فلم ير أمامه إلا الحجاز يعبره عبورا ، ومن ثم إلى

قطر شيعى جديد ، لعله يجد فيه ما فقدته من عز خلفه ورائه عند دعاة الشيعة العدنيين . لم يكن الحجاز إذن مقصده الأول فى سفره فيقيم بين ربوعه ، ويقدم لأهله أحسن ما يقدمه شاعر ملك ناصية القريظ .

وهذه الظروف مجتمعة تفسر لنا كيف لبى نداء وجهه إليه أمير الحرمين فى السفارة عنه لدى الدولة الفاطمية المصرية ، وكيف انطلق لسانه بالشعر عند أول مقابلة بينه وبين العبيدين فى القاهرة . وقد طالعت كل ما وقعت عليه يدى من نسخ ديوانه وكتبه وكتب من أرخوا له ولأدبه فلم أعثر على شعر له فى الحجاز . كما أنه لم يشر لاهو ولا غيره إلى شىء من هذا . ولكن من يدري ؟ ربما كان له شعر فى هذه البلاد وفى أمرائها ، وضاع هذا الشعر فيما ضاع للأسباب التى سنذكرها فى حينها .

فى اليمن :

وفيه قضى طفولته وصباه وزهرة شبابه ، ولم يغادره نهائيا ، إلا بعد أن أربت سنه على الأربعين . وقد لعب أدوارا كثيرة فى هذه الحقبة من عمره بين دويلات اليمن المختلفة ، ومع أمرائه العديدين ، واشترك فى شؤنه السياسية والدينية والاقتصادية اشتراكا فعليا مما أثر فى مجرى حياته كما قدمنا . وكان من الطبيعى أن يتناول هذا التأثير شعره وأدبه ومناحى تفكيره ، وأن يوجهه وجهة تتفق مع من يهوى من الأمراء والدويلات . وأول ما نلاحظه فى هذا الصدد أن دعاة الشيعة فى عدن كانوا أول من حضوه على قول الشعر ، وذلك حين أغراه أبو بكر العيذى^(١) - وكان يشتغل لحساب الشيعة - يمدح الداعى لينال جوائزه . ومع اعتذار عمارة عن هذا فقد ظل العيذى يغريه حتى نبه أمره ، وصار من كبار شعراء الشيعة العدنيين . وكما كان شيعة اليمن أول من حضوه على نظم الشعر

(١) وردت فى الخريدة (العبدى) . قسم شعراء اليمن . اللوحة ٢٦٨ .

كما رأينا استأثروا هم أيضاً بأكثر شعره ومدائحهم . وليس من شك في أنه مدحهم ونال عندهم حظوة كبيرة . يدلنا على ذلك قوله في تاريخ الين : « وجاء في كتابه — أى الداعى محمد بن سبأ — إلى زيد يستدعيني إليه ، فوصلته ، فعند متولى بين يديه قال : ما أهديت لى ؟ . قلت كذا وكذا من أشياء كنت قد أعددتها له . قال : ما أريد إلا الشعر .. فلما أنشدته قال : قد كنت أتيت القاضى بنخمسمائة وخلعة ، وأنا أتيتك مما تحت يدك بمثل ذلك ، وأميزك عنه في الخلعة بثيابى التى على ^(١) . » وقد شهد البهائم الجندى بذلك أيضاً فقال : « فلما أكمل من الأدب وصار عيناً من أعيان زمنه لم يزل مصاحباً للملوك آل زريع خاصة ، ولم يكذب يشهر له شعر بأحد من ملوك الين غيرهم ، ^(٢) — ويقول باخمرمة : .. وأشعار يمدح بها الزريعيين ملوك الين ، وخراس دولتهم ، كالأديب أبى بكر العيذى ، وبلال المحمدى ، وولده ياسر . وبعض آل أبى عقامة ، ^(٣)

وإذن فقد عاش عمارة في الين عيشة شعرية حافلة ، يمدح الملوك والأمراء والعظماء ، وينال من وراء ذلك العطايا والجوائز . وقد اشتهر شعره بين الناس ، خصوصاً في الدولة الزيرية صاحبة الدعوة الشيعية . وليس ببعيد أن يكون له شعر في غيرهم كبنى نجاح السنين في زيد ومن إليهم ، ولكن لم يكتب له الذبوع أيضاً لته ، أو لرغبة في نفس عمارة حينما انحاز عن المذهب السننى واتجه نحو المذهب الشيعى .

وعلى الرغم من هذه الحياة الشعرية الحافلة التى أنفقها صاحبنا في الين فإننى لم أر له إلا شعراً قليلاً جداً ينسب إلى ذلك الإقليم ، ويتصل بدوله

(١) ص ٥٧

(٢) كتاب الملوك . المجلد الأول ص ١٥١

(٣) تاريخ نثر عدن ج ١ ص ١٦٧

وأهله . ولعله من المناسب أن أنقل هنا كل ما رأيت من شعره خاصاً بهذا الإقليم كنموذج لأسلوبه ، وطرائق تفكيره في الطور الأول من أطوار شعره :

(١) قال يمدح ياسرا باليمن :

أدركت أوطاراً من الأعداء وملكت من عدن إلى صنعاء
وبلغت بالجرذ العتاق وبالقنا ماشئت من شرف ومن علياء

(٢) وقال يمدح ياسرا باليمن :

سفر الزمان بواضح من بشره واقترب باسم ثغره من ثغره
وأضاء حتى خلت فحة ليله طارت شراراً من توقد فجره
وتمايلت أعطافه فكأنما أعطاه ساقى الراح رقة خمره
وازداد باهر حسنه فكأنما نشر الربيع عليه باهر زهره
واختال في حلال الجمال تطاولا بجمال أيام السعيد وعصره
بالياسر المغنى بأيسر جوده والمقتنى عز الزمان بأسره
من طالت اليمن العراق بفضلته وسمت على أرض الشام وعصره
فأضاء بدرأ في سماء نضاره وصفاته الحسنى ثواقب زهره
أوماترى الأيام كيف تبلجت عن سعيه وتعطرت من ذكره
سبق الكرام لها وأبدى عجز من لم يحوها وأبان عاجز عذره
فكأننا اختصرت له طرق العلا فضلاً وضل عداته في إثره (٤)

(٣) ومن قوله يمدح ياسرا باليمن :

لبس البهاء بسعيك الإسلام وتجملت بفعالك الأيام

(١) لى تعليق على هذه القصيدة ، ذكرته في البحث الخاص بديوان عمارة المخطوط بدار الكتب المصرية ، وهذا البحث ضمن تذييل هذا الكتاب .

فقت الملوك فضائلا وفواضلا وعزائما عزت فليس ترام
خطبوا العلاء وقد بذلت صداقها فنكاحها إلا عليك حرام

لم يبق لدينا ، إذن من شعره الذى أنتجه فى نحو عشر سنوات إلا هذه
المقطوعات الثلاث ، وقد قيلت فى شخص واحد هو ياسر بن بلال ، أحد
كبار أعوان الداعى محمد بن سبأ . وتلك نتيجة محزنة حقاً ، فوتت علينا
دراسة طور مهم من أطوار فن هذا الرجل ، وأضاعت على شيعة ابن
خير ما أنتج فيهم شاعرهم الكبير .

فى مصر :

اتخذها وطناً ثانياً قرابة تسعة عشر عاماً ، منها سبعة عشر فى ظل
الفاطميين ، وسنتان فى ظل الأيوبيين . وفى عهد الفواطم أقبلت عليه الدنيا
بكل رخائها وبهاثها ، وصارت له منزلة عظمى لدى خلفائها ووزرائها ،
وأطلقت له الرسوم والرواتب ، وتقدم على الأكابر والخاصة من أعيانها ،
واقتنى الدور والضياح والجوارى . ومع أنه كانت هناك فترات من الزمن
قضاها منزوياً كما فصلنا ذلك فى الباب الأول ، إلا أنها كانت سحابة صيف
لأنلبث أن تنقشع ، وتصفو بعدها حياته . فلما ظهرت الدولة الصلاحية
انزوى ، لما بينه وبين سياستها وعقائدها من خلاف . وتطورت الحوادث
سريعاً حتى أدت إلى شنقه . فى هذه الأوساط المصرية ظهر أمر عمارة ،
وذاع صيته ، وبلغ السكال فى فنه الشعرى ، حتى صار من أكبر الشعراء
لدى البلاط الفاطمى ، ومن أعظمهم حظاً فى الأجادة . واتخذ الشعر فنه
الخاص ، وعاش عيشة الشعراء المجيدين ، يتسابق إليه طلاب المدائح ،
ويتنافسون فى مرضاته ، وكسب صحبته . فملأ البلاد شعراً ، وأتى فيه من
المعانى الرقيقة ، والأساليب الفخمة ، بما لم يأت به معاصروه . ويكفى أن

تستبعد من ديوانه القطع الثلاث التي قيلت في اليمن ليسكون الباقي منه شعراً
مصرياً خالصاً : في أحوال مصر ، ونيلها ، ومحافلها ، وقصورها ، وتاريخ
أحداثها ، ومدح عظمائها ، والإشادة بعقائدها ، ونظمها السياسية والدينية ،
ووقوفها في وجه الفرنج أعداء الإسلام .

ضياع كثير من شعره وأسبابه :

رأينا فيما مضى أن هذا الشاعر قد نظم كثيراً من شعره في مناسبات
عديدة ، وشعره اليمني مجزوم بحصوله ، وذلك بشهادته ، وشهادة غيره من
المؤرخين . ولكننا لم نعث على هذا الشعر ، لا في كتبه وديوانه ، ولا في
كتب غيره ^(١) ، فما سبب ضياع هذا الشعر ؟ هل تعمد جامعو ديوانه تركه
لمساسه بمسائل الدين أو الحكم في أيامهم ، وذلك بياعاز من أنفسهم أو من
غيرهم ؟ وإذا صح هذا فلماذا شمل الضياع كل شعره اليمني دون المصري ؟
أم ياترى كان الإهمال من ناحية عمارة نفسه ، فحينما غادر اليمن وأهله ،
واستوطن مصر قطع كل صلة به ، فأعدم ما قاله من شعر فيه ؟ وربما ساعد
على صحة هذا الغرض أن شعره اليمني كان في بدء حياته الشعرية لا يخلو من
مآخذ ، شأن جميع الشعراء في بدء تمرينهم ؟ أم يصح لنا أن نفترض وجود
هذه الأشعار الضائعة في مخطوطات موجودة في بعض المكتبات في الشرق
أو في الغرب ، ولم يكشف عنها بعد . بل ربما كانت خزائن الكتب اليمنية

(١) حصل مثل هذا لابن هاني الأندلسي ، فقد نفأ في الاندلس ، وذاع صيته في ربوعها ،
واستمتع في أشبيلية بصحبة ملكها . وتدل الشواهد على أنه كان مبكر الشاعرية ، ومن الشعراء
المكثرين . وحين اتهم بالانحراف في العقيدة ، والاستهتار في السيرة هدده الأندلسيون ، ففر
من البلاد ، واتصل بالدولة الفاطمية في إفريقية . فأين ما قاله من شعر في الاندلس ؟ بل أين المدائح
التي قالها في صاحب أشبيلية الذي رعاها وهباً له سبيل الهروب ؟ لا شيء من ذلك . ويفسرون هذا
القص في ديوانه تفسيرات لا محل لها هنا ،

التي يقال أن إمام اليمن محتفظ بها الآن ، ولم يمكن المستشرقين وأمثالهم من الاطلاع عليها ، ربما كان بهذه الخزائن مخطوطات تحتوي على هذه الأشعار التي سجلها عمارة في مدائح شيعة اليمن ، ووصف ما كان لهم من سلطان ؟ (١)

قد تكون بعض هذه الفروض أو كلها صحيحة ، ولكن الذي لا شك فيه أن كثيراً من شعر عمارة قد ضاع وحرقت داره بالفسطاط . وحاصل ذلك أن الفرنجة حينما قدموا إلى بلبيس أيام وزارة شاور الثانية ، وقتلوا من فيها ، وهددوا العاصمة ، عمد شاور إلى إشعال النار في الفسطاط حتى لا تقع في أيدي الأعداء ، فاستمرت بها النيران أربعة وخمسين يوماً ، حتى أتت على كثير من مبانيها ، وهدمت معالمها . وكان لشاعرنا دار على شاطئ الخليج فاحترقت بما فيها ، ونهب الغوغاء ما أبقت النار منها ، فضاع في هذا الحريق كثير من شعره . يدلنا على ذلك قوله حين أخذ يعدد أصدقاءه من الوزراء والعظماء : « . . وأما علي بن شاور فإن جميع ماقلته فيه نهب من دار الخليج » (٢) .

« ومن لا أقيس أحداً من الأمراء الكبار بمكارمه إلا وجميله على » ، الأمير الظهير مرتفع الناصر في أيام ضرغام بالإسكندرية يطلب الوزارة . . واحترق جميع ماقلته فيه من أشعار (٣) ،

(١) لازالت خزائن الكتب اليمنية حتى الآن محتفظة بأسرارها ، على الرغم من التغير الذي حدث أخيراً في نظام الحكم .

(٢) النكت ص ١٢٧

(٣) النكت ص ١٤٤

المظاهر العامة لشعره

١ - معارضاته لكبار الشعراء :

من المشاهد أن عمارة عارض في كثير من قصائده بعض من تقدموه من كبار الشعراء ، في الموضوع ، والوزن ، والقافية ، وأحياناً في طريقة الحال ، وعدد الأبيات . ولو عقدنا مقارنة نقدية بين ما نظموه في ذلك وبين ما قاله لرجحت كفته في بعض القصائد . وربما رجع هذا إلى تأخر عصره عنهم ، فاستفاد بما أثاره النقد حول قصائدهم من نقد ، فلم يشأ أن يقع فيما وقعوا فيه من مأخذ . ومن أظهر الأمثلة على ذلك ثلاث قصائد عارض فيها المتنبي ، والبحترى ، وأباً تمام .

أما المتنبي فقالوا أنه مدح سيف الدولة بن حمدان في شعبان سنة ٣٤١ بقصيدة لامية من بحر البسيط ، وعدد أبياتها خمسون ، مطلعها :

أجاب دمعى وما الداعى سوى طلل دعا قلباه قبل الركب والإبل
ومنمها :

أقل ، أنل ، اقطع ، احمل ، عل ، سل ، أعد
زد ، هش ، بش ، تفضل ، أدن ، سر ، صل

فجاء عمارة ومدح وردا الصالحى ، أحد أمراء بنى رزيك ، بقصيدة لامية من بحر البسيط ، أبياتها خمسون ، مطلعها :

خذ يازمان أمانا من يدي أملى
لا روعت سربك الاطماع من قبل

ومنها :

فاسلم . ودم ، وابق ، واسعد ، واعل ، واسم ، وسد

وقد ، وجد ، واقتدر ، واحلم ، وطل ، وصل

وهكذا اتفقت القصيدتان في الموضوع ، وقيمة الممدوح ، والوزن ، والقافية ، وعدد الأبيات ، بل وفي التعسف الظاهر في بيت كل كلماته أفعال أمر . ومن يقرأ القصيدتين يشعر بتوافق في الروح ، وتناسق في التعبير ، مما يؤكد تأثر عمارة بقصيدة زميله إلى حد كبير .

أما البحترى فله قصيدة رائية من بحر الكامل ، يمدح فيها الخليفة المتوكل ، ويصف خروجه لصلاة عيد الفطر ، منها :

بالبر صمت وأنت أفضل صائم وبسنة الله الرضية تظفر
فانعم بيوم الفطر عيداً لانه يوم أغر على الزمان مشهر

ومنها :

أظهرت عز الملك فيه بجحفل لجب يحاط الدين فيه وينصر
خلنا الجبال تسير فيه وقد غدت عدوا يسير بها العديد إلا كبر

وانظر الآن قول عمارة في قصيدة رائية ، من بحر الكامل ، يمدح فيها الخليفة العاضد ، ويصف خروجه لحفلة وفاء النيل ، مطلعها :

الشعر يعلم أن قدرك أكبر مما نقول وأن فضلك أكثر
ومنها :

شرفت أمير المؤمنين مواسم أضحت تورخ باسمكم وتسطر
وأجلها يوم الخليج فإنه من بينها يوم أغر مشهر

يوم خلعت عليه ليل عجاجة شهب الأسنة في دجاها تزهـر
واقاك فيه النيل وهو من الحيا خجل يقدم رجله ويؤخر

ولو قارنا بين القصيدتين لوجدناهما ، فضلا عن اتفاقهما في الوزن ،
والقافية ، والموضوع ، ودرجة المدح ، تنفقان في الروعة ، والجرس ،
والسلاسة ، والتأنق في الصياغة . وكما وصف البحترى يوم الفطر بأنه يوم
أغر مشهر ، واستعرض فيه الخليفة الجيش ، كذلك عمارة وصف يوم
حفلة الخليج بأنه يوم أغر مشهر ، وقد استعرض فيه الخليفة الجيش .

أما أبو تمام فله قصيدة بائية ، من بحر البسيط ، في أكثر من سبعين
بيتاً ، يمدح بها المعتصم العباسي ، ويشير إلى فوزه في فتح عمورية ، وانتقامه
من الروم ، مطلعها :

السيف أصدق أنباء من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب
بيض الصفايح ، لاسود الصحائف في متونهن جلاء الشك والريب
ومنها :

لما رأى الحرب رأى العين توفلس والحرب مشتقة المعنى من الحرب
غدا يصرف بالأموال حربها فغره البحر ذو التيار والحدب
هيات زعزعت الأرض الوقور به عن غزو محتسب لا غزو مكتسب
إن الأسود أسود الغاب همتها يوم السكرية في المسلوب لا السلب

ولعمارة قصيدة بائية ، من بحر البسيط ، في أكثر من سبعين بيتاً ،
يمدح فيها الملك الصالح طلائع بن رزيك ، ويشير إلى انتصاره في الحروب ،
وانتقامه من أعدائه ، مطلعها :

إذا قدرت على العلياء بالغلب فلا تعرج على سعى ولا طلب
واخطب بالسنة الأغمد ما عجزت عن نيله ألسن الأشعار والخطب

ومنها :

لما تمرد بهرام وأسرت به
بغيا وراموا قراع النبع بالغرب
ظنوا الشجاعة تنجيهم فقارعهم
أبو شجاع قريع المجد والحسب
أسرى إليهم ولو أسرى إلى الفلك الآء
لى لحافت قلوب الأنجم الشهب
فى ليلة قدحت زرق النصال بها
نارا تشب بأطراف القنا الأشب

والقصيدتان متفقتان فى الوزن ، والقافية ، والموضوع ، وقرينة الحال ، وكذلك فى تخامة المعانى ، وسبك الأسلوب ، واستعمال المحسنات البديعية ، والروح الشعرى . كما نلاحظ توافقاً فى المعنى بين البيتين الأولين من كل قصيدة ، وكل هذا مما يدل على تأثر عمارة بقصيدة أبى تمام (١) .

ونكتفى بهذا القدر من القصائد المعارضة ، على سبيل المثال ، مع العلم بأن لهذا الشاعر قصائد أخرى يعارض بها قصائد من سبقوه .

٢ — المقدمات فى قصائده :

من الظواهر التى نلاحظها فى شعر عمارة — كما نلاحظها عند كثيرين من الشعراء — أننا نستطيع أن نجد له كثيراً من القصائد تشتمل الواحدة منها على أكثر من موضوع ، كأن نجد قصيدة غرضه الأول منها المدح ، أو الرثاء أو غيرهما ، فلا يجعل القصيدة كلها من أول بيت إلى آخر بيت .

(١) ثم جاء الشاعر أحمد شوقى فى العصر الحديث ، فأتى بما يعبه المعارضة لهاتين القصيدتين . حين قال يمدح مصطفى كمال التركى ، بعد انتصاره الحرى . من قصيدة بائية من بحر البسيط ، مطلعها :

الله أكبر كم فى الفتح من عجب يا خالد الترك جدد خالد العرب
ولنقف هند هذا المطامع فقط ، فنجد له لا يتسأى إلى مطلعى القصيدتين السابقتين .

فى الغرض الذى أنشئت من أجله ، ولكنه يبدؤها بغزل ، أو حكم ، أو وصف ، أو نحو ذلك . ويمهد بتلك المقدمة إلى غرضه المطلوب فينتقل إليه فى سهولة ويسر . وقد تكون تلك المقدمة طويلة تربو على نصف القصيدة ، وقد تكون قصيرة لا تزيد على بضعة أبيات . وربما كان الغرض من ذلك إعداد الأذهان إلى ما سيعرض من موضوع . وهو فى ذلك أشبه بالمغنى الذى لا يفاجئ سامعيه بأغانيه ، وإنما يلعب على معزف مدة من الزمن ، ليشوق النفوس ويعدها لسماع ما سيأتى . ولما كان للشعراء فى جملةهم ولع بهذه المقدمات اهتم نقاد الأدب بهذه الظاهرة ، وأثنوا على الشاعر المحسن ، ولم يغفروا زلة المسمى .

ومن الإنصاف أن نسجل لعمارة حسن تخلصه من المقدمات إلى الأغراض ، والتأنق فى سبك القصيدة حتى لا يكاد القارى يشعر بانتقال من موضوع فيها إلى موضوع . ومثال ذلك قوله يرثى زوجته :

نبتنى حمامة بسحير	عند تغريدها على الأغصان
هتف بى وقد تحدر دمعى	فوق خدى أحمرأ كالجمان
زدت هما بنوحها فوق همى	واعترانى حزن على أحزانى
قلت ماذا الشغريد؟ قالت: دهانى	فى خلبل ريب من الحدنان
قلت: إن كنت قد عدمت خليلًا	فأنا قد عدمت ظبية بان
دعجة المقلتين فى وجنتيهما	وردة فى شقائق النعمان
كلت عفة وديننا ، ونفرا	وبهائم يزهى على كيوان
الح . . .	

فقد استوحى الشاعر حديثاً من ورقاء هتوف بالسحر ، فشكت إليه فراق الخليل ، فشكا إليها لوعته لفراق زوجته ، وأخذ يصفها ويرثيها .

فهذا تخلص رائع يكاد لبراعة سبكه يفسينا خلو القصيدة من مقدمات .
ولو كانت هذه القصيدة من غير عنوان لكان شعورنا بأنها رثاء يأتى
تدريجياً بدون إزعاج ولا إحساس بالانتقال من حالة سارة ناعمة إلى حالة
حزينة ، بحيث نجد أنفسنا بعد قراءة أبيات كثيرة منها نشارك الشاعر
في لوعته ، ونتحدر معه فى أساه .

٣ - الطويل والقصر :

لعمارة بين أيدينا من القطع الشعرية ما يربو على ثلثمائة وستين . بعضها
طويل ، تزيد القصيدة منه على تسعين بيتاً . وبعضها قصير قد تبلغ المقطوعة
منه بيتاً واحداً ، أو بيتين . ومن أمثلة قصائده الطويلة قوله فى رثاء الملك
الصالح طلائع بن رزيك ، وهى قصيدة ذات سبعة وتسعين بيتاً . مطلعها :

طمع المرء فى الحياة غرور وطويل الآمال فيها قصير

ومن الطويلة أيضاً قوله يمدح تاج الخلافة وردا الصالحى من قصيدة
ذات سبعة وتسعين بيتاً . مطلعها :

خاطر فإن الحظ للمخاطر واهجر بها أوطانها وهاجر

ومن أمثلة مقطوعاته الصغيرة قوله :

كم قلت أصبى فكره بغرائبى فسمعت منه غرائباً تصبىنى

وهو بيت واحد كما ورد فى إحدى نسخ ديوانه .

وورد فى تلك النسخة بيت منفرد أيضاً هو :

وقد ألفت الحرب أوزارها إليك وقد وضعت حملها

وله مقطوعات غير قليلة تشمل كل واحدة منها على بيتين فقط . كما أن

له قصائد طويلة كثيرة . وهذا التصرف فى نظام الشعر طويلاً وقصيراً يدلنا
على شاعرية متركزة ، وتمسك من الفن ، ونفس طويل . وكان لكل مقام
مقال ، فيطيل حين تحسن الإطالة ، ويوجز حين يستحب الإيجاز . .

الأسلوب

نريد بالأسلوب هنا العنصر اللفظي الذى يتجلى فى الكلمات والجمل والعبارات ، ثم طريقة اختيار هذه الألفاظ ، والتصرف فى تأليفها ، لبناء الجمل والعبارات التى تعبر عن المعانى المراد إبرازها وإيضاحها . والأسلوب مظهر من مظاهر التفكير والتصوير عند كل شاعر ، ولهذا يتأثر دائماً بشخصيته ، وبالموضوع الذى يعالجه . يقول القاضى على بن عبد العزيز الجرجاني . . . وقد كان القوم يختلفون فى ذلك ، وتباين فيه أحوالهم ، فبرق شعر أحدهم ، ويصلب شعر الآخر ، ويسهل لفظ أحدهم ، ويتعور منطق غيره . وإن ذلك بحسب اختلاف الطبائع ، وتركيب الخلق . فإن سلامة اللفظ تتبع سلامة الطبع ، ودماثة الكلام بقدر دماثة الخلق . وأنت نجد ذلك ظاهراً فى أهل عصرك ، وأبناء زمانك ، وترى الجاني الجلف منهم كز الألفاظ ، معقد الكلام ، وعز الخطاب ، ^(١) . وكذلك الحال فى الموضوع الذى يتناوله الشاعر الواحد ، فأسلوبه الشعري فى الغزل بخلاف أسلوبه فى الحماسة ، وأسلوبه النثرى له خصائص تميزه عن أسلوبه الشعري .

بعد هذا التمهيد اليسير سنحاول أن نفصل الكلام ، فى أسلوب عمارة الشعري ، تاركين الكلام فى أسلوبه النثرى إلى مكانه الخاص من هذا الكتاب .

مظاهر أسلوبه :

١ - وأول ما نلاحظه أن صاحبنا فى أسلوبه الشعري يتخير - بوجه عام - جزل الألفاظ والتراكيب ، مع الدقة فى اختيارها ، والتأنق فى

صياغتها ، والبراعة الباردة في إحكام تأليفها وصفاء ديباجتها ، والبعد عن الكد وراء الكلمات الغريبة ، والتعقيد اللفظي الممقوت . فمن أظهر ميزات أسلوبه الجودة والجمال ، وهما أثر من آثار سلامة النظر ورقى الذوق الفنى ، والنسكن من العربية . ولعل ذلك راجع إلى نشأته الأولى في بيئة عربية خالصة لم تفسد لغتها بالاختلاط ، وإلى قراءاته الأدبية الخاصة ، وإمعانه في أدب السابقين : فقد رأينا يرحل إلى زيد في سن العشرين يطلب العلم ، فتعجب أساتذته من أنه لا يلحن ، وظنوا أنه قرأ كثيراً في النحو ، ونسوا أن بيئته العربية هي التي كونت فيه هذه الفصاحة والسلامة . كما رأينا أن أحد مدروحيه في مصر يقدم له هدية مادية ، فيردها إليه ويقول : « ما أريد إلا أن تشتري لى نسخة من السكامل للبرد . وكانت في عشرة أجزاء طائلة ^(١) . »

ونجده يقول من قصيدة :

ليت شعري بعد موتى من ترى يسكن دارى
وكذا ياليت شعري من لهذى الكتب قارى
فلقد أنفقت فيها عمر ليلي ونهارى

ولا شك أن شغفه بالكتب قد أغراه بمدارستها ، والوقوف على اتجاهات موضوعاتها وفنونها ، فأكسب ذلك أسلوبه جمالا وقوة .

وما أروع وأرق أسلوبه حين قال يتغزل :

ماعن هوى الرشأ العذرى أذار لم يبق لى مذ أقر الدمع إنكار
هذا اختياري فوافق إن رضيت به أولا فدعنى وما أهوى وأختار
لمنى جزافا وسامحنى مصارفة فالناس فى درجات الحب أوطار

والمقطوعة الصغيرة الآتية آية في نخامة الأسلوب ، وإحكام التأليف ،
ورقة العبارة :

ما القلب منى عاذر فألومه هى شيمة الأيام مذ خلقت معى
صقل الزمان صدا الشباب بشيبة قالت لسوداء السحاب تقشعى
ذهب الغنى وقبضت من جبل المنى رثا وليت عراه لم تتقطع
لو كان قلبى يوم كاظمة معى للمكته وكظمت غيظ الأدمع
قلب كفالك من الصباية أنه لبي نداء الطاعنين وما دعى
ومن الظنون الفاسدات توهمى بعد اليقين بقاء جسم قد نعى

٢ — نلاحظ أن الفنون البديعية ، كالجناس ، والطباق ، والازدواج ،
والمقابلة ، ونحوها قد غلبت على شعر صاحبنا . فهو من المشغوفين بالبدیع ككل
أدباء عصره . ولكنه لم يكتف بمجرد النظر فى الألفاظ سعياً وراء زخرفة
الأساليب وتجميلها ، دون النظر إلى ما تجرّه هذه المحسنات البديعية من قلة
العناية بالمعانى ، وإنما كان يتجرى الملاءمة بين الصفات البديعية المختلفة .
ولذلك كان كثيراً ما يأتى بالطباق مع الجناس . فتعلقه بالبدیع ، وتكلفه له
لم يشوه شعره ، ولم يذهب بالكثير من روعته وجلاله ، وإنما تراه قريباً من
ذهن قائله وسامعه ، وهو لهذا يلذنا بمجرد أن يبلغ آذاننا .

انظر إلى قوله فى الحث على الحرب من مطلع قصيدة :

العلم مذ كان محتاج إلى العلم وشفرة السيف تستغنى عن القلم

فهذا المطلع روعة رائعة ، وليس من شك فى أن العنصر اللفظى
قد أسهم بحزم كبير فى تصوير تلك الروعة . وفى البيت جناس بين العلم والعلم ،
وبين العلم والقلم . وفيه طباق بين محتاج وتستغنى ، زيادة عما يبدو فيه من
جمال وسبك .

وانظر إلى قوله يمدح تاج الخلافة وردا الصالحى :

يهوى الحبيبين من بأس ومن كرم على البغيضين من جبن ومن بخل
ولا يحل بثغر حله أبدا سوى النقيضين من أمن ومن وجل

ففى البيت الأول مقابلة بين الحبيبين والبأس والكرم فى شطره الأول
وبين البغيضين والجبن والبخل فى شطره الثانى . وفى البيت الثانى طباق
بين الأمن والوجل .

والمقابلة واضحة فى هذا البيت ، وهو مطلع قصيدة يمدح بها العاضد :

أسماء ملك تحتها لك مقعد أم دست نسك فوقه لك مصعد

ولكن عمارة قد يسرف - أحيانا - فى تكلف البديع ، فىأتى
بالمردول من الأساليب . فالجناس فى البيت الآنى لا يروقنى ، لأن التكلف
الملح ظاهر فيه ، وتوالى حرف السكاف والفاء فى ثلاث كلمات متوالية
عما يثقل على السمع ، ويؤذى النفس :

أجبت المحلة لما دعتك وكيف يكف أكف العدى

وشبيه به قوله فى التعريض بدم الأمويين وعاملهم زياد بن أبيه :

فأتى زياد فى القبيح زيادة تركت يزيد يزيد فى نقصان

ولست أستسيغ الجناس فى هذا البيت :

فلا ستركم عن مرتج قط مرتج ولا بابكم عن مغلق الحظ مغلق

ولو شئنا الإكثار من عرض الأمثلة على شغف صاحبنا بالبديع لطال
بنا المقام . ويكنى أن تقرأ أى قصيدة من قصائده لتشاهد المحسنات
البديعية تنوالى .

وكان البديع ديدن الشعراء والأدباء في عصره ، كما نشاهد ذلك عند زميليه عماد الدين الأصفهاني ، والقاضي الفاضل ؛ فالعماد أسرف في استعمال البديع في شعره ونثره ، حتى في نثره العلمي . أما القاضي الفاضل فهو صاحب الطريقة الفاضلية في الكتابة النثرية ، والتي تلح في العناية بالألفاظ أكثر من المعاني . وربما كان شاعرنا أقل معاصريه غلوا في استعمال البديع .

٣ — كان لشخصية عمارة تأثير قوى في لون أسلوبه ، ولم تكن تلك الشخصية على حال سواء ، بل كانت تغتربها أحوال شتى من بغض ، وإعجاب ، وفرح ، وحزن ، وغضب ، ورضا ، وتفاؤل ، وتشاؤم ، وحياة رضية ، وعيشة قاسية . وكذلك الحال في الموضوعات التي عالجها في شعره فقد أثرت في أسلوبه : فالمدح ، والغزل ، والحماسة ، والعتاب ، والشوق ، وغيرها من فنون الشعر كان لكل منها ألفاظ خاصة بها ، وعبارات تلاءمها . فأسلوبه حين يكون متحمساً مفاخرًا أقوى من أسلوبه حين يكون حزينًا أو متشوقًا . وأسلوبه في الوصف وسط بين هذا وذاك . وسنورد فيما يلي بعض الأمثلة لتوضيح ما تقدم .

نحن نعلم أن شاعرنا أخلص الإخلاص كله للملك الصالح طلائع ابن رزيك ، وأن الصالح قد قتل غيلة في قصر العاضد ، فكان لذلك رد فعل سيء في نفسه ، فقال يرثيه في كثير من اللوعة والأسى :

أفي أهل ذا النادى عليم أسأله ؟ فاني لما بي ذاهب اللب ذاهله
سمعت حديثا أحسد الصم عنده ويذهل واعيهِ ويخرس قائله
ومنها :

دعوني فما هذا بوقت بكائه سيأتيكم طل البكاء ووابله

فكلمات هذا الأسلوب جزلة محكمة النظم ، تدل على الفاجعة والنكبة ،
وعباراته رقيقة حزينة تصور الجزع والفزع ، ويكاد تأليفها وملامته
للمعاني ينطق بما يحز في نفس شاعرنا من الأسى والشجن .

وانظر إلى قوله في الشوق والحنين :

بات يرعى السها بطرف مؤرق وفؤاد من الغرام محرق
ليت أيامه السوالف يرجع سن ويجمعن طيب عيش تفرق
دمن أنبت الجمال ثراها ورعى الشوق غصنها حين أورق
فتح الطل زهرها وتولى نشره راحة النسيم الذي رق

فمنها أسلوب لين رقيق من غير ابتذال ؛ فكلماته موسيقية حلوة ،
وعباراته رشيقة متأنقة ، تثير الإعجاب ، وترتاح إليها النفوس ، واختياره
من بحر الخفيف وقافية القاف زادته لطفا وروعة . .

وانظر إلى قوله يمدح ويصف الحرب :

رميتهم بالصافنات وفوقها ضراغم لا يفرسن غير الضراغم
تظنهم في الروع خرسا وبينهم كلام بأطراف الرماح الهواجم
كان اشتعال الزرق في ليل نفعه كواكب في قطع من الليل فاحم

ومنها :

صدمتهم منها بجرد صلادم فصدمتهم صدع الجياد الصلادم
رميت سواد الجيش بالجيش فانبجست عجاجته عن أذرع وهاجم
وأوقدت نار الحرب ثم اصطليتها بعزم مشى في جمرها المتجاحم

ف نجد هنا أسلوبا صاخبا غنيضا ؛ فكلماته قوية ، وعباراته ضخمة ،
تجولو لنا صورة واضحة عن الجرد العتاق ، يركبها فوارس كالأسود ، يكالحنون

رجالا كالأسود، وقد خرست الأسنة، ونطقت الأسنة، ولعلعت الرماح
في ظلام الغبار كالسكواكب في فحة الليل . وانتهى الأمر بالدماء والأشلاء
والفواجع . كل هذا في لفظ نغم، وتركيب محكم جزل .

٤ — ولعمارة — ككل الشعراء — سقطات أسلوبية وقع فيها، ولم تكن
كلها وليدة الغفلة، ولكنه لجأ إلى بعضها متعمدا . وسواء أكان تكلفه لها،
والحاحه في الجرى وراءها، نظرفاً أو نحوه، فليس من شك في أنها
أفسدت عليه وعليتنا أسلوبه، ووسمته بالإحالة حيناً، وبالزراية حيناً،
وبالركاكة أحيانا آخر .

انظر إلى قوله في القطعة التي مطلعها :

النصر من قرناء عزمك فاعزم والدهر من أسراء حكمك فاحكم
ومنها :

واحرص وسس واشجع ولين وانعم
واصل واعدل ودع واحفظ وارحم

ومن قوله يمدح في قصيدة أخرى :

أما ترى الفلك العلوى قد جعلوا فيه سميك بعد الثور والحمل
فاسلم، ودم، رابق، واسعد، واعد، واسم، وسد
وقد، وجد، واقتدر، واحلم، وطل، وصل

ومن قوله في هجاء ابن دغان :

خلالك الديوان من ناظر	مستيقظ العزم ومن مشرف
تكسب وحصل وادخر واكتنز	واسرق وأبطن وخذ واخطف
وابك وقل ماصح لي درهم	فرد وصلب واجتهد واحلف

فتراه في الآيات المتقدمة قد أحوال وأسرف في الإحالة ؛ فأتى بخليط غريب من أفعال الأمر ، ووصفها ، ووصل ما بينها بواو العطف ، فتكون منها شعر أو شيء ، يشبه الشعر ، ولكنه شعر متكلف ، كز الأسلوب ، ثقل على السمع ، ناب عن الذوق ، تتجلى فيه المشقة ، والتعسف في الصنعة .

وهذا التعسف الذي اتسم به صاحبنا والذي قدمنا أمثلة له فيما مضى من أبيات يرجع كثير منه إلى التقليد ، فقد نظر في كلام السابقين ، وسلك منهمجهم ، وافتنى سييلهم . وأكبر الظن أنه قلدا المتنبي في مدحه سيف الدولة بقوله :
أقل ، أنل ، اقطع ، احمل ، عل ، سل ، أعد

زد ، هش ، بش ، تفضل ، أدن ، سر ، صل

وإن كان يدولى أن تعسف عمارة في أبياته أخف وطأة من تعسف صاحبه ، لأن عدد الأفعال في كل بيت من أبيات عمارة أقل من عددها في بيت المتنبي ، ولأن عمارة عطف كل فعل على ما يجاوره بالواو . وأما المتنبي فرصف الأفعال متجاورة بدون وصل .

وبما يلتحق بهذا التعسف - وإن كان أقل من السابق في الثقل - ما نراه من الأسماء المنصوبة المعطوفة بالواو في هذين البيتين . قال يمدح الناصر ابن الصالح :

فقت الملوك مهابة وجلالا وطرائفا ، وخلائقا ، وخلالا
وسجاجة ، ورجاحة ، وفصاحة وصباحة ، وسماحة ، ونوالا

ومن يدري ؟ ربما وقع هنا تحت تأثير المتنبي أيضا : فقد جاء في قصيدة المتنبي الدينارية التي مدح فيها ابن منصور الحاجب :

إن تلقه لا تلق إلا قسطلا أوججفلا ، أوطاعنا ، أوضاربا
أوهاربا ، أو طالبا ، أوراغا أوراها ، أو هالكا ، أونادبا

وقد أخذ نقاد الأدب هذه المعاظلة على المتنبي ، فكان من الواجب ألا يسقط فيها عماره ، فيقع تحت طائلة المؤاخذة ، كما وقع زميل له من قبل (١) .

وأخذت على عماره ألفاظ زرية ينبوعها السمع ، وتناذى منها النفس . وردت في بعض مقطوعات صغيرة ، تتراوح أبيات الواحدة منها بين ثلاثة ، وعشرة .

منها ما كتبه إلى أحد أصدقائه :

قل لجمال الملك يا ابن الذي ذكر علاه أبدا خالد

ثم أخذ يداعبه ويعتذر إليه عن تأخيرته في زيارته بسبب جارية عنده . « يرغب في خلواتها الزاهد » ، ويصف علاقته بها في أبيات ذات ألفاظ جارحة لا داعي لذكرها (٢) .

ومن ذلك أيضاً ما قاله يهجو بغيا :

يا محبا من النجوم .. وفيها بعض ألفاظ قبيحة (٣)

ومن ذلك قوله في بعض كتاب النصارى :

ألا قل لكتاب الصناعة كلهم وخص أبا النقص المكنى أبا الفضل

(١) وأصل هذا المنهج قول امرئ القيس :

أفاد ، وجاد ، وساد ، وزاد ، وذاد ، وقاد ، وعاد ، وأفضل

ومثله لأبي العميل :

بأمن يؤمل أن تكون خصاله كخصال عبد الله أنصت ، واسمع
أصدق ، وهف ، وبر ، واصبر ، واحتمل ودار ، وكاف ، وابذل ، واشجع

ص ٧٢ من شرح ديوان المتنبي ج ٢ للبرقوق

(٣) ص ٣١ من الديوان

(٢) ص ٢١١ من الديوان

على أم من لا يعتنى بجوانجى والشرطة الثانية قبيحة (١)
ومنه أيضاً قوله :

مصاحبتي إياكم با ابن لاجى وما بعد ذلك قبيح (٢)

والأمثلة من هذا النوع موجودة فى ديوانه ، ولا داعى للأفاضة فيها .
وهذه الألفاظ الزرية كانت - كما قلنا - فى مقطوعات صغيرة تدور بينه وبين
خاصة أصدقائه ، أو حينما يتناول أعداءه بالهجوم . وقد تميزت - كما رأينا -
بظهورها سافرة ، مع قبحها وخذشها للسمع ، والنفس ، والحياء .

ووقع عمارة أيضاً فى بعض الأساليب التافهة ، والعبارات الغثة ،
والتأليف الركيك ، مثل قوله لأحد أصدقائه :

قد اشترى الخادم مملوكة صورتها بالحسن مدهونة
قيمتها ستون موزونة والنصف منها غير موزونة
ومثله أيضاً :

قد اشترى الخادم مملوكة مليحة الصورة معدومة
قيمتها ستون لكننى أعوزنى الثلث من القيمة

ومن الركاكة فى الأسلوب قوله :

أهدى لى فرو له قيمة غالية لكنه عار
يبست فى الليل بلاسترة والقط يحميه من الفار

وركاكة هذه الأساليب لا تحتاج إلى تبيان ، وأحرى بهذا القول
ألا يكون شعراً .

هـ — ونلاحظ أن عمارة في بعض الأحيان يتلاعب بحروف الألفاظ ، كأن يغير حرفاً من لفظ فيتغير معناه . وقد يزيد أو يحذف حرفاً من لفظ فيتغير معناه أيضاً . كما نجد أنه يذكّر حرفاً ويرمز إلى معنى يفهمه من توجه إليه القصيدة . وأحياناً يعتمد تكرار حرف بعينه في كلمات متتالية . والأمثلة على ذلك في شعره غير قليلة :

قال في ابن دخان يهجوّه :

أفصح الناس في ثلاث حروف وهو في غيرها قليل المجال
مولع في الكلام بالزاي والقـ اف معنى بيا بظر العيال
ويقول في العتاب :

هــذا عتاب لزمت ميمه مع لامي فاسمع لما أفعل
ويقول على لسان إنسان في طاعن بن العفير ، من قرابة شاور :
فتى طاؤه في السلم غير مصحف وإن قرئت يوم الوغى فموظاعن
ويقول من قصيدة يهجو ابن دخان :

من كل قدم لا يزال لسانه مغرى بحرف الزاي أو بالقاف
ويشغل على السمع توالى حرف القاف في كل كلمة من الشطرة الأولى
في البيت الآتي :

عقود قواف من قوافيك تلتقي ودر معان من معانيك يسرق
ومن الملاحظ أن صاحبنا لم يسرف في التلاعب بالحروف ، وإنما كان يلجأ إليها نظراً .

ومهما يكن من شيء فأسلوب عمارة — بصرف النظر عن الهنات التي قدمنا بعض ذكرها — يدل على قوة التمكن من العربية ، وإحكام الصناعة ، والبصر بدقائق الفن ، ولطف الذوق ، وحسن الاختيار .

المعاني

تأثرت معاني عمارة بعدة عوامل نجملها فيما يأتي :

١ - الطبع والمزاج الشخصي :

فحائته النفسية في شتى صورها وانفعالاتها كانت تتولد منها معانٍ تلائمها ، ولهذا كانت معانيه معرضاً لظهور نزعاته النفسية : مزاجه ، وتفكيره ، وتكوينه الخلقى ، ونظرته للحياة . وتفسيره للحوادث العامة ، ومدى حكمه على الأشياء ، ومبلغ تأثره بما يحيط به من تيارات وأهواء . كل هذا تنطق به معانيه ، وتفشى ما استتر من خبايا نفسه . ففي حال رضاه عن ممدوحيه ، وتبادل المحبة بينهم كان ينثر الورود أمامهم ، ويقدم لهم أعز مدائحهم . فإذا بدموا ينحرفون عنه تغيرت عواطفه بالنسبة لهم ، وأخذ يميل عنهم . وكانت حياته ناعمة في عهد الفاطميين ، فأقى بأرق المعاني ، وأنغم القصائد . فلما عدت عليه العوادى زمن الصلاحيين ساءت أحواله ، واضطربت أفكاره ، فتجهمت معانيه ، وأظلمت تصوراته وخيالاته .

٢ - البيئة :

وأثرها كبير في معانيه ، فنحن نعلم أنه استنفذ نشاطه كشاعر أديب في البيئة المصرية : بطبيعتها ، وصفات أرضها ، وجوها ، وخصوبتها ، وحضارتها ، ونيلها ، وحياتها السياسية والدينية ، وأحوال أهلها المعيشية والاجتماعية ، واندماجه في أوساطها ، واتصاله بزعمائها وخلفائها . كل هذا طبع شعوره وذوقه الفنى بطابع خاص ، فبسط لنا في شعره كل مظاهر هذه البيئة بخيرها وشرها : فرأيناه يعالج المعانى السياسية بين المذاهب المختلفة ، ويظهر شخصيته تجاه التيارات المتباينة ، ويصف مشاهدات

الحضارة التي رآها ؛ من القصور ، والبساتين ، والنافورات ، وحفلات الخليج ، ومواسم الفاطميين وأعيادهم ، والحروب ، والثورات وغير ذلك .

٣ — الثقافة :

وحينما كان في شبابه تثقف ثقافة دينية . ولما جاء إلى مصر شغله انغماسه في الأحوال الدينية والسياسية عن التعقق في الدراسة العلمية ، واكتفى بالمطالعة في كتب الأدب التي كان يقتنى الكثير منها . وكان جلساؤه من كبار القوم أهل أدب وفضل : فالصالح بين رزيك كاتب بارع وشاعر مبدع . والقاضي الفاضل زعيم كتاب النثر الفني في زمنه . وعلى بن الزبد من كبار الشعراء الفاطميين . كما كانت سوق الأدب رائجة في هذه الأيام . هذا إلى ما امتاز به صاحبنا من صفاء الاستعداد الفطري ، ودقة أدراك الجمال . كل تلك الظروف أثرت في معانيه الشعرية ، فصفا تفكيره ، وحسن ترتيبه للمعاني ، وراق تصويره للأخيلة ، وقلت معانيه المعقدة التي تنجم عادة من تزاخم العلوم العقلية في ذهن الشاعر . ولهذا سهل شعره على الخاصة والعامة ، وكان له في نفوسهم أثر خلاب .

٤ — الموضوع :

فكان لكل موضوع معان خاصة به ؛ فنجد في الرثاء يأتي بمعان شاحبة تنطق بالحزن والأسى ، ويصور نفسه باكية متخاذلة أمام الكوارث ، وشدة الجزع ، ثم يذكر فضائل الميت ، ويعزى أهله ، ويستخلص العبر من انقضاء أجله . ويدور في هذه المعاني كلها حول طبيعة الحياة وسنة الله في خلقه . وفي الغزل يسوق لنا معاني حلوة ، ذات تشبيهات رائعة ، وخيالات موفقة ، تجعلنا نحس عند سماعها بنشوة تملأ أنفسنا حنيناً وبهجة .

وفي الشكوى تتوالى أنانه وحسراته ، حتى ليكاد سامعه يشاركه أساه وشكاته .
وهكذا في بقية الموضوعات .

مظاهر معانيه :

١ - أول ما نلاحظه أنه سلك في بعض معانيه مسلك المتقدمين ، فقد نظر في كلامهم ، ونحا نحوه . فوجدناه يشبه مدحوه بالبحر في العطاء والكرم ، وبالجمال في الرزاة والحلم . وبصور السيوف اللامعة وسط غبار الحرب نجوماً متحركة في ظلام الليل ، بينما تنطق الأسنة وتخرس الألسنة . ويدعى أنه يسهر ومحبوبته تمام ، وأسنانها برد وريقها شهد :

كأن الأطباء العفر يحكين جيدها ومقلتها في حين ترنو وتسبح
كأن اهتزاز الغصن من فوق ردفها قضيب بأعلى رملة يترخ
ودائماً صبح المشيب يبسم في ليل الشباب .

هذه المعاني وأمثالها شائعة في شعر العرب في كل عصورهم . ويظهر أن هذه المعاني السائرة تتوارد عليها الخواطر ، ويستوى في إيرادها الممرة من الأدباء ، إذ هي - كما يقولون - مطروحة في الطريق ، يعرفها العربي والعجمي ، والحضري والبدوي ، ولا فضل لواحد منهم على غيره إلا بلطف الذوق ، وحسن الاختيار ، وصفاء الترتيب .

والحق أن شاعرنا حين تناول تلك المعاني في شعره قد أضاف إليها صوراً جديدة من مبتكراته ، وأفاض عليها من ذوقه الخاص . يقول مادحاً :

وما أدعى مدحا يقوم بشكره على ما لکنى مدحت به شعري

وفي هذا المعنى يقول من قصيدة أخرى :

وما مدحتك لکنى مدحت بك الشعـ - الذي بك يستعلى ويفتخر

هذا المعنى سبقه إليه أبو تمام حين قال :

ولم أمدحك تفخيها بشعري ولكنى مدحت بك المديحا

وقبل أبي تمام قال حسان بن ثابت في مدح رسول الله (صلى الله عليه وسلم) :

ما أن مدحت محمدا بمقاتي لكن مدحت مقاتي بمحمد

ويقول عمارة في تفضيل السيف على القلم :

العلم مذ كان محتاج إلى العلم وشفرة السيف تستغنى عن القلم

هذا المعنى سبقه إليه المتنبي حين قال :

حتى رجعت وأفلاحي قوائلي المجد للسيف ليس المجد للقلم

وقبل المتنبي قال أبو تمام :

السيف أصدق أنباء من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب

فالمعنى واحد عند الثلاثة ، ولكننا نلاحظ الاختلاف في طريقة التعبير ، والتصوير ، ووضوح الدلالة . وسواء حصل هذا تقليداً متعمداً أم جاء توارد الخواطر فإنه لا يقدح في المتأخرين وأن كان الفضل دائماً للسابقين .

يقول أبو هلال العسكري : « ليس لأحد من أصناف القائلين غنى عن تناول المصاني من تقدمهم ، والصب في قوالب من سبقهم ، ولكن عليهم إذا أخذوها أن يكسوها ألفاظاً من عندهم ، ويبرزوها في معارض من تأليفهم ، ويوردوها في غير حليتها الأولى ، ويزيدوا عليها في حسن

تأليفها ، وجودة تركيبها ، وكال حليتها ومعرضها ، فإذا فعلوا ذلك فهم أولى بها ممن سبق إليها ، (١) .

ونظرة فاحصة إلى المعاني السابقة المصورة في تلك الأبيات ، ترينا إلى أى حد كيف تناول عمارة هذه المعاني بالتحوير والتأنيق في التصوير ، حتى استحق أن يكون أولى بهذه المعاني ممن سبقوه ، على حد تعبير أبي هلال العسكري .

٢ - ولم تقف همة عمارة على تجويد المعاني الشائعة ، أو ابتكار معان بسيطة ، ولكنه كان يصطنع الفن العالى ، ويعتمد الأجادة في ابتكار المعاني الرائعة التي تالذ أسماعنا لجمالها ، وتبهر عقولنا لسموها ونفامتها .

يقول في مدح الفائز الفاطمي :

قد ملكته العوالى رق مملكة تغير أنف الثريا عزة الشمم
ليت الكواكب تدنولى فأنظمها عقود مدح فما أرضى لسكم كللى

ومن قوله يمدح ويصور جيش مدوحه :

ولكم نصبت ذبالة في ذابل تهدى المواكب والكواكب أطل
وسترت بيض غمامم بعمائم سود تولى نسجهن القسطل

فليست هذه المعاني قريبة ، مد يده فأخذها ، وإنما هي صور شائقة ، وأفكار موفقة ، تبين لنا كيف تناولها الرجل بشخصيته الفنية ، وخياله الخصب ، وتصويره الدقيق ، حتى صاغها في هذا القالب الممتع .

وكان وثيق الصلة - كما قدمنا - ببني رزيك . فلما قضى بنو شاور عليهم

كان موقفه دقيقاً . ولكنه لجأ إلى فنه البارع ، وقدم لنا قصائد فيها من المعاني الرائعة ما أرضى آل شاور ، ووفى بها لأصدقائه آل رزيك .

قال يمدح شاور ويذكر بني رزيك :

وما الوزراء الغر إلا سوابق مضى أول منها ووافى أخيرها
وأن حقق التشبيه فيكم فإنما طلعت شموسا حين غابت بدورها
سحائب إن لم أرو منها فأنى أرى الغدر عندى أن يذم غدورها

٣ - حينما كانت اللغة العادية لا تسعفه في تصوير خلدات نفسه ، وإبراز انفعالاته ، كان يلجأ إلى التشبيه ، والاستعارة ، وغيرهما من فنون البيان . وأظنه أجاد هذه المسألة ، وقدم لنا منها نماذج طيبة ، تدل على بسطة في الخيال ، وسعة باع في تأليف الصور البيانية . وما أبدع تشبيهه في قوله :

وتوهموا لمع الحديد ولونه روضاً بوارقه تجود وتهطل
فإذا اخضرار الروض درع سائل والغصن ربح والمهند جدول

والاستعارات فيما يأتي فائقة . قال يمدح العاضد ، ويصف حفلة جبر الخليج :

واقاك فيه النيل وهو من الحيا خجل يقدم رجله ويؤخر
لولا تعثره بأذيال الثرا ما كان مذكوراً عليه العنبر
شتان بينكما ، أبحر واحد كيد أناملها الكريمة أبحر ؟

والكناية في هذا البيت طريفة تدل على شدة البخل :

تسمى بأسماء الشهور فكفه جمادى وما ضمت عليه المحرم
والديوان مملوء بأمثال ذلك .

وكان عمارة مولعا بالمحسنات البديعة التي تتصل بالمعاني ، كالطباق ، والمقابلة ، وحسن التعليل ، وما إليها ، وقد تعرضنا لذلك في كلامنا على الأسلوب .

٤ — نلاحظ ظهور بعض الغلو في معانيه حينما كان يمدح الفاطميين ، وهذه المبالغة أثار من آثار تشيعه . وقد رأينا في الباب الثاني كيف ينسب إلى الخلفاء نوعاً لا تكون إلا للأنبياء وأكثر من الأنبياء . وهذا التقديس للممدوحين كان ديدن الشعراء في العصر الفاطمي . وكثيراً ما دفع بهم الإسراف إلى الإلحاد ، ولكن صاحبنا كان من المعتدلين .

قال في مطلع قصيدة يمدح الفاطميين :

الحمد للعيس بعد العزم والهمم حمدا يقوم بما أولت من النعم

وسأترك التعليق على هذا الغلو لأبي شامة في الروضتين ، قال : « وعندي في قوله : الحمد للعيس — وإن كانت القصيدة فائقة — نفرة عظيمة ، فإنه أقام ذلك مقام قولنا : الحمد لله ، ولا ينبغي أن يفعل ذلك مع غير الله عز وجل ، فله الحمد ، وله الشكر . فهذا اللفظ كالمتهين لجملة الربوبية المقدسة . وعلى ذلك اضطراد استعمال السلف والخلف رضى الله عنهم ^(١) » .

ومن هذا الغلو قوله في مدح الخليفة الفائز :

أقسمت بالفائز المعصوم معتقدا فوز النجاة وأجر البر في القسم

ومثله في الملك الصالح بعد موته :

أقسمت بالملك الشهيد طلائع وكفى به قسما من الأقسام

وقوله في الناصر بن الصالح :

دانت لأمرك طاعة الأفدار وتواضعت لك عزة الأفدار
ومنها :

أقسمت بالملك الذى ألفاظه سحر العقول ونفحة الأشجار
والأمثلة فى مثل هذه المعاني غير قليلة ، وقد تعرضنا لبعضها فى
الباب الثانى .

هـ — ولعمارة . ككل الشعراء — هفوات معنوية وقع فيها ؛ فنجد
أحياناً يسقط فى الاستعارة أو التشبيه . وقد يأتى بالمعنى التافهة التى تجرى
على ألسنة العامة فى كل وقت . أو يصرح بالمعنى الزرية التى لا يليق
انتشارها بين الناس .

ففى الشطرة الأولى من هذا البيت استعارة غريبة نادرة :

وحملت أضرار الهوى وإزاره من بعد ما سمحت بحمل نقابها
ومثله البيت الثانى من قوله :

فقال أراك كثير الكلام وعندى من رأى أن تخرج
وإلا نتفت سبال^(١) المدح وأتبعها بسبال الهجا

والمعنى فى هذه المفطوعة الصغيرة عادية جداً أشبه بلغة التخاطب :

قل للأمير تفضل برد تلك القصيدة
فليس يسهل عندى ألا تكون مفيدة
وخاسم لا أراه تكون منه عصيدة
ولا أريد قتاتى ترد وهى جريدة

(١) السبلة . التحريك ، الشارب أو مقدم اللجة . والجمع السبال .

والقصيدة التي مطلعها :

قد كان حي محضا فرداً لست الأغاني
نجد بعض معانيها زرية ، يتأذى منها السمع^(١) .

والسقوط في الاستعارة والمعاني التافهة ظاهر من قوله :

اسمع — فديتك — قصتي متفضلاً وأقل عثاري
هي قصة نتفت سببا ل الشعر بل سلبت شعاري
ومنها :

وكفأك شراً أنى بعت الموطأ والبحارى
لم أدر أنى بعدها والشرطة الثانية سيئة المعنى

والذى تجب ملاحظته أن هذه المعاني الساقطة وردت على العموم في
مقطوعات صغيرة لم يقلها إلا نظرفا ، وفي مناسبات خاصة .

ومهما يكن من شيء ، فعمارة البينى « من الشعراء الفحول المجيدين »^(٢) .
« وله شعر رقيق موفق ... وديوانه مشهور ، وشعره متناقل »^(٣) . ويقول
فيه ابن الأثير : « كان عمارة شاعراً مقلقاً ... وله ديوان شعر مشهور ،
في غاية الحسن ، والرفة ، والملاحاة »^(٤) .

(١) ص ٣٨٣ من الديوان .

(٢) ابن واصل . مفرج الكروب . اللوحة ٤٦ .

(٣) البهاء الجندى . السلوك . المجلد الأول ص ١٥٢ .

(٤) الكامل ، جزء ١١ ص ٢٩٤ .

الموضوعات

الفنون التي طرقها عمارة في شعره هي التي كان يطرقها الشعراء في عصره وقبل عصره ، فلم يزل محافظا في إنشاء القصيدة على الأوضاع الموروثة عن جمهرة شعراء العرب في كل عصورهم ؛ من بنائها على قافية واحدة ، ووزن واحد ، وتدور حول المدح ، أو الرثاء ، أو الهجاء ، أو غير ذلك من الأغراض .

وقد ترك لنا عمارة ديواناً ضخماً نظمه في مصر والمصريين في السنوات الأخيرة من العصر الفاطمي ، وأوائل العصر الأيوبي . ويكاد يكون هذا الديوان سجلا عاما للحوادث الاجتماعية والسياسية ، لمصر وحكامها وأحوالها في هذه الحقبة من الزمان . فلم يكن يترك حدثا ذا بال يجري في البلاد إلا ويشير إليه بقصيدة من قصائده الكبيرة ، أو خطرة من خطراته العديدة .

يقول عمارة عند كلامه على أحوال الملك الناصر بن الملك الصالح طلائع :
« وأما فهمه فكان يعرف جيد الشعر ويستحسنه ، ويثيب عليه ، وما من هذه القضايا قضية إلا وهي مقيدة بأشعار لي »^(١).

ولم يكن عمارة في الفنون الشعرية التي عالجها ينسى نفسه ، بل نراها دائما مصورة في ثنايا الآيات ، واضحة وراء المعاني والعبارات : فأحواله الوجدانية ، وانفعالاته النفسية ؛ من فزع ، وهدوء ، ورغبة ، ورهبة ، وبساطة ، وتعقيد ، ورضا ، وغضب ، كل ذلك ظهر سافرا في كل موضوع شعري خاض فيه . فأخص ما تتميز به موضوعات هذا الشاعر أنها تصور البيئة المصرية

(١) النكت ٥٥ .

بخيرها وشرها أصدق تصوير . وهى فى الوقت نفسه صدى لما يختلج فى نفس صاحبها من عواطف وانفعالات . وسنحاول هنا أن نشرح أهم الموضوعات التى طرقها فى شعره ، ملقن عليها نظرات عابرة للحكم لها أو عليها .

١ - المدح :

ولعل المدح أهم الفنون التى امتاز بها عماره ، فهو من الموفقين فى هذا الباب ، ومن المبدعين فيه إلى حد كبير . ويرجع ذلك إلى البيئة التى أظلمت فى مصر . فقد وجد نفسه محاطا بكبار الفاطميين ، يتسابقون إلى مرضاته ، ويغدقون عليه العطايا ، ويخصصون له الرواتب والأرزاق ، ولا يطلبون منه مقابل هذا إلا مدحهم ، والإشادة بذكركم ، وإذاعة ما بلغته خلافتهم من عز وسلطان . ولم تكن تنقصه السليقة ، ولا يعوزه الطبع ، فقابل صنيعهم بأروع المدائح ، وأرق الأشعار .

وقد أحس هو بمقدار خطره لدى مدحويه ، ومبلغ تأثير شعره فيهم ، فاعتد بنفسه ، وأحاط شعره بنعوت نخمة ، وأهاب بهم أن يتسابقوا إلى مرضاته ، علمهم يحظون بشيء من مدائحه تلك التى يقول فيها :

قصائد لو مدحت النائبات بها لم تجر إلا على قصدى وإشارى
ويقول :

صن معدن الدر عن كيف تقلبها ومعدن الدر والياقوت فهو فى
والعصر يعلم أنى فيه جوهرة رخيصة السعر بالغالى من القيم

ومن الملاحظ أن الجزء الأكبر من ديوانه يدور حول موضوع المدح . وقد تناول فى مدحه عظماء الفاطميين : من الخلفاء والوزراء

والأمراء وأرباب السيوف والأقلام . وحظي منهم بنورزيك بأنغم مدائحهم ، ونعموا بإخلاصه ووفائه .

ولما قامت الدولة الصلاحية مدح رئيسها وأقاربه وزعماء دولته ولكنه لم يكن مخلصاً في مدحه للأيوبيين ، كما كانت حالته مع الفاطميين . ويمكننا أن نبتين هذا الفرق حين نقابل بين قصيدتين في المدح : إحداها فاطمية ، والأخرى أيوبية ، فنجد في الأولى منساقاً مع طبعه ، يقدم لنا صوراً فخمة ، ودعائى رائعة ، ويضفى على ممدوحه مظاهر الوقار والرعاية حتى لتكاد تحس بصلة روحية متبادلة بين الشاعر وممدوحه ، مصورة في ثنايا الألفاظ والمعانى ، أما فى الثانية فنجد الطبع المنكاف ، والمدح المبثور ، والصنعة المضطربة ، والشعور بفقدان الثقة بين الشاعر والممدوح .

والحق أن عمارة كان مضطراً لمداينة الأيوبيين ، لأنهم ليسوا على هواه ، فمدحه إياهم يكاد أن يكون عبثاً بهم أقرب منه إلى تعظيمهم .

انظر إلى قوله يمدح نجم الدين ، ولد السلطان صلاح الدين من قصيدة :

ياخير معتصب بالتاج منتصب ترضى المكارم عن يوميه والامم
هل أنت مصغى إلى دعوى أخبرها إلى علاك فأنت الخضم والحكم
إلى أن يقول :

فامنن ووقع بنصف الألف أقسمها فيهم فمالك بين الناس يقتسم
واغرم فإن الملوك الصيد عادتهم إذأرأوا عاجزا عن مغرم غرموا

ويقول من قصيدة أخرى يمدح شمس الدولة أخا صلاح الدين :

إن الليالى أسامت غير عالمة أن ابن أيوب لى من جورها جار

إلى أن يقول :

فأمنن على بنصف الألف راتبة فقدر ودك لا يحويه مقدار
مقسومة في شهور العام تحمل لى أقساطها كل شهر وهى أدرار
وإن عزمت على تسيير مكرمة فهذه الكلمات الغر أطيّار

فترى أن هذه المدائح المتكلفة في الأيوبيين لاتهم الشاعر بقدر ما يهيمه
الحصول على نصف الألف يحمل إليه مقسطا في كل شهر .

ولو أننا استعرضنا مدائح في الأيوبيين لوجدناه يشفعها دائما بطلب
المال ، بل نجده يلح ويسرف في هذا الطلب ، مستعملا فيه صيغة الأمر ، حتى
نكاد نفهم بأن غرضه الأول من القصيدة هو طلب المال ولا شيء غير المال ،
وما جاء المدح فيها إلا تمهيدا للانتقال إلى ما يريده . بل كان عمارة ينسى نفسه
حين يمدح الصلاحيين فيخرج إلى مدح الفاطميين ، مع ما هو معروف من التناقض
السياسي والديني ، واستحكام العداوة بين الدولتين ، وحق ما قال عمارة . -

كان القوافي حين تدعى لشكرهم على الجهر تمشى أو على الشوك تسحب
أفوه بحق كلما رمت ذمهم وما غير قول الحق لى قط مذهب
وأصدق إلا أن أريد مديحهم فإنى على حكم الضرورة أكذب

نعم إن مدائح عمارة في جملتها كانت متسمة بالتكسب ، ولكنها فيما
يختص بالفاطميين تجمع إلى جانب التكسب الرقيق الهادى ، الإخلاص
لدولتهم ، والرغبة الصادقة في الوفاء لهم ، والوقوف إلى جانبهم في السراء
والضراء . وقبلنا نجد في مدائحهم للفاطميين مطالب مالية صريحة كالتى رأيناها
عند الأيوبيين فيما مضى . بل كثيرا ما نرى القصيدة كلها في الإشادة بذكر
الممدوح ، ووصف أعماله الممتازة ، وصفاته القويمة ، والبعد عن كل ما يشتم
منه رائحة التكسب .

ومن أروع قصائده في المدح تلك التي يمدح بها الملك الصالح طلائع
ابن رزيك ، ويذكر انتصاره في الحروب التي شنّها على الخارجين عليه .
وهي طويلة ، عدد أبياتها ثلاثة وسبعون ، كلها درر وغرر . جاء في مطلعها :
إذا قدرت على العلياء بالغلب فلا تعرج على سعى ولا طلب
ومنها :

فما استوى الخط والخطى في رهج ولا الكتائب يوم الروع كالكتب
دع الهويناء وإن أفضت إلى تعب بك المساعي فإن العز في التعب
ما أسهل الموت عند الناس لو وثقوا بصدق معتقد أو حسن منقلب
والطعن في الكر بعد الفر منفعة والضرب يقتضب الأعمار بالقضب

بعد هذه الحكم الحريّة - إن صح التعبير - انتقل إلى مدح الصالح ،
وتنكيه بالأعداء فقال :

ألقي الكفيل أبو الغارات كلـكـله على الزمان وضاعت حيلة النوب
ودا خلّت أنفـس الأيـام هيـبته حتى استراحت نفوس الشك والريب
ومنها في وصف حال الأعداء :

سقوا بأسكر سكرالا انقضاء له من قهوة الموت لامن قهوة العنب
ثم يقول :

لله عزمة يحيي الدين كم تركت بترية الحى من خد امرئ ترب
مما إليهم سمو البدر تصحبه كواكب من سماء النقع في حجب
في فتية من بني رزيك تحسبهم عن جانبيه رحي دارت على قطب
قوم إذا الحرب قامت سوقها جلبوا من النفوس إليها أنفـس الحلب
المشرعون من المران أرشية نابت قلوب أعاديها عن القلب
والطاعنون الأعادي كل من يده كأنها كأس خمر جاش بالحبيب

ومنها :

كان لمع المواضي في أكفهم صواعق في الوغى تنقض من سحب
فما تروح بها الأرواح في صعد إلا وتغدو بها الأجسام في صلب
وبعد ذلك يمدح الصالح ، ثم يصف خيوله التي يستخدمها في الحرب ،
ومنها :

جرد إذا جردتها كف عزمته
للغزو هزت عذاب الشوط في العذب

ثم تنتهي القصيدة بقوله يخاطب الصالح :
إذا تهنت بك الأيام قاطبة فما الهناء بمقصود على رجب
أشهد في غير تخرج أن هذه القصيدة تقف في صف واحد مع قصيدة
أبي تمام البائية في مدح المعتصم وفتح عمورية .
ومن مدائحه الفخمة قصيدته في فارس المسلمين ، أخى الملك الصالح ،
والتي مطلعها :

نسيب ولكن بالقنا والصوارم ومدح ولكن للعلا والمكارم
ومقتضبات من قواف كأنها جواهر لم تعبث بها كف ناظم

ومنها يذكر انتصاره في الحروب :

نثر بجذ السيف ما نظم القنا هنالك من عقد الطلى والمعاصم
وأدركتهم والأرض واسعة الفضاء وصيرتهم في مثل حلقة خاتم
ورحت سليم العرض من كل وصمة ولكن حد السيف ليس بسالم

ومنها في مدحه :

همام يروع الأسد في كل مازق ويصجبه التأييد في كل مازم
قتى عجمت أيدي الليالي قناته فالفته أيدين صلب المعاجم
تراه غداة الحرب أول طاعن رعيلا ويوم السلم آخر طاعم

وكذلك قصيدته في مدح شاور ، والتي مطلعها :

عسى منجد الأظعان يوماً يغيرها
وقاتل أسباب النوى لا يغيرها
ومانع أجفاني لذيد رقادها يبيع جفوني رقدة أو يغيرها
ولولا العيون النجل ماذقت لوعة يشقف مخي الضلوع زفيرها

وبعد هذه المقدمة الرائعة ينتقل إلى مدحه فيقول :

وأى رحى دارت فلم يك شاور بقطب الوطايا والرزايا مديرها
تروح وبالنصر العزيز رواحها وتغدو وللفتح المبين بكورها
وبعد أن أوصاه خيراً بذرية أصدقائه بنى رزيك لفت نظره إلى بعض
حوادثه فقال :

وقد زعموا أن الملوك مناهل فإن صح ما قالوا فأنتم بحورها
نظرتهم إلى الأيام وهى ذميمة فجتمت بأيام قليل نظيرها
فلا اعتمدت إلا عليكم أمورها ولا ابتسمت إلا إليكم ثغورها

ولا ننسى في هذا المقام قصيدته الميمية الفخمة التي أنشدها في قاعة
الذهب بقصر الخلفاء الفاطميين ، أمام كبار رجال الدولة ، ومطلعها :

الحمد للعيس بعد العزم والهمم حمدا يقوم بما أولت من النعم

وما كان لها من تأثير في نفس من سمعوها ، وكيف انهاالت عليه العطايا
بسببها . وقد تقدمت الإشارة إليها في الباب الأول :

وأيا ما كان فهذه القصائد التي تقدمت ما هي إلا نماذج من مدائح هذا
الشاعر ، وديوانه مملوء بأمثال تلك الروائع .

٢ — الرثاء :

والرثاء للأموات كالمدح للأحياء ، ولذلك وجدنا عمارة ينظم خير
قصائده في الرثاء في خير من مدحهم وهم أحياء . فكما كان الفخاطميون ورجال
دولتهم أحب الناس إليه في عز سلطانهم ، وفي لهم بعد ذهاب ريحهم ، فأتى
فيهم بمراث تثير كوامن الأشجان ، وتنطق باللوعة والأسى . وكما خص
منهم بنى رزيك بخير مدائحه خصهم أيضاً بأرق مرثيه . ولم يكتف في زعيمهم
الصالح بمرثية واحدة ولكن بقصائد متعددة . وكان أحياناً يبكيه في قصائد
أخرى قد لانت إلى موضوع الرثاء بسبب . ومن تلك المرثى في الصالح ،
القصيدة اللامية الرائعة التي مطلعها :

أنى أهل ذا النادى علم أسأله فأنى لمسا بى ذاهب اللب ذاهله

ومنها في الصالح أيضاً قصيدة رائية مطلعها :

طمع المرء في الحياة غرور وطويل الآمال فيها قصير

ومنها :

ولكم قدر الفتى فأتته نوب لم يحط بها التقدير

يا أمير الجيوش هل لك علم إن حر الأسى علينا أمير

حادث ظلت الحوادث بما شاهدته من جوره تستجير

ترجف الأرض حين يذكر عنه وتكاد السماء منه تمور
طبق الأرض من مصاب أبي الغا رات خطب له النجوم تغور

وكذلك رثى الخلفاء الفاطميين : الفائز ، والعاقد ، وجدته ،
ووزراهم ، وكبار رجالهم . وفي عهد الأيوبيين رثى من مات منهم ، كأبي
صلاح الدين ، وأسد الدين شيركوه وغيرهما .

وقد امتحنه الزمن في أولاده ، فمات بعضهم في حياته ، كـ محمد ،
وعبد الله ، وحسين ، وإسماعيل ، فدفن بعضهم في جزيرة العرب والبعض
الآخر في مصر . ومات كذلك بعض زوجاته . كل هذه النكبات المتتالية
أجرت لسانه بكثير من المراثي المثيرة .

قال من قصيدة يرثى ابنه محمداً ، وقد توفي ودفن بمصر ، ويرثى أيضاً
ولده عبد الله ، وأخاه يحيى ، ودفن أحدهما بوادي وساع في اليمن :

بكل أرض ثوى قبر يضم على فراج معضلة طلاع أنجاد
قبر تسجي بأكناف (العداية) لم تؤنسه أجدات آبائي وأجدادي
وفي الحصيب لعبد الله مدرجة بالعرق تسقى بصوب الراح الغادي
وفي القرافة ثار لا تزال له نار على قدر إطفائي وإيقادي
حلوا فرادي بأطراف البلاد وهل

رأيت زهر الدراري غير أفراد؟
غدا محمد محمودا وخلفني أذمهما رثا لي منه حسادي
مررت بالربع والوادي فأوحشني
وقيل لي : مات أنس الربع والوادي

والرثاء الذي برع فيه عمارة حقاً هو رثاء الدول الزائلة . والقصيدة
اللامية التي رثا بها دولة الفواطم بعد انقراضها خير شاهد على ما نقول ،

ويقول ابن سعد فيها (أنه لم يسمع في رثاء دولة بعد زوالها أحسن منها) ،
ويصفها ابن واصل بالحسن المفرط ، ولهذا يذكرها كلها في كتابه « تاريخ
الواصلين » . ومن الحق علينا ، تجاه قصيدة الوفاء هذه ، ووفاء لذكر صاحبها ،
أن نسجلها كلها في كتاب يحمل اسمه ، وهذه هي :

رمى يادهر كف المجد بالشلل	وجيده بعد حسن الحلى بالعطل
سعيت في منهج الرأى العثور فإن	قدرت من عثرات الدهر فاستقل
جدعت مارنق الأقى فانفك لا	ينفك ما بين أمرالشين ^(١) والخبيل
هدمت قاعدة المعروف عن عجل	سقيت مهلا ! أما تمشى على مهل
لطفى ولطف بنى الآمال قاطبة	على فجيعتها في أكرم الدول
قدمت مصر فأولتني خلائفها	من المكارم ما أربى على أملى
قوم عرفت بهم كسب الألوف ومن	

وكنت من وزراء الدست حيث سما	كألها أنها جامت ولم أسل
ونلت من عظماء الجيش تكربة	رأس الحصان بهاديه على الكفل
يا عاذلى فى هوى أبناء فاطمة	وخدمة حرس من عارض الخلل
بالله زرساحة القصرين وابك معى	لك الملامة إن قصرت فى عذلى
وقل لأهلها والله ما التحمت	عليهما لأعلى صفين ^(٢) والجل ^(٣)
ماذا ترى كانت الإفرنج فاعلة	فيكم جروحى ولا قرحى بمندمل
هل كان فى الأمر شيء غير قسمة ما	فى نسل آل أمير المؤمنين على ؟
وقد حصلتم عليها واسم جدكم	ملكتمو بين حكم السبى والنفل ؟
	محمد وأبوكم خير متعل

(١) فى خطط المقرئى « قرع السن »

(٢) موقعة بين أنصار على وأنصار معاوية ، وانتهت بالتحكيم المعروف .

(٣) موقعة بين أنصار على وبين أعدائه وانتهت بانتصار على

حمررت بالقصر والأركان غالية
فقلت عنها بوجهي خوف منتقد
أسبلت من أسف دمعى غداة خلت
أبكى على مآثرات من مكارمكم
(دار الضيافة) كانت أنس وافدكم
(فطرة الصوم) إذ أضحيت مكارمكم
و (كسوة الناس) في الفصلين قد درست

ورث منها جديد عندهم وبلى
يأتى تجميلكم فيه على الجمل
فيهن من وبل جود ليس بالوشل
يهتز ما بين قصرىكم من الأسل
مثل العرائس فى حلّى وفى حلل
طباقي إلا على الأكتاف والعجل
حتى عممتم به الأنصى من الملل
كانت رواتبكم للوافدين وللضيّف المقيم وللطارى من الرسل
ثم (الطاران) (بتنيس) الذى عظمت
وللجوامع من إحسانكم نعم
وربما عادت الدنيا فمعقلها

* * *

والله ! لا فاز يوم الحشر مبغضكم
ولا سقى الماء من حر ومن ظمأ
ولا رأى جنة الله التى خلقت
أتمت وهدأتى والزخيرة لى
قاله ! لم أوفهم فى المدح حقهم
ولا نجا من عذاب النار غير ولى
من كف خير البرايا خاتم الرسل
من خان عهد الإمام العاضد بن على
إذا ارتهنت بما قدمت من عملى
لأن فضلهم كالوابل المطل

ولو تضاعفت الأقوال واستبقت ما كنت فيهم بحمد الله بالخجل
باب النجاة فهم دنيا وآخرة وحبهم فهو أصل الدين والعمل
نور الدجى ومصاييح الهدى وحل الغيث إن وت الأنواء في المحل
أئمة خلقوا نورا فنورهم من نور خالص نور الله لم يغل
والله لا زلت عن حبى لهم أبدا ما أحر الله لى فى مدة الأجل^(١)

وكذلك رثا الدولة الفاطمية بهذه المقطوعة التائية الفخمة :

لى بالديار غداة البين وقفات	أبكى رسوما خلت منهن سادات
هى المنازل لى فيها علامات	من بعد سكانها أهل العلامات
منازل العز تبكىنى بسعيهم	منازل لم تزل عندى عزيزات
لما رأيت عراض الحى خالية	من الأنيس وما بالربع سادات
أيقنت أنهم عن ربهم رحلوا	وخلفونى وفى قلبى حزازات
سألت أبلى قلبى فى السلو وقد	يقال للبله فى الدنيا إصابات
فقال: رأى ضعيف لا يطاوعنى	كيف السلو وأهل الفضل قد ماتوا؟
قد مات قوم وما ماتت مكارمهم	وعاش قوم وهم فى الناس أموات
يارب إن كان لى فى قربهم طمع	عجل بذاك فللتسوية آفات

٣ — الغزل :

المعروف أن عمارة لم يتعلق قلبه بالحب ، فلم يصطف امرأة يتغنى بها
فى شعره شأن الشعراء الغزلين . ولذلك لم نظفر فى شعره كله بقصيدة
خاصة فى هذا الفن . وكل ما له فيه عبارة عن مقدمات طويلة أو قصيرة ،

(١) تاريخ الواسلين ، لابن واصل . مخطوطة مصورة بدار الكتب . اللوحتان ٣٥ ، ٣٦ .
وكذلك صبح الأعشى : ج ٣ ص ٥٢٦ — ٥٢٨ . والنكت المصرية ص ١١٣ — ١١٤ .
كما نقلها المقرئى فى خطه .

يبدأ بها بعض قصائده . ثم يتخلص من هذا الغزل إلى الغرض الذى أنشئت
من أجله القصيدة ، كالمدح وما إليه . وهو فى كل هذا إما أن يصف
المرأة ، وما يتعلق بها ، مأخوذاً بجمالها ، معجباً بصفات الجسمانية أو الروحية ،
وأما أن يتحدث عن نفسه متبهاً قد أضناه الجوى ، ولج به النوى ، وبرح به
الحب ، وأذله تجاذب الوصل والهجران . ومع أن هذا الغزل صناعى فى
جملته فإنه يمتاز بالرفقة ، وجودة السبك ، وروعة الجرس ، والعذوبة .

قال يتغزل فى مقدمة قصيدة المدح :

أبيض مجردة أم عيون نسل وأجفانها الجفون

عجبت لها قضبا باترة

تصول بها المقل الفاترة

فتغدو لأرواحنا واترة

ظباء فتكن بأسد العرين وغائرة خرجت من كمين

إذا ما هززن رماح القدود

حرمن النفوس لذيد الورود

حياض اللمى ورياض الخدود

فلا تطمعنك تلك الغصون فإن كثيب نقاها مصون

وفيهن فاتنة لم تزل

أوامر مقلتها تتمثل

ومن أجل سلطانها فى المقل

تقول لها أعين الناظرين إذا ما رنت : ما الذى تأمرين ؟

متيمة ردفها مخضب

وما اهتز من خصرها مجذب

مقسمة كلها يعجب

فجسم جرى فيه ماء معين وقلب غدا صخرة لا تلين
ومن قوله أيضاً يتغزل :

تيقنوا أن قلبي منهم يجب فاستعذبوا من عذابي فوق ما يجب
وأعرضوا ووجوه الود مقبلة ولمسكف قلب ليس ينقلب
ولو قدرت لأسلاني عقوقهم وكم عقوق سلت أم به وأب
إن لم يكن ذلك الإعراض عن ملل فسوف ترضيهم العتي إذا عتبوا
وإن تكدر صاف من مودتهم فالشمس تشرق أحياناً وتحتجب
ومنه قوله :

هم الأحبة إن جاروا وإن عدلوا والمالكون لقلبي كيفما فعلوا
فليعلموا أن قلبي ما يغيره تغير من سجاياهم ولا ملل
أجلهم أن يزور العيب ساحتهم وأن أقول لهم يا قاطعين صلوا
ومن أبرع غزله قوله :

ظي أعار الليل طرة شعره وأمد ضوء الصبح بالإشراق
وسنان ذاب السحر في آماقه وأذاب ماء الروح في آماقي
كتب الجمال على صحيفة خده عذر المحب وحجة المشتاق
ما كنت أدرى قبل رؤية وجهه أن الحدود مصارع العشاق
والديوان مملوء بأمثال هذا الغزل .

٤ — الوصف :

تناول عمارة في هذا الفن بعض ما استرعى نظره في الديار المصرية ؛
مثل القصور الفاطمية الفخمة ، والآثار القديمة ، وحفلات وفاء النيل ،
ووصف الحروب ، وما إلى ذلك . سجل عمارة كل هذا معتمداً على نظرته

الفنية ، وخياله الخصب ، ومزاجه الخاص . وقد وفق في هذا إلى حد كبير حتى أن الإنسان إذا قرأ قصائده في الوصف تمثل له الموصوف كأنه يراه بعينه ، ويسمعه بأذنيه ، ويشعر بما فيه من كمال أو نقص . وخير قصائده في هذا الباب تلك القصيدة الرائية التي يمدح بها بدر بن رزيك ، ويذكر حريقاً وقع بمنظراته في الخليج ، ويصف في بسط وتفصيل داره الأخرى : بناءها ، وستورها ، ومقاطع العاج والابنوس فيها ، وجملة أوصافها ، ومطلع هذه القصيدة :

ليست صفات علاك مما يمتري فيها ولا مما يصاغ ويفتري
ومنما في وصف الدار :

فتمل دارا شيدتها هممة	يغدو العسير بأمرها متيسرا
فاقت على الإطلاق كل بنية	وسمت فوالستنت سوى أم القرى
أنشأت فيها للعيون بدائعا	دقت فأذهل حسنها من أبصرا
فن الرخام مسيرا ، ومسهما	ومنمنما ، ومدرهما ، ومدنرا
والعاج بين الابنوس كأنه	أرض من الكافور تبت عنبرا
ألبستها بيض الستور وحرها	فأت كزهر الورد أبيض أحرا
وسقيت من ذوب النضار سقوفها	حتى يكاد نضارها أن يقطرا
لم يبق نوع صامت أو ناطق	إلا غدا فيها الجميع مصورا
فيها حدائق لم تجدها ديمة	كلا ولا نبتت على وجه الثرى
لم يبد فيها الروض إلا مزهرا	والنخل والرومان إلا مشرا
والطير مذوقعت على أغصانها	وثمارها لم تستطع أن تنقرا
وبها من الحيوان كل مشبه	لبس الحرير العبقري مصورا
لا تعدم الأبصار بين مروجها	ليثا ولا ظيما بوجرة أعفرا
أنست نوافر وحشها اسباعها	فظباؤها لا تتقى أسد الشرى

وكان صولتك الخيفة أمنت أسرابها ألا تخاف فتذعرا
وبها زرافات كأن رقابها في الطول ألوية تؤم العسكرا
نوية المنشأ تريك من المها روقا ومن بزل المهارى مشفرا
جبلت على الإقعاء من أعجازها فتخالها في التيه تمشى القهقرى

فعمارة في هذا الوصف مهندس ماهر ، ومصور بارع ، نقل إلينا في أمانة لغوية مفصحة تصميم دار من ديار العصر الفاطمى ؛ مبانيها وسقوفها ، وجدرانها ، ورخامها ، وستورها ، وألوانها الزاهية ، ونقوشها المختلفة ، وما صور فيها من الحيوانات المفترسة والأليفة ، والرياض المزهرة ، والأشجار المثمرة . ولو أن رساماً قدم لنا هذا التصميم مصوراً على لوحة فنية لما زاد عن وصف هذا الشاعر شيئاً . وقد أبدع عمارة حين أضفى من خياله على ما قدم لنا من صور ، حتى جاءت قصيدته تحفة فنية رائعة .

ومن قوله أيضاً يصف الهرمين :

خليلى ماتحت السماء بنية تماثل فى إتقانها هرمى مصر
بناء يخاف الدهر منه وكل ما على ظاهر الدنيا يخاف من الدهر
تنزه طرفى فى بديع بنائها ولم يتنزه فى المراد بها فكرى

وهذا الوصف الرائع للهرمين يذكرنا بقصيدة البارودى في وصفهما ، وقد اتفقت القصيدتان وزناً ، وقافية ، وموضوعاً ، وجودة . قال البارودى :

سل الجيزة الفيحاء عن هرمى مصر

لعلك تدرى بعض ما لم تكن تدرى
بناء ان ردا صولة الدهر عنهما ومن عجب أن يغلبا صولة الدهر

ونلاحظ أن البارودى أخذ معنى بيته الثانى من بيت عمارة الثانى ،
وتصرف فيه قليلا . ولو شئنا المقارنة بين البيتين لرجحت كفة شاعرنا ،
لأنه أقر أن الدهر بما عليه من مخلوقات لم يفكر فى التعدى على الهرمين ،
لأنه يخشى بأسهما ، أما البارودى ففرض أن الدهر صال عليهما فرداه
بعد أن غلباه . ناهيك بفن عمارة فى بيته ، واستخلاص معناه بأربع
أسلوب .

ولعمارة فى وصف فوارة :

كظمت مجاريها فأظهر غيظها ما فى حشاها من خفاء مطمر
وكان فور الماء من نبعائها والعين تنظر منه أحسن منظر
قضب من البللور أثمر فرعها لما انتهت باللؤلؤ المتحدر

وله فى وصف دار ركن الإسلام قصيدة رائية مطلعها :

يادار دار عليك سعد المشتري وجرى عليك زلال نهر الكوثر

وله غير ذلك أوصاف متعددة .

هـ — الحكم :

امتاز شعر عمارة بحكم بين ثناياه ، وأحيانا يستفتح بها قصائده ، أو
يؤيد بها دعواه . وقد استمد هذه الحكم من الجو الذى كان يسود إنشاد
قصائده ، ومن الانفعالات التى كانت تجيش فى نفسه ، والصور التى تمر
أمام ناظره .

فتراه فى القصائد التى تدور معانيها حول الحرب والحماسة ينشئ حكما
يمجد فيها البطولة ، ويدعو إلى الغلبة والقهر ، ويختار لها المعانى الفخمة ،
والعبارات التى تملأ الفم . وحرى بنا أن نسمى تلك الحكم : أدب القوة .

يقول عمارة :

لا يدرك المجد إلا كل مقتحم في موج ملتطم أوفوج مضطرم
لا ينقض الخطوة الأولى بثانية ولا يفكر في العقبى من الندم
كأنما السيف أفتاه وقال له : في فتح مكة حل القتل في الحرم

ويقول من قصيدة أخرى :

خاطر فإن الحظ للمخاطر واهجر بها أوطانها وهاجر
وارم بأيدي العيس كل قفرة تفضل فيها لحظات القافر

ويقول :

واخطب بالأسنة الأغمد ما عجزت

عن نيله ألسن الأشعار والخطب

هذه هي الحياة في نظر صاحبنا : لا كلمة فيها لغير القوة والمخاطرة ،
والدنيا دائما لمن غلب .

وفي الشكوى تتوالى حكمه فترينا تقلبات الزمن ، وظلم الأيام ،
وتصور لنا مبلغ سخطه أو رضاه ، وخلاصة تجاربه مع الأعداء والأصدقاء
على السواء .

قالوا : كان بين عمارة والكامل بن شاور مودة وملازمة ، فلما وزر
شاور تنسكرك ابنه الكامل لعمارة ، وانقطع عنه ، فأتخذ صاحبنا من تلك
القطيعة ذريعة لنظم حكمه . فقال من قصيدة موجهة إلى الكامل :

إذا لم يسالمك الزمان فخارب وباعد إذا لم تنتفع بالاقارب
ولا تحتقر كيذا ضعيفا فرما تموت الأفاعى من سموم العقارب

ومنها :

إذا كان رأس المال عمرك فاحترز عليه من الإنفاق في غير واجب
فبين اختلاف الليل والصبح معرك
يكر علينا جيشه بالعجائب

فهو هنا حائق على الكامل ، ساخط على قلة وفاته ، ولكن هذه طبائع
ركبت في الناس ، ولن تجد لها تبديلا :

فلا تلزم الناس غير طباعهم فتنعب من طول العتاب ويتعبوا
فإنك إن كشفتهم ربما انجلى رمادهم عن جمرة تلهب
فتاركهم ما تاركوك فإنهم إلى الشر مذ كانوا إلى الخير أقرب
ولا تغتر منهم بحسن بشاشة فأكثر إيماض البوارق خلّب

ومع هذا فلا يزال في نفسه شيء من الأمل ، فيمنها بصلاح الحال بعد
الفساد ، ويوجه قصيدة أخرى إلى الكامل منها :

لا تقطعن على الآمال بالياس مازلت تتبع أنفاسا بأنفاس
وربما ردت الأيام جفوتها بشرا وبدان إيحاشا بآيناس
وإن نبت بك دار فالتمس بدلا منها ولو بين أنياب وأضراس
فالأرض كالناس مازالت أماكنها مقسومة بين إثراء وإفلاس

وفي الرثاء يذكر حكما تتعلق بفلسفة الحياة والموت ، والخضوع لأحكام
المقادير . وكذلك الحال في انفعالاته الأخرى . وهكذا نجد حكم عمارة
درراً تنتظم مسائل الإنسان ، وطبيعة الأشياء ، وقد جاءت وليدة
التجارب ، وثمره العراك بين نفسه الحساسة وبين الحياة المتقلبة ، يقول :

واصغ إلى ماقلته من تجارب ولا تطرح نصحي فإني مجرب

فما تنسرك الأيام معرفتى بها ولا أنتى أدرى بهن وأدأب
وصاحبت هذا الدهر حتى لقد غدت
عجائبه من خبرتى تتعجب
ودوخت أقطار البلاد كأنى
إلى الريح أعزى أو إلى الخضر أنسب

ولهذا بقيت حكم هذا الشاعر ، وستبقى ، خالدة مادام الإنسان .

الشكوى :

كانت حياته - كما صورناها فى الباب الأول - رضىة ناعمة فى عصر
الفواطم ، فلما استولى الصلاحيون على زمام السلطة أصابه عنت وإرهاق ،
وذاق بعد العزمرارة الحرمان . فجأ بالشكوى ، وأطال فى تصوير ما يعانى
من أشياء . وقبلما نجد قصيدة له فى عهد الأيوبيين تخلو من إظهار الأسى ،
وغصص الآلام . وقد مزج الشكوى بالحكم ، وكان من مزاجهما شعر
حزين يذكرى لهيب الأسى ويشير الشجون . ومن أروع قصائده فى ذلك
قوله يعرض بدم الناس :

أياها الناس والخطاب إلى من	هو من حيث فضله إنسان
هذه خطبة إلى غير شخص	نظمت عقد نثرها الأوزان
لم أخصص بها فلانا لأنى	فى زمان مافى بنيه فلان
من تكن عنده مزية فهم	فليكن سامعا فعندى لسان
لم يميز بين البرية إلا	حسنات يزينها الإحسان
والخطايا مستورة بالعطايا	كم جميل به المساوى تصان
لاتغرنكم زيادة مال	فالزيادات بعدها النقصان
وإذا الدوح لم يظل من الشم	س فلا أورقت له أغصان

وأحق الأنام بالذم جيل بين أبنائه كريم يهان
 طرق الجود غير مانحن فيه قد سمعنا الدعوى فأين البيان ؟
 أصبح الجود قهقهة عند قوم مستحيلًا في حقها الإمكان
 وعدمنا نشرًا يدل عليه إنما النار حيث ثم الدخان
 كذبوني بواحد يهب الآلهة ف وأنى من الناس العيان
 كم شعبتم ونحن في الحى غرثى هل أمنت أن يبعث الغرثان ؟
 وصدرتم ريا ونحن عطاش فلماذا لا يرشح العطشان ؟
 ثم يثور على الناس ويقول :

لابشاشاتنا رضا فأفيقوا رب راض وقلبه غضبان
 ذمنا للزمان ذم لمن فيه له وحق ألا يذم الزمان

ويحوى ديوان عمارة قصيدة أخذت شهرة تفوق الوصف في العالم العربى
 الإسلامى ، على ما ذهب إليه ديرفبورخ فى مقدمة الديوان ، وهى القصيدة
 العينية التى وجهها إلى صلاح الدين ، ولكنه لم ينشدها أمامه ، واسمها
 « شكاية المتظلم ، ونكاية المتألم » ،

فهى بالفاظها ، ومعانيها ، وقافيتها ، وجرسها ، تعد من الطراز الأول
 فى القصائد العربية ، التى قيلت فى موضوع الشكوى . ولأهمية هذه القصيدة
 نورد هنا بأكملها :

شكاية المتظلم ، ونكاية المتألم

أيا أذن الأيام إن قلت فاسمعى لنفثة مصدور وأنه موجه
 وعى كل صوت تسمعين ندائه فلا خير فى أذن تنادى فلا تعى
 تقاصر بي خطب الزمان وباعه فقصر عن ذرى وقصر أذرى

وأخرجني من موضع كنت أهله وأنزلى بالجور في غير موضعي
بسيف ابن مهدي^(١) وأبناء فاتك^(٢)

أقض من الأوطان جنبي ومضجعي
فيمت مصرا أطلب الجاه والغنى
وزرت ملوك النيل إذ زاد نيلهم
فأحمد مرتادي وأخصب مرتعي
وفزت بألف من عطية فائز
مواهبه للصنع لا للتصنع
وكم طرقتني من يد عاضدية
سرت بين يقظي من عيون وهجع
وجاء ابن رزيك من الجاه والغنى
بما زاد عن مرمي رجائي ومطعمي
وأوحى إلى سمعي ودائع شعره
لخبرته مني بأكرم مودع
وليس أبادى شاور بذميمة
هشيا رعته النائبات وما رعى
ملوك رعوا لى حرمة صار نبتها
وردت بهم شمس العطايا لوفدهم
مذاهبيهم في الجود مذهب سنة
وإن خالفوني في اعتقاد التشيع^(٣)

* * *

فقل لصلاح الدين والعدل شأنه
من الحكم المصغى إلى فأدعي؟
سكت فقالت ناطقات ضرورتى
إذا حلقات الباب علقن فافرع
فأدلت إدلال المحب وقلت: ما
أبالي بعفو الطبع لا بالتطبيع
وعندى من الآداب مالو شرحته
تيقنت أنى قدوة ابن المقفع
أقمت لكم ضيفا ثلاثة أشهر
أقول لصدرى كلها ضاق: وسع
أعلل غلمانى وخيلى ونسوتى
بما صغت من عذر ضعيف مرقع
ونوابكم للوفد فى كل بلدة
تفرق شمل النائل المتوزع

(١) هو على بن مهدي الخارجي ، وقد أخضع اليم لسلطانه .

(٢) أبناء فاتك آل نجاح ، وهم أحباش أنشوا باليمن دولة .

(٣) تفتت كثيرون بهذا البيت ، واعتبروه دليلا على أن عمارة سنى المذهب ، وقد

رددت عليهم بما بنى دعواهم فى الباب الثانى من هذا الكتاب .

وكم من ضيوف الباب بمن لسانه
 مشارع من نعمائكم زرتها وقد
 وضايقتني أهل الديون فلم يكن
 فيا راعى الإسلام ، كيف تركتها
 دعوناك من قرب وبعد فهب لنا
 إلى الله أشكو من ليالي ضرورة
 قنعنا ولم نسألك صبرا وعفة
 ولما أغص الريق مجرى حلوقنا
 فإن كنت ترعى الناس للفقه وحده
 ألم ترعى للشافعي وأنتم
 ونصرى له في حيث لا أنت ناصر
 ليالي لا فقه العراق بسجسج
 كاني بها من آل فرعون مؤمن
 أمن حسنات الدهر أم سيئاته
 ملكك عنان النصر ثم خذلتني
 فما لك لم توسع عليّ وتلتفت
 فأما لآني لست دون معاشر
 وأما لما أوضخته من زعازع
 وردى ألوف المال لم ألتفت لها
 وأما لفرن واحد من معارف
 فإن سميتني نظما ظفرت بمفلق
 طباع وفي المطبوع من خطراته
 سألتك في دين لياليك سقنه

إذا قطعوه لا يقوم بأصبع
 تكرر بالإسكندرية مشرعى
 سوى بابكم منه ملاذى ومفرعى
 فريقي ضياع من عرايا وجوع ؟
 جوابك فالبازي يجيب إذا دعى
 رجعنا بها نحو الجنب المرجع
 إلى أن عدنا بلغة المتقنع
 أتيناك نشكو غصة المتوجع
 فنه طرازي بل لثامى وبرقى
 أجل شفيع عند أعلى مشفع ؟
 بضرب صقيلات ولا طعن شرع
 بمصر ولا ربح الشام بززع
 أصارع عن ديني وإن حان مصرعى
 رضاك عن الدنيا بما فعلت معي ؟
 وحالى بمرأى من علاك ومسمع
 إلى التفات المنعم المتبرع
 فتحت لهم باب العطاء الموسع
 عصفت على ديني ولم أترزع
 بعينى ولم أحفل ولم أنطلع
 هو النظم إلا أنه نظم مبدع
 وإن سميتني نثرا ظفرت بمصقع
 غنى عن أفانين الكلام المصنع
 والزمينيه كارها غير طبع

وهاجرت أرجومك إطلاق راتب
وليتك فيمن أطلق الشرق مطلعى
وما أنا إلا قائم السيف لم يعن
وباقوته فى سلك عقد مدارة
وكم مات نضناض اللسان من الظما
تقرر من أزمان كسرى (١) ونبع
لتعلم نبعى أن عجمت وخروعى
بكف ودر لم يجد من مرصع
على خرزات من عقيق مجزع
وكم شرقت بالماء أشداق السكع

...

فيا واصل الأرزاق كيف تركتني
أعندك أنى كلما عطس أمرؤ
ظلامه مصدوع الفؤاد فهل له
وأقسم لو قالت لياليك للدجى :
غدا الأمر فى إيصال رزقى وقطعه
كذلك أقدار الرجال وإن غدت
فيا زارع الإحسان فى كل تربة
فعندى إذا ما العرف ضاع غريبه
وقد صدرت فى طى ذا النظم رقعة
أريد بها إطلاق دينى ورأبى
وبينى وبين الجاه والعز والغنى
وما هى إلا مدة نستمددها
أمد إلى كف المنى كف أقطع ؟
بذى شمم أقتى عطست بأجدع ؟
سيل إلى جبر الفؤاد المصدع ؟
أعد غارب الجوزاء قال لها : اطلعى
بحكمك فابذل كيفما شئت وامنع
بحكمك فاحفظ كيف شئت وضع
ظفرت بأرض تنبت الشكر فازرع
ثناء كهرف المسكة المتضوم
غدا طمعى فيها إلى خير مطمع
فأطلقهما والأمر منك ووقع
وقائع أخشاهما إذا لم توقع
وقد فجت الأرزاق من كل منبع

...

إلى ها هنا أنهى حديثى وأتهى
فأنك أهل الجود والبر والتقى
وما شئت فى حقى من الخير فاصنع
ووضع الأيادى البيض فى كل موضع

(١) كسرى لقب للملك فارس قبل الإسلام ، وتيم من ملوك اليمن قديما .

وفي أيام عمارة الآخرة ضاقت الدنيا في وجهه ، حيث تفرق إخوانه ،
ورقت حاله ، فصار ينادى ولا يجيب ، ويمدح ولا مثيب ، فتذهب نفسه
حسرات ، ويقول في هوان وغم :

أنادى من الإخوان غير مجيب	وأمدح بالأشعار غير مثيب
وأقطع أياماً تقول همومها	لأنفاس نفسى كيف شئت فذوبى
ومستخبر ما حال حالك حالكا؟	فقلت : سقام لم يعن بطبيب
ولاخير في أسجاع من جاع بطنه	ولو أعربت يوماً بلحن عريب

٧ — الهجاء :

يقول عمارة في النكت حين زاره أبود في زيد سنة ٥٣٩ ، وأنشده
بعض شعره ، فاستحسنه وقال له :

« تعلم والله إن الأدب نعمة من نعم الله عليك ، فلا تكفرها بدم الناس ،
واستحلفنى ألا أهجو مسلماً قط بيت شعر . فخلفت له على ذلك . ولطف
الله بى فلم أهج أحداً والله المحمود ، ماعداً إنساناً هجائى بحضرة الملك الصالح
ببنتى شعر ، فأقسم الصالح على أن أجيب . ففعلت متأولاً قول الله عز
وجل : « ولئن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل » ، وقوله تعالى :
« فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم » . ولم يكن شئ
غير هذا ،^(١) :

ومن المشاهد أن هجاءه عبارة عن مقطوعات صغيرة لا تزيد الواحدة
منها عن عشرة أبيات . ويتميز بعضها بالألفاظ القبيحة ، والمعانى الزرية ،
والخوض فى الأعراض ، وحكاية المخازى والعورات . وكان الباعث

على الهجاء البغض والسخرية والحزازات الشخصية بين الشاعر وأعدائه .
ومن الذين هجأهم :

ابن دخان ، والجعل ، وأبو الفضل ، وعدى الملك

أما ابن دخان :

فكان كاتباً نصرانياً ، وكان صاحب الديوان في وزارة شاور .
وكثيراً ما كان يعاكس عمارة في الجارى على رزقه ، ويدس عند شاور
ما يضيق به صدره نحو صاحبناً ، حتى قال ابن دخان لشاور يوماً : « إمام
صننتى من فلان (بمنى عمارة) وإلا استعفيت . فقال : « يا هذا ، استع على
نفسك من مناكدة رجل يأكل معى فى إناء واحد كل يوم مرتين »^(١) .
لهذا حمل عمارة على ابن دخان ، وجعله حجير الزاوية فى هجائه . قال من
قصيدة يهجوّه :

إن كان يحسب أن خسة أصله	تحميه من حتى ومر زعافى
فالأسد تفترس الكلاب إذا عدت	أطوارها والأسد غير ضعاف
دعنى أثقل بالهجاء لجامه	إن البغال كثيرة الأخلاف
لا تأمن أبا الرذائل بعدها	واحذر أمانة سارق خطاف

ويقول فى أخرى :

لم يبق لابن دخان عند خالقه	أمنية يتمناها ويأملها
لأن حوصلة الملعون لو فتحت	لأعبت الناس فى مصر حواصلها
وبعد ذلك بيت قبيح ثم
فاشرب عليها وكل يا ابن الخبيث فما	يخطيك عاجل أقوالى وآجلها

ويظهر أن ابن دحان كان دائماً على مناكدة شاعرنا ، وكلما حاول
عمارة مسالمته لف ودار ورجع إلى دسائسه . فقال عمارة :

كلما رمت سلمه رام حربى ما لهذا الوضع قولوا ومالى ؟
أجرب العرض يشفى بهجائى وعو عرض بالذم ليس يبالى
ولو شئنا الإفاضة لطال الكلام .

أما الجعل : فمكاتب نصرانى أيضاً . وقد هجاه عمارة بأربعة أبيات
قيحية (٢) .

أما أبو الفضل فمكاتب نصرانى كذلك . ولكنه لم يتعرض لعمارة
كثيراً ، ولذلك لم يهجه شاعرنا إلا قليلاً . قال فيه وقد خدم فى دار الكباش
بأمر ابن دحان :

رأيت أبا النقص ضاقت به مذاهبه فى التماس المعاش
ومن حبسه فى ذوات القرون غدا وهو نائب دار الكباش

ومن قول عمارة يهجو عدى الملك :

لحى الله مدحا لا يرجى ثوابه لديكم وهجوا لا يخاف ويتقى
عذرت عدى الملك إذ ليس عنده من العرض شيء يتقى أن يمزقا
فما لك لا تخشى بها عرضك الذى يفوت الثريا والسمك المحلما

٨ — الفخير :

كان عمارة مزهوا بنفسه ، نخورا بقومه وعشيرته . وقد تعرض لذلك
خلال بعض قصائده خصوصاً فى قصائد المدح ، وأن كان غره بأدبه وشعره

زاد على نخره بأهله ونسبه - وهو حين يزهر بشعره يوجه نظر ممدوحه -
أحيانا - إلى العناية بأمره ، والعمل على مرضاته ، فهو إلى الاستجداء أقرب
منه إلى الفخر الخالص . كما نلاحظ شيئا من الغرور يذكرنا بغرور المتنبي .
يقول عمارة في بيت واحد من شعره :

بيت ترى كل سمع حين أنشده يقضى فريضة حج في زيارته
ومن نخره بنفسه وأدبه :

أنا العربي المحض شعرا ومعشرا إذا شان قوما شعرها أو عشيرها
فلا تسمعوا شعرا سوى ما أقوله فما يستوى حول العيون وعورها
وفي بعض الأحيان كان يغمز غيره من الشعراء ، ويفاضل بينه وبينهم
فيقول :

تجنبت مطروق الكلام وهذه خلاصة ما أنشأته وأبدأته
ولم أر مثل الشعر يرجز بغائه مطارا بجوقد حمته بزاته
توهم قوم أنه الوزن وحده وقد غاب عنهم سره وسراته
كذلك لون الماء في العين واحد وما يتساوى ملحه وفراته

ومن نخره البارع بأدبه وشعره :

سلنى به فلسان الكون يحفظ ما أقول وهى توارىخ وأخبار
قيدتها وهى فى الآفاق مطلقة سيارة وحديث الجو سيار
أقول والقول مأثور وأشرفه ماعبرت خطب عنه وأشعار

ومن أروع ما قاله فى الفخر بنفسه وعشيرته :

من سفه الدنيا ومن أوهمها جرأة مغلوب على أغلب
كأنما جنبأى لم يجنبأ منى على قلب فنى قلب
ولا كففت الغرب عن مقول أمضى إذا شئت من المقضب

ويقول :

لأنفصن الهون عن خاطرى نفص سقيط الطل عن منكبي
مستحقبا رحلى على عزمة تنقص مثل الأجدل الأحقب
أسرى من الليل على أدم ومن قرى الصبح على أشهب
أفرى شباب الليل عن مفرق صباحه كالشعر الأشيب

ثم يفخر بقومه فيقول :

قوى الألى ترجح ميزانهم أن ناضلوا أو فاضلوا الناس
أى مقام قت فيه لهم بحجة المجد فلم أغلب؟
أو ذكر الإسلام لم يفتخر غيرهم فى بنصر النبي
أو ذكر الجود فمن طي أو عدى نجعة المجدب

٩ - السياسة :

وهو ضرب من شعر المديح والهجاء ، ولكن يغلب عليه تأييد الأحزاب الدينية والسياسية . وقد تناول فيه عمارة مشكلات الدين والسياسة ، وكان منحاذا - كما قلنا - نحو الشيعة ، فذب عنهم بلسانه فى حياتهم ، وبعد مماتهم . وقد فصلنا هذا الموضوع فى الباب الثانى من هذا الكتاب .

١٠ - وهناك موضوعات - غير ما ذكرنا - تعرض لها عمارة ، ويمكن عدها ضربا من الموضوعات التى تقدمت ، ومنها :

العتاب : يقول شاعرنا :

أحبابنا كم تبخلون وكم نسخو ببذل وداد لا يغيره نسخ
وهل منكرفعل القطيعة منكم وما داركم إلا القطيعة والكوخ
رميتم نشاطى فى الوداد بفترة شددت بها حبل الوداد فلا ترخو

وناقضم في الحب فعلى بضده فنى له عقد ومنكم له فسخ
خشتم ولانت في هواكم معاطف وما يستوى يوما قتاد ولا مرخ

الشبيب والشباب : تعرض عمارة لهما في مناسبات عديدة ومن قوله

في ذلك :

أعندك أن وجدى واكتسابى تراجع منذ رجعت إلى اجتنبى
وأن الأربعين إذا تولت بريعان الصبا قبح التصانى
ولو لم ينهى شيب نهانى صباح الشيب فى ليل الشباب
وأيام لها فى كل وقت جنايات تجل عن العتاب
أقضيها وتحسب من حياتى وقد أنفقتهم بلا حساب

وله أيضا فى التهنته ، والتعزية ، والشفاعة وغير ذلك .

الفصل الثاني

عمارة الكاتب

الظاهرة التي نلاحظها في أواخر العصر الفاطمي ، وأوائل العصر الأيوبي أن الأدباء لم يكونوا شعراء فقط ، أو كتاباً فقط ، ولكنهم أخذوا حظاً من الشعر وحظاً من النثر ، وصار الواحد منهم موسوماً بالشعر من جهة ، وبالنثر من جهة أخرى ؛ فعماد الدين الأصفهاني شاعر مبدع ، له ديوان نفيم ، نظم أكثره في الإشادة بذكر الأيوبيين ، وهو في الوقت نفسه كاتب أديب مؤرخ . والقاضي الفاضل وزير صلاح الدين ، كاتب ذائع الصيت بطريقته الخاصة في النثر الفني التي ترسمها الأدباء ردحا من الزمن والرسائل الفاضلية لها قيمتها وشهرتها في العصر الأيوبي وما بعده ، وقد نقل الشيرازي كثيراً منها في كتاب جمهرة الإسلام^(١). وللقاضي الفاضل ديوان من الشعر المونق لا يقل روعة عن نثره . وكذلك الحال في معظم أدباء هذا العصر . وإذن فليس من الغريب أن نجد عمارة البني يسير مع القافلة ، ويجمع إلى قرص الشعر كتابة النثر . وتدل اشواهد على أنه ترك ثروة فنية ليست قليلة عن طريق الرسائل الأدبية . ولكن ما بين أيدينا الآن تسع رسائل فقط ، وهي مع هذا تكفي بعد الاطلاع عليها لتكوين فكرة عن منحنى الرجل في كتابته ، وأسلوبه في صوغ المعاني النثرية ، والحكم على فنه كمكاتب أديب .

(١) في دار الكتب المصرية بالقاهرة مجموعة كبيرة من الرسائل الفاضلية ، مخطوطة ،

الأساليب والمعاني

١ — وأول ما نلاحظه في نثره الفني أنه يعنى العناية كلها بالألفاظ والأساليب أولاً ، ثم المعاني ؛ فتراه يلون اللفظ ، ويزوق العبارة ، ويتمتع نفسه في هذه السبيل . وربما حشر ألفاظاً ما كان يريد معناها ، ولاخطرت بباله عندما بدأ يفشى رسالته ، ولكنه اضطر إلى هذا المعنى اضطراراً ، لتزيين الألفاظ ، أو المعاني ، بألوان براقة من الجمال اللفظي أو المعنوي . وإذن فعمارة من المشغوفين بالبديع في نثره كما رأينا ذلك في شعره . وتلك كانت طريقة الكتابة الأدبية في ذلك العصر . بل كانوا لا يعدون الكاتب من أصحاب هذه الصنعة إلا إذا نهج هذا المنهج ، واتبع تلك الطريقة المعروفة ، بالطريقة الفاضلية ، تلك التي نسبت إلى القاضي الفاضل ، وقد وضع أساسها قبله ابن العميد في منتصف القرن الرابع . يقول عمارة في الرسالة الثامنة : (وهل النثر إلا ما وقع الجزء على مفاصله ، وتحملت عقوده بفواصله ؟) .

ونستطيع أن نلاحظ في نثره الظواهر البديعية الآتية :

(١) السجع من الزخارف التي ترى في كل سطر من كتابته . ونراه حيناً بريئاً من التكلف ، محمولا على ما يأتي به الطبع ، يتبع اللفظ فيه المعنى ، مع حسن التركيب وجودة الصنعة ، مثل قوله في الرسالة السابقة : « ولم تزل المكانة عندهم تعلو ولا تنقص ، وتعلو ولا ترخص ، حتى أنفق ما أغص لهاقي بريقها ، وبقيت على ذلك فقيراً لا أتقوه ، وعقيراً لا أتأوه ، وعرفت حيرة المكبوح ، ودقة حركة المذبوح ، . وأحياناً يجيء سجيعة رثاء نايياً عن الذوق ، قاصراً على تواطؤ الفقر ، وتبدو عليه الكلفة والمشقة ، ولا يحمل إلا معنى ساقطاً ، مثل قوله في الرسالة الأولى : « وأرجع يا مولاي إلى مخاصمتك ، ومواصبتك ، ومشامتك ، وملاكتك ،

والغرض من عندك ، والكف من عبدك . هذه مكاتبة غير موالية ، ومخاطبة
الخالين والنوانية ، ومقاشرة ، وسوء معاشرة ، .
وسجعه على العموم كثير الفقرات ، وفواصله مختلفة ما بين طويلة وقصيرة .

(ب) والجناس والطباق يليان السجع في شيوع الاستعمال . ويلاحظ
أنه كثيراً ما يستعمل الجناس مع الطباق ، وقد يعلو في استعمالهما أحياناً ،
ويسقط أحياناً . يقول في الرسالة السابعة : « ... يامولاي ، إلى هنا تنتهى
الحكاية ، ونبتدىء في الشكاية ، وتنقطع البراعة ، وتتصل الضراعة ، .
فهنأ طباق بين تنتهى ونبتدىء ، وبين تنقطع وتتصل ، وجناس بين الحكاية
والشكاية ، وبين البراعة والضراعة .

(ج) وكثيراً ما يضمن صاحبنا كتابته آيات من القرآن الكريم ،
أو الشعر ، أو الحسك والأمثال ، من غير أن يصرح بنسبتها إلى قائلها ،
مشيراً بهذا إلى مهارته في سبك كلامه بكلام غيره . وهذا ما يسمى عند
علماء البديع بالاعتباس . وقد أجاد عمارة هذا النوع البديعى ، وزراه غير
قليل في كتابته . يقول في الرسالة الثانية : « وإن تعتقد في قوم تظن أنهم
عارفون ، وهم جاهلون ، ريعلون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة
هم غافلون ، . فقد اقتبس الجملة الأخيرة من القرآن الكريم . ويقول في
الرسالة الأولى : « ولا تقل كم بين الفسطاط وآخر الصعيد . إن هذا هو
المرمى البعيد .

سهم أصاب وراميه بنى سلم من بالعراق ، لقد أبعدت مرماك

ورسائله حافلة بأمثال هذه الاقتباسات .

(د) والاستطراد من الأمور المشاهدة في نثره ، فنجده يخرج من
الكلام الذى هو مسترسل فيه ، إلى كلام غيره لمناسبة من المناسبات ،

ثم لا يلبث حتى يرجع إلى كلامه الأول . ففي الرسالة الأولى نجده ينبي صاحبه أنه كان عازماً على معانته ، ولكنه رأى أن الملائكة أولى من الملام . فأخذ يبثه شوقه ، ويذكر أوقات محاضراته ومذاكرته بالخير ، بيد أنه لم يلبث إلا قليلاً حتى يرجع إلى عتابه ، بل سبابه ، والتظلم من جفائه ، وعدم وفائه ، بل نرى عمارة يسرف في العتاب فيقول لصاحبه : « لا سقاني الله بنوئك ، ولا هداني بضوئك ، ولا بلاني بسوئك » . وبعد أن انتهى من مخاصمته ، ومشاتمته ، هدأت نفسه ، وعاد إلى شكره ، والاعتذار إليه عما فرط من الكلام ، فهو « هذر ساقط ، وقذر ماله لا قط » . وهذه الظاهرة ملحوظة في معظم رسائله .

(هـ) ونجد أيضاً في نثره الفنى كثيراً من أنواع البديع الأخرى ، كحسن التعليل وأسلوب الحكيم وغير ذلك .

٢ — وكان للفنون البيانية نصيب كبير في نثر عمارة : فوجدناه يأتي بالتشبيه الظريف ، والاستعارة البارعة ، والكنائية الفائقة . ولولا ما شاب نثره من إلحاح في التزويق ، وكد وراء المحسنات البديعية لجاءت فنونه البيانية من الطراز الأول .

أما الكنائية فقد برع فيها ، وتمكن بواسطتها من غز خصوصه مع قطع السبيل على مؤاخذته ، والسمو بمقام أصدقائه إلى درجة عالية . كما صور بها المعاني الروحية في صورة المحسوسات ، وقدم لنا الحقائق مصحوبة ببراهينها . يقول في الرسالة الثانية : « وخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين ، واذكر خيراً فقد أثنى الله على الذاكرين ، وإلا فاجمع بين رأسك والحجر ، وأنفاسك والصخر ... ومالي إلا أن ألف ذنبي على أنفي ، وأطرح خدي على مخدة كني » . فقد كنى هنا عن الضيق وبطلان الحيلة بقوله : فاجمع بين رأسك والحجر ... وكنى عن الحيرة والتفكير الشاحب

بقوله : وأطرح خدى على مخدة كفى . والكناية في هذه الحالات تصوير رائع ، وحجة قوية على المكنى عنه . ورسائله مليئة بأمثال هذه الكنايات الممتازة .

أما التشبيهات والاستعارات فليست قليلة في نثره . يقول في الرسالة الرابعة : « ثم افرض أنك إياس فهم ، وبديع الزمان نظما ونثرا ، . فهو هنا يشبه المخاطب بإياس في الفهم ، وبديع الزمان في النثر والنظم . ويقول في الرسالة الخامسة . « وبطلت مقاصد الأغراض ، وهطلت المذمة على الأعراض ، . فطول الذم استعارة طيبة . والأمثلة في ذلك كثيرة .

وأكبر الظن أن عناية السكاتب كانت موجهة إلى الفنون البديعية التي تشاهد في هذه النصوص ، أما ما ورد فيها من التشبيهات والاستعارات فلم يعتمد إجادتها بل لم يقصد إليها ، ولكنها جاءت عفواً الخاطر ، بريئة من التكلف والمشقة .

٣ — وفي بعض الأحيان يكون المعنى بسيطاً يمكن تأديته باليسير من الألفاظ ، ولكن صاحبنا يصوره بكلام طويل ، ومنطق متعور ، فنجده يلف ويدور ، ويقدم ويؤخر حتى يكاد القارىء أن يشعر بالضيق ، ولا يستطيع أن يستخلص مرمى إليه السكاتب من المعنى إلا بغير قليل من المشقة . يقول في الرسالة السابقة . « سبب هذه المناجاة ، أدام الله عز الحضرة دواما يبلغها مرادها ، ويكتب أضدادها ، ما يوضح التفصيل جملته من أمور أنا أقدم بين يديها من الضراعة إلى مولاي أن سبهم لها من التفضل بالإغضاء عنها ، والإقبال على ما تسمعه منها ، بطول يطول قصرها ، وببسط خصرها ، ويطرق أمامها ، ويسهل مرامها ، ويرخم تهورها في المناجاة ويهجمها ، ويحقق كهاتبا في الحضرة وينجمها ، فمنها خدمة ... » . فهو يريد أن يقول لصاحبه : أرسل لك هذه الرسالة لعدة أسباب سأوضحها هنا بالتفصيل . فمنها خدمة ... فهذا المعنى البسيط أداه بهذه العبارات الطويلة ،

والألفاظ البراقة . ناهيك عما فيه من جمل معترضة ، وأفكار ملتوية ،
سحبت على هذا المعنى البسيط غشاوة من الغموض .

ومهما يكن من شيء فخط صاحبنا من الأدب النثرى لا يقل روعة
— في جملته — عن حظ غيره من كبار الكتّاب في عصره . فألفاظه
— على العموم — رشيقة ، وتعبيراته محكمة دقيقة ، ومعانيه طريفة مستملحة
تثير الانتباه لما فيها من لطف وجمال .

الموضوعات

من المشاهد أن كتابة عمارة الأدبية تعرضت لموضوعات هي إلى الترف
والمتعة الفنية أقرب . تعرضت للموضوعات التي يخوض فيها الشعر : من
مدح ، وتمنئة ، وعتاب ، وشوق ، وهجاء ، ونحو ذلك . وكان اهتمامه
بموضوعاته النثرية كاهتمامه بموضوعاته الشعرية . فافتن في ابتكار الأساليب ،
وتزييق العبارات ، واختراع المعاني ، حتى اتسمت رسائله بالروعة والظرف .
ونثره الفني الذي بأيدينا — على قلته — يمكننا استنتاج موضوعاته على النحو
التالى :

١ — كثير من رسائله تدور حول طلب المال ، وضراعة السؤال ،
والتكسب بالنثر ، والتفنن في المدح . وقد استخدم في ذلك براعته الفائقة
في الكتابة الإنشائية ، ونبوغه في الدعاية لنفسه ومدحيه . فبعد أن
يمدحهم بخير الصفات ، ويخلع عليهم أسمى الألقاب ، يشكو إليهم سوء حاله ،
وكثرة حاشيته وعياله ، ويطلب العون ، ويرجو التفضل ولو باليسير ؛
لأنه فقير لا يتفوه ، وعقير لا يتأوه ، والحاجة سائق حثيث ، والوقت
غريم خبيث . وقد كان يريق ماء وجهه في طلب المال لدرجة سيئة ،
وقد شاع ذلك في معظم رسائله .

ففي الرسالة الثالثة نجده يطلب من مدوحيه القليل من الأموال ، ليستطيع تقديمها . ومع ذلك يفترض أن نفس مدوحيه قد تأبى عليه تقديم هذا المال القليل ، فيرد عليها ، وينتهى إلى أن مدوحيه سيعصى نفسه ويقدم لعلمارة ما يطلب .

ثم يفرض أيضاً أن مدوحيه قد رمى بحجر ثقيل - يعني عمارة - رأس ماله كثرة الكلام ، وسوء الملام ، غث العبارات الإشارة . . وهكذا من الصفات التي ربما تدور بخلد الممدوح بعد تسلمه هذه الرسالة . . . إلى أن يقول : « وهذه عدة مساوي ، ليس في العيوب لها مساو ، إلا أن نارها بكرمك تطفأ ، وعارها بفضلك يخفى » . ولم تقف فروض صاحبنا عند هذا الحد ، بل يفترض أن الأموال ليست الآن في متناول الممدوح ، فيزعم أن مولاه مع ذلك لا يعجز عن تدبير قليل من المال وإرساله إلى عمارة . وتنتهي الرسالة بقوله : « لا عذر لسحابك عن المطر ، ولراجيك عن نيل الوطر » . فهذا التلاعب بالأساليب لا غرض من ورائه - فيما أرى - إلا ابتزاز الأموال ، وإتقان فن الشجاذة . وأما ماساقه من المدح خلال ذلك فكله إغراء في إغراء .

٢ - في الرسالة الأولى نظرات تناولت أعمال القضاء بالنقد ، ورجال الشريعة بالتشهير ، ومجالسهم بالسخرية . فالشريعة - في زعمه - حدودها متروكة . ومعالمها مطموسة . قد نسى قديمها ، وبلى بردها . والعلّة في نظره رجال القضاء . فقد كانوا فيما مضى يجمعون إلى غزارة العلم شرف العمل ، ويتحلون بالحكم والكمال والبعد عن الخطايا . أما في زمنه فصار القضاء مهزلة ، لا يتولاه إلا من بذل قرصاً ، ولم يهتد عرضاً . « شعارهم طول السبال والقامة ، وعرض اللحية والعمامة . يعرفون أن اشتقاق الرشا من الرشوة ، وينسكرون الفرق بين النشا والنشوة » . نخدمة القضاء « زبدة

كلها زبد ، ومورد صفوه زبد ، وعيبة محشوة بالعيوب ، وذنوب مملوءة بالذنوب . . وحتى مجلس القاضى لم يسلم من سخريته . فلا يرى فيه إلا اليتامى والأرامل ، والمرضعات والحوامل ، وهذه زوجة تشكو زوجها لتخرج من عصمته ، وهذا يتيم ظلمه عمه ، « وأعرج رجله مخلوجة ، ويده مفلوجة . ومشايخ عظامهم نخرة ، وكوامدهم بخرة . »

٣ — أما الوصف فقد أجاده عمارة وبرع فيه . وخير ما تقدمه لذلك الرسالة التاسعة ، وقد كتبها جواباً عن كتاب ورد عليه من قاضى مدينة الفيوم . ونجد فيها وصفاً للإسكندرية ، ووصفاً للفيوم . يقول فى الإسكندرية . . . ذات المدارس ، والرباطات والمحارس ، ومجتمع بحار الشرق والغرب ، ومصر الجمعيتين ودار الضرب ، ومركز الأكابر من ولاية الحرب ، والمساجد المختصة بالجماعات ، والمحاضر المختصة بالساعات .

ويقول فى الفيوم قادحا : « وهل الفيوم إلا منقطعة من الأرض ضلت عنك من النيل فقصدتها ، وزلت عن سمت الطريق فوردتها . فهمى للنيل مغيب بل محبب ، حياتها مما صرف عنان مجراه عن مسراه . رأس رباها فى زباها ، كل من عليها فان ، من العيان . »

ويقول فيها منصفاً : « أو ليست الفيوم مدينة النبى الصديق الذى فتح بحكمة النبوة مغلقها ، ووسم بالنباهة مغفلها ، وأبقى بها عمائر لانتمد إليها يد الخراب ، ولا تسمو إلى قواعد همة الاضطراب . قد حازت من الحاضرة رفاقتها ، ومن البادية نزاهتها فهذا وصف جيد يشهد لصاحبه بالبراعة الفائقة فى التصوير ، مع جزالة اللفظ ، وإحكام النظم ، ونغامة المعانى .

وأوصافه فى المعنويات لا تقل بهاء عن المحسوسات ، وهى غير قليلة فى رسائله .

٤ — وعمارة في نثره الفنى كثير الحكم والأمثال . وساعده على ذلك غلبة ناحية التكسب عليه ، فهو في حاجة إلى ما يؤيد دعواه عند من يطلب عطاءهم . والحكمة والمثل خير طريق لإصابة المعنى ونجويد الكتابة والتأثير على السامعين حتى يحملهم على بذل المال . والحق أن حكمه ممتازة ، وأمثاله مختارة ، تدل على الكياسة والاستفادة بتجارب الحياة . وقد أكسبت نثره جودة في السبك ، وارتفاعاً في مراتب البلاغة .

٥ — وصاحبنا في بعض رسائله يفخر بنفسه كثيراً ، ويرى أنه أقدم في التاريخ من الحرمين ، بل هو ثالث الهرمين . لم يمدح إلا الوزراء والخلفاء ، ولم يجالس سواهم ، وقد زاحم الأسود في أدغالها ، والحيات في مساربها . ويفخر بأدبه أيضاً ، ويتوعد من يعيبه ، أو ينتقص من قيمته ويقول : « وكيف يقف لنقد قصائدى ، أو يطير في جوى ، أو يمشى في دوى ، من لعله إنما حصل على بعض عوامل النحو ، وفاز من اللغة باللغو ، ولو ضمنى معه مجلس لكسفت أنواره ، وكشفت عواره . » وهكذا يفخر بشخصيته ، وبأدبه ، ويفخر على من تحدثه نفسه بالوقوف في محاذاته .

٦ — والعتاب واضح في بعض رسائله ، لأنها في جملتها رسائل إخوانية . وعتابه في مجموعه يبدأ هادئاً ولا يلبث أن يصير عنيفاً حتى يشبه الهجاء ، فإذا ما شعر بإسرافه فيه رجع إلى نفسه فلامها أشد اللوم ، واعتذر إلى صاحبه عما فرط منه .

هذه أهم الأغراض التي نشاهدها في نثر عمارة . وقد تجتمع كلها في رسالة واحدة ، وقد يظهر بعضها في رسالة ما دون البعض الآخر . ويرجع ذلك إلى مضمون الرسالة ، وظروف كتابتها ، والشخص المرسل إليه أو قيلت فيه .

ونختم الحديث عن عمارة الكاتب ، بتسجيل إحدى رسائله كاملة ،
لتكون نموذجاً متكاملًا من نثره الفنى . وهذا هو نص رسالة بعث بها
إلى صديق له ولى على أسوان :

« إن جرى بيننا وبينك عتب أو تنامت منا ومنك الديار
فالوداد الذى عهدت مقيم والدموع التى شهدت غزار ،

كان عزمى ، أطال الله بقاء حضرة مولاي ، أن أستفتح هذا الكتاب ،
بأليم العتاب ، وأشحنه من الخطاب ، بما لا يستطاب ، وأقيم أعنة القوارص ،
وأسدد أسنة الخوارص ، وأجلب بخيل التوبيخ ورجاله ، وأجمع بين
رويته وارتجاله ، وأجهز تغنيفاً يضيق له البحر بمراكبه ، والبر بمواكبه .
ثم قلت : السلام قبل الكلام ، والملاطفة أولى من الملام . ثم عطفنى حفظى
لعهدك ، وحفاظى على ودك ، وشافع أولى ، ووفاء سموألى ، فلا طفاى
حتى لزما كفى ، وخزما أننى . فعدت من شب نار الوجد عليك ، إلى التشبيب
بذكر الشوق إليك . وكتابتى هذا صادر عن صدر مملوء بودك ، وقلب
مصدوع ببعذك ، وأسف لفقدك ، لا يظعن قاطنه ، ولا يخفى باطنه . وغرام
لو تصور لك لبانت على وجهه جناية الفراق ، ومراسم الاحتراق ، ولعلبت
أن صورتك فى القلب مغروسة ، ومكانتك منه محروسة ، وأنتك شغل
خاطرى ومسرحه ، ومرمى ناظرى ومطرحه :

يا حبذا سفوان لى من مرتع ولربما جمع الهوى سفوان

بل حبذا لىالى محاضرتك ومذاكرتك ، ومرأوتك ومباكرتك :

وأياما لنا ولكم نعمنا زمانا فى حواشيها الرقاق

لىالى نحن فى غفلات عيش كأن الدهر عنا فى وثاق

هذا يامولاي فصل مقصور على صحيح التشوق . لاسقيم التسوق .

وخاطرك ، والكاف ألد من الضمير في مخاطبتك ، وأعذب من الماء النير
 في مكاتبك ، تعلم صدق دخيلتى ، وودق مخيلتى . وأعود إلى ما فى نفسى
 من عتابك ، بل سبابك ، والتظلم من جفائك ، والتألم من عدم وفائك .
 يا أعصى من العود ، وأفسى من الجلود . بل يا قصير العزيمة ، وطويل
 الهزيمة ، مضت لك شهور ، هى عندى دهور ، لم تهزك فيها ريح الأريحية ،
 ولا شيمة النفس المضرحية ، ولا استفرك المنصب الأبى ، ولا الحسب
 الغرى . قطعت من مكاتبك رسمى ، فلا تلفظ فى كتبك إلى الناس باسمى ،
 فقد كنت أرضى منك أن أكون تحت الحسبلة ، لا فوق البسملة . ولقد
 رأيت لك كتباً سلطانية ، وأخرى إخوانية ، فقبلت اسمك من عنوانها ،
 قبل الوقوف على بيانها . هذا وأنا كنانة سرى ، وخزاة حلوك ومرك ، والمتهم
 فىك ، بما سمع من فىك . وأظن اسمى لو مر بسمعك لحذفت خمسه ليكون عمى
 الأبصار . ولست أعلم لك عذراً أحمل فعلى عليه ، وأنسب تحاملك إليه ،
 إلا أن تكون طينة البلد والمنشا ، غشى فؤادك منها ما غشى ، فإنها الطينة
 التى تنبت العقارب ، وتعادى بين الأقارب . وأنت تعلم أن آل الزبير
 والسكنز إليهم مذتهى رياسة أعلامها ، وسياسة أعلامها ، ونحلتى سيفها
 وضيفها ، ورحلتى شتاها وضيفها . من منهم إلا من عداوته أسباطية
 لأخيه ، أنباطية فى توخيه ، يبدون المودة ، ويخفون العداوة ، أهل حاضرة
 وفيهم جفاء البداوة ، وهذا ما ليس لهم فى دفعه حيلة ، ولا فى منعه وسيلة ،
 لأنه طبع جرى فى دماهم ، ونسيم سمائمهم ، وامتزج بأهوائهم من أهوائهم ،
 وإلا نخذ إليك ، واحسب على يدىك . كم هنالك من راسخ أنساب ،
 وشامخ أحساب ، وصحة أديم ، ومجد قديم ، وغر عميم ، وكرم صميم . أوليس
 أسوان بهم مأوى الطريد ، ومقر الشريد ، وأمان الخائف ، والذمة من
 الدهر الخائف ؟ ثم هم سداد الثغر إذا انفتح ، وسداد الأمر إذا فدح ،

وشعلة الزناد إذا قدح ، وعنوان الصدق لمن مدح . العادلون إلا على
الوفر ، والفاصلون بين الإسلام والكفر .

وأرجع يامولاي إلى مخاصمتك ، ومواصمتك ، ومشاتمتك ، وملاكتك ،
والغرض من عندك ، والكف من عبدك . هذه مكانة غير موانية ،
ومخاطبة الحمايين والنوائبة ، ومقاشرة ، وسوء معاشرة . وكأني بمولاي إذا
انتهى إلى هذا الحد تمثل وأنشد :

لئن سامني أن نلتني بإساءة لقد سرنى أنى خطرت ببالك

أأمنت أن أغضب فأقول : لاسقاني الله بنوئك ، ولا هداني بضوئك ،
ولا بلاني بسوئك . فإنك من أسوان والهمزة إذا حذف عظمها ، فهمت
تنبيه السوء منها . وأنت الذي جلبت إليها التغميف ، وفتحت عليها الكنيف .
فإن كان هوى البلد أعداك ، فقد هوى بك وأرداك ، وإن كانت الرياسة
المحدثه — ولا أكسر دالها — ألهتك عن أصفيائك ، وحسن وفائك ، فما
إحالك ، وفلان خالك ، تجفو من ينصفك ، وتنكر من يعرفك . أجدني
يامولاي قد اشتقي منك قرمى ، وانطفا عنك ضرمى ، وأخذت الفتنة
نارها ، ووضعت الحرب أوزارها ، وسفرت المسألة عن جبينها ، وأخذت
صفقة ثمينها .

وهذا وأأن تسرعى إلى حسن ذكرك ، وتبرعنى إلى حمدك وشكرك ،
ولتمام ما أعرضت عنه من ذكر الشوق إلى لقائك ، والدعاء بطول بقائك .
وأما هذا الكلام فهو هنر ساقط ، وقدر ماله لا قط . وجلالة قدرك ،
وطهارة صدرك ، وجميل اعتقادك ، وخالص ودادك وسؤددك ، وشرف
قومك ونفسك ، وحسن يومك وأمسك ، يحملنى على عليك بأن مكانتتك
من قلبى ثابتة المكان ، قوية الأركان . ولولا ذلك لقلت للنفس : سقيت

سهلاً ، وسلبت علماً ، ولبست جهلاً ، ووجدت حزناً ، وعدمت سهلاً .
 ما هذه الجرأة على الأعراض المحرمة ، والبيوتات المكفرة ؟ أتعرفين
 بخلت يدك بمن تسمحين ؟ وعميت عينك إلى من تطمحين ؟ إن لم يقك
 الوجل ، فليهلك الخجل . وإن لم يرعك الريث فلا يستفزك العجل . أما
 تعلمين أن هذه رتبة الأحكام الشرعية ، ورتبة أهلها واجبة مرعية ، بل
 رتبة النظر والإشراف ، ونفاذ الكلمة في الأوساط والأطراف ؟

واتصل بي أن مولاي قبض يده عن أحكام القضاء ، وبسطها في الأموال
 والإمضاء ، وإن كان السكسل حد من نشاط نفسك ، وطوى بعض بساط
 أنسك . وأنا أعينك أن تغلط في وهمك ، أو يعترض الشك على فهمك .
 لا تقل ذهبت أجمل الخدمتين ، وأكمل التعمتين ؛ فإن من زاد في الكراء
 ملك الدار ، وهذه الشقراء والمضمار . وأما الخدمتان : فهما أنا أجلوها على
 امرأة عقلك وهي صافية ، وأعرضهما على بصيرة فضلك وهي شافية . أما
 الشريعة فهي ملسوعة عدمت الراقى ومريضة روحها في التراقي . حدودها
 متروكة ، وحرمانها مهتوكة ، ومعالمها مطموسة ، وأعلامها منكوسة ، وقد
 نفل أديمها ، ونسى قديمها ، وعفى وردّها ، وبلى بردها ، حتى وقعت الزهادة
 في لفظ الشهادة ، وثقل الأذان على الأذان . وكان القضاء لا يتولاه إلا
 من قرا ودرى ، وشبع من المعارف وتضلع ، وتشوق إلى السكال وتطلع ،
 وبسط يده بالعطايا ، وقبض رجله عن الخطايا . وقد صار القضاء في وقتنا ،
 لما قضى الله به من مقتنا ، مبذولا لمن بذل فرضا ، معروضا على من لا يصون
 عرضاً . شعارهم طول السبال والقامة ، وعرض اللحية والعمامة . يعرفون
 أن اشتقاق الرشا من الرشوة ، وينسكرون الفرق بين النشا والنشوة .
 هذه حال الشرع في الأمصار الواسعة ، والأقطار الشاسعة . فأما أسوان
 فهي كما قال أبو الفتح البستي :

أكتاب بست كم يحاسدكم على كتابة بست وهى سخنة عين
وخفى حنين فوق ما تطلبونه فكم بينكم يا قوم حرب حنين

وهل فى أحكام أسوان غريبة لا تعرف، ونازلة لا تستطرف ؟ ما من
أحد إلا وهو يعرف السلف على الزبيب والتمر ، والوالى يصفع المعربدين
على المزر والخمر . حاكمها مستريح من إقامة الناموس ، وإحضار المصحف
للممين الغموس ؛ لأن يمين التجار ، وإلا يغرق فى شبر من الماء ، ويمين
الحمال ، وإلا عذبت فى صحراء عذاب بانظماً ، والعشار يقول : « وإلا
فالسكب على عياله ، والحمار على أخت خاله » ، والسفساف يقول : « وإلا
لصفع الوالى قفاه ، ورض فاه » .

هذه الخدمة بامولاي قد شرحت لك حالها ، وعرضت عليك جمالها ،
وهى زبدة كلها زبد ، ومورد صفوه زيد ، وعيبة محشوة بالعيوب ، وذنوب
مملوءة بالذنوب . وأما التصرف فى الأموال ، والبسطة فى الأعمال ،
فأنت تعلم أن المال بلغك من المجلس العالى إلى أن أخلاك فى ركابه ،
واختصك بخطابه ، وكنت متكسلاً فتنشطت ، ومنقبضاً فتبسطت . ونظر إليك ،
وخلع عليك ، ووعدك من الصيت والتنويه ، فوق ماتأمله وتنويه . ثم افرض
أنك وحاكم ثغرك وقاضى مهرك قد متما على الوالى فأدلى القاضى بالدية ،
وأدليت أنت بالهدية ، ومت على الوالى بوقاره ، ومت بما قدمت إلى
داره ، هنالك ، والله ، تعرف أن الجمال بخدمة المال ، وإلى اليمين فضل الشمال ،
وأن صاحب الإحسان أمكن من صاحب الطيلسان . ثم لو جمعك المسجد
الجامع ، وبرزتما للنظر والسماع ، لامتلأ مجلسك بالعمال والخزان ،
والمؤدين إلى الوزان . وأطافت بك الأعوان السلطانية ، والنواب
الديوانية . وحفت بك أرباب الرواتب والجوازي ، ولم تجد من قولك
من يراجع أو يجازى ، وقلت : قدموا هذا وارفعوه ، وأخرجوا ذلك

واصفور . وأما القاضى فلم يكن مجلسه يفتنص ، ومقصوده تختص ،
إلا باليتامى والأرامل ، والمرضعات والحوامل . وقائلة إن زوجها لا يكفيها ،
لتخرج من عصمته إلى من يشفيها . ويتم ظله عمه ، ونكحت (١) أمه . وأخرج
رجله مخلوجة ، ويده مفلوجة . ومشايخ عظامهم نخرة ، وكوادهم بخرة .
ثم القاضى - أيدى الله - نائب حكم الصعيد ، وأنت نائب صاحب العصر
والقصر المشيد .

وماضر أرباب الدواوين أنهم نصارى وإن لم يؤمنوا بمحمد
وها نحن إن رمنا سلاما عليهم دفعنا عن الأكام فضلا عن اليد

وهذه صورة الحال ، من غير انتحال . وكأنى بك إذا فهمت أطربت ،
وشددت يدك على ما فيها وربطت ، وعلمت مقدار حظك فاغبطت . وأريد
يامولاي أن أصطادك بهذا الجنب ، وأربط مرزأتى فى هذا الذنب ،
وأشوى فى نارك سمكتى ، وأجلب إلى شوقك رمكتى . فلامر ما نصبت
هذه الراية ، وأجريت إلى هذه الغاية ، وجازفت وحققت ، وعن صبح
رقت . عليك يحيط بكثرة ما أتلف ، وقلة ما أخلف ، وغنى نفسى عن سؤال
الغنام ، فضلا عن الأنام ، وليس للتوسع لأنى مبذر ، بل سائل من أهل
البن والحجاز لا يعذر . قد ركب اللجة الخضراء ، والفقرة الغبراء ، وقصد
بابى ، ونزل جنابى ، أفأصون صون قرضى ، وأبذل عرضى ؟

وأن أحق الناس باللوم شاعر يلوم على البخل الرجال ويبخل

وأما حاشيتى الضافية ، وعدتى الوافية ، فأنت فى كثرتها أصدق مخبر ،
وأفصح معبر . ولما طالت محنة الغز وعرضت ، ورجوناها أن تصح
فرضت ، رجعت إلى كنانة ذكرى ، وخزانة فكرى ، فكنت أكرم خاطر
فى خاطرى ، وأحسن وجه يمثل لناظرى . وسيرت إليك بعض خروجاتى

(١) فى الأصل لفظة تمخش الحياء ، فاستبدلتها بما يؤدى معناها .

للجارى الذى جمدت أنهاره ، وخمدت ناره . ومبلغه يسير فى جنب كرمك ،
حقير إذا قرن بهملك .

فكم فى الأرض من حسن ولكن
عليك من الورى وقع اختيارى

ولا تقل كم بين الفسطاط وآخر الصعيد ، إن هذا هو المرمى البعيد .
سهم أصاب وراميه بذى سلم من بالعراق لقد أبعدت مرمك

فلو كنت أعلم أنى عندك من ينده سربه ، ويكدر بالأعداء شربه ، اقصرت
ما أطلته ، وبخلت بما بذلته ، ولكنى قلت : هذا أمر قد سهلت مسالكه ،
إذ أنت مالسه ، وغيرى تقبل من جودك بعض مجهودك . وقد أقسمت
عليك ، وإبرار القسم إليك للنفس الأمانة : ساعينى فى عمارة ، واتركى
عنك قصور باعك ، وجفاء طباعك ، فإن هذا سواد الناظر ، بل ضمير
الخاطر ، وسقف السماء ، وعذب الماء ، وكأنى بالوصول ، وقد آل إلى
الحصول ، وبالسؤال فى يد الرسول :

ألا إن نفسا بين جنبى محمد إذا هم بالمعروف قالت تقدم
ويا طالما قالت له عند فرصة من الجود خذها لاتفك فتندم

يامولاي قد أجلت الرسول شهراً ، وأنا أعده دهرأ . وأقف حيث
انتهيت ، وأسأل الجواب عما انتهيت ، فإن الحاجة سائق حثيث ، والوقت
غريم خبيث . ولرأيك الفضل المعروف بالفضل ، والطول المشفوع
بالتطول . ولولا أن هذه الرسالة صادرة عن قائل لايتقول ، واردة على
قابل لايتأول ، لسألت كرمك عن بسط العذر عما فيها من التقصير .
وحسبنا الله ونعم النصير ^(١) .

(١) س ٤٣١ وما بعدها ضمن مانشره ه . ديربندورج من رسائل عمارة .

وهكذا نجد في تلك الرسالة الطويلة خلاصة لسمات نثره الفني ؛ من
سجع وجناس وطباق وازدواج واقتباس وتشخيص ... وفيها ذكر
للفراق والعتاب والتهكم والاستجداء مما هو من صميم أغراض الشعر .
وهي وأمثالها تجمع بحق خلاصة الخصائص الفنية للرسائل الإخوانية
الأدبية التي انتهى إليها هذا اللون من النثر الفني بمصر الفاطمية .

الفصل الثالث

عمارة المؤرخ

لم يكتف عمارة بما وصل إليه من نبوغ ونباهة ذكر في عالم الشعر والأدب، ولكنه أضاف إلى ذلك فتحاً آخر في عالم المعرفة . فألف بمصر كتابين عظيمين في التاريخ : أحدهما تاريخ الين . والثاني النكت العصرية في أخبار الوزراء المصرية . وسنحاول هنا وصف هذين الكتابين ، ومنحاهما في التأليف ، مع عرض بمجل للموضوعات التي وردت فيهما .

تاريخ الين

في سنة ثلاث وستين وخمسمائة حضر عمارة مجلس القاضي الفاضل ، صاحب ديوان الإنشاء عن الخلافة العاضدية . وكانت الصلة بين الرجلين طيبة . فرغب القاضي إلى عمارة أن يضع كتاباً عن الين يجمع فيه ما علق بحفظه . ومن أخبار جزيرة الين ، سهلها ووعرها ، برأ وبجرأ ، وعدد ممالكها ، وأبعاد ممالكها ، وحروب أهلها ، ووقائعهم ، ومآثرهم وصنائعهم ، وأخبار قضائهم ودعاتهم ، وأخبار أعيانها وأمرائها ، ومن روى لى عنه أو رأيت من شعرائها^(١) . فصادفت هذه الرغبة هوى في نفس صاحبنا ، فامتل للأمر ، وألف هذا الكتاب ، وجمع فيه كثيراً من أخبار الين من بدء القرن الثالث الهجرى إلى سنة خمسمائة وثلاثة وستين هجرية .

اسم الكتاب :

وقد اختلف في اسم هذا المصنف . فذهب بعضهم إلى أن اسمه . « المفيد »
في أخبار زيد ، . بينما يقول البعض الآخر إنه : « تاريخ الين » .

ومن أصحاب الرأي الأول ، البهاء الجندی في كتابه : (السلوك) حيث
يقول : إنه أخذ أخبار المتقدمين من بعض الكتب وذكروها ، ويجعل
من ضمنها كتابنا هذا فيقول عنه : « ثم يقاربه تاريخ عمارة الموسوم بالمفيد
في أخبار زيد ، ويقول : « وهو الذي يعرف بمفيد عمارة احترازاً من
مفيد جياش ، ^(١) . ونجد الجندی ينسب غير قليل من أخباره إلى عمارة ،
مثل قوله : « قال عمارة في مفيدة : كان القاضي أبو بكر الجندی مجيداً ، وله
بديهة لافضل في الروية عليها » . وبالفعل نجد هذا المعنى في تاريخ الين
ص ٥٦ . ويعتبر الجندی هذا الكتاب من أهم مصادره ويقول عنه : « وقد
أوردت منه كثيراً في كتابي ^(٢) » .

ومنهم أيضاً السخاوي في كتابه : « الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ » ،
فقد عقد فيه فصلاً عما ألف من التواريخ في أهل بلد مخصوص . ثم رتب
البلاد على حروف المعجم . وفي باب الين نقل أسماء كتب عديدة مع
مؤلفيها ، ولكنه لم يشر إلى كتاب لعمارة باسم تاريخ الين ، واكتفى
بقوله : ولعمارة كما تقدم (المفيد في أخبار زيد) . وبالفعل نجده في الكلام
على زيد يذكر كتاب عمارة تحت اسم « المفيد في أخبار زيد ^(٣) » .

ومن جهة أخرى نجد لأبي الطامى جياش بن نجاح صاحب زيد
كتاباً اسمه (المفيد في أخبار زيد) ، وذلك بشهادة عمارة نفسه حين

(٢) شرحه ص ١٥٢

(١) السلوك . المجلد الأول ص ١٥١

(٣) ص ١٢٧ ، ١٣٥

يقول : « وهو مصنف كتاب « المفيد » أخبار زبيد » ، وهو كتاب متسع الإفادة^(١) .

ويظهر أن الاسم الثاني (تاريخ الين) هو الأرجح ، وعليه الجمهور ، والمخطوط الوحيد المعروف من هذا التاريخ محفوظ في مكتبة المتحف البريطاني بعنوان : تاريخ الين . كما أن موضوعات هذا الكتاب ليست خاصة بزبيد وحدها ولكنها تنظم الين كله ، مما يلقي ضوءاً على ترجيح الاسم الثاني .

موضوعات الكتاب :

ويمكن تلخيص موضوعات هذا الكتاب فيما يلي :

في سنة ٢٠٢ هـ لما بويع لأبراهيم بن المهدي في بغداد وردت أخبار على المأمون بحدوث اضطرابات في الين ، فأمر محمد بن عبد الله ، أحد أحفاد زياد بن أبي سفيان (ابن أبيه) بالذهاب إلى الين لمعالجة الموقف . فهدأ الاضطرابات ، وأنشأ مدينة زبيد سنة ٢٠٤ ، وكون الدولة الزيدية في الين . ولكنه واصل الخطبة لبني العباس ، وحمل إليهم هو وأولاده من بعده الأموال والهدايا . ومن أشهر وزراء بني زياد حسين بن سلامة . وقد قام بكثير من العمران في البلاد ، « ومحاسنه بالين مجلدات^(٢) » . وقد استمرت الدولة الزيدية زاهرة ردحا من الزمن إلى أن تغلب عليها موالها الأجباش ، وقضوا عليها سنة ٤٠٩ هـ . ثم استبد كل أمير حبشي منهم بإقليمه . ومن أهم أماراتهم : إمارة بني نجاح في زبيد .

بعد ذلك ، يذكر عمارة هذا العنوان : « أخبار الداعي علي بن محمد

الصليحي ، وعنها تنفرع جل أخبار اليمن ، وبها يتعلق بقية الكتاب ، من القضاة ، والدعاة ، والكبراء ، والشعراء ،^(١) ثم يفصل بعد ذلك أخبار الدعاة مبتدئاً بأولهم ، علي بن محمد الصليحي ، وقد قتل نجاحاً الحبشي صاحب زيد ، واستأذن المستنصر الفاطمي في إظهار الدعوة ، فأذن له سنة ٤٥٢ هـ . ولم تخرج سنة ٤٥٥ هـ وما بقي من اليمن سهل ولا وعراً ولا بر ولا بحر إلا فتحه^(٢) . وكانت إقامته بصنعاء . وفي سنة ٤٥٩ هـ رحل إلى مكة حاجاً ، فقتله سعيد بن نجاح انتقاماً لأبيه .

بعد ذلك سرد عمارة أخبار أحمد بن علي الصليحي ، وكيف انتقم من الأجباش واستولى على زيد . ثم عقب على هذا بأخبار الملكة السيدة بنت أحمد زوجة أحمد بن علي الصليحي . فأخبار الداعي سبأ بن أحمد بن المظفر ابن علي الصليحي . يلي ذلك أخبار الملك المفضل بن أبي البركات بن الوليد الحميري ، وكان كبير دولة الملكة الحرة السيدة بنت أحمد . ثم انتقل إلى أخبار الموفق بن نجيب الدولة ، الذي قدم اليمن سنة ٥١٣ هـ . وكان يتولى أمر الدعوة الفاطمية .

ولما انتهى عمارة من أخبار الصليحيين انتقل إلى أخبار الزريعيين شيعة عدن ، فبين كيف كان لجدهم ابن العباس بلاء حسن في الدعوة المستنصرية مع الداعي علي بن محمد الصليحي ، ومع ابنه أحمد . فلما فتح الداعي علي عدن وولى عليها العباس ومسعود ابنه هذا الجد . وبعدهما تغلب عليها زريع بن العباس وأبو الغارات بن مسعود . وقد امتنع العدنيون عن دفع الخراج لبني الصليحي . ثم خلفهما علي بن أبي الغارات ، وأبو السعود بن زريع . ثم صولخوا على دفع نصف الخراج ، ثم على الربع ، فلما ضعف الصليحيون تغلب أهل عدن على الربع الباقي .

بعد ذلك يشرح عمارة المؤرخ السبب في زوال ملك علي بن أبي الغارات من عدن ، وانفراد الداعي سبأ بن أبي السعود بن زريع بها . ثم يسرد أخبار بني زريع على الترتيب الآتي : علي بن سبأ ، ثم أخوه محمد بن سبأ ، وبعده ابنه عمران الذي مات سنة ٥٦٠ هـ ، وخلفه ابنه محمد وأبو السعود ، وفي أيامهما استولى طوران شاه الأيوبي على اليمن كله .

يلي ذلك أخبار بلال بن جرير ، وقد كان أميراً تحت سلطان الداعي سبأ بن أبي السعود ، وابنيه الأعز ، ومحمد من بعده . ومات بلال وأوصى بثروته الطائلة لمحمد بن سبأ . وكان من أولاده ياسر بن بلال الذي مدحه عمارة .

بعد أن انتهى عمارة من تفصيل أحوال دعاة الشيعة الزريعيين في اليمن انتقل إلى أخبار آل نجاح ملوك زيد من الحبشة .^(١) وخلاصة أخبارهم كما أوردها في الكتاب :

* — قضى نجاح الحبشى أحد موالى الدولة الزيادية عليها ، وأنشأ يزيد دولة بني نجاح . ثم قتله على الصليحي سنة ٤٥٢ هـ . واستولى على زيد .

* — جاء بعده ابنه سعيد بن نجاح وأخذ بثأر أبيه ، واستولى على زيد ثانياً .

* — قتل أحمد الصليحي سعيداً هذا ، واستخلص زيد للصليحيين مرة ثانية .

* — عند ذلك فر جياش بن نجاح إلى الهند ، وعاد منها مخفياً ، وتوالت حوادثه حتى تمكن من الاستيلاء على زيد وإرجاعها إلى حكم بني نجاح .

• — بعد موت جيش سنة ٤٦٨ تنازع أولاده على السلطة ، وكانت أخيراً لابنه فاتك ، ولم يكن لأبناء فاتك بعده من الأمر شيء حتى رجع أمر تدبير الدولة لوزرائهم من العبيد .

• — بعد فاتك تولى ابنه المنصور ، وكان طفلاً . واستمرت زبيد في يد بني فاتك حتى أخذها علي بن مهدي الخارجى سنة ٥٥٤ هـ .

بعد ذلك أخذ يشرح أخبار بني نجاح « وهم وإن كانوا حبشة فلم تكن ملوك العرب تفوقهم في الحسب إلا بالنسب ، وإلا فإنهم أهل الكرم الباهر ، والعز الظاهر ، والجمع بين الوقائع المشهورة ، والصنائع المذكورة » (١) .

أولهم : أنيس الفاتكى : وقد استبد بالامر . فقتله الملك منصور ابن فاتك .

الثانى من الله الفاتكى : واشتهر بعلاقاته الغرامية ، ولقى حتفه بسبب ذلك .

الثالث : زريق الفاتكى : استقال . وهو صاحب مسألة الميراث التى حلها عمارة ، وفصلناها سابقاً .

الرابع مفلح الفاتكى : بعد كلام مطول على مفلح هذا ومع الاستطراد كالعادة ينتقل إلى غيره حتى القائد سرور الفاتكى كبير رجال المملكة الحرة أم فاتك . وبعد قتل سرور سنة ٥٥١ هـ وقعت البلاد في قبضة علي بن مهدي الخارجى سنة ٥٥٤ هـ . وعمارة فى كلامه على هؤلاء الوزراء يذكر صفاتهم الحسنة والقيحة ، مروية عن غيره ، أو بمشاهدته (٢) .

بعد الانتهاء من بنى نجاح انتقل إلى « خروج علي بن مهدي باليمن » .

وقد ذكر في هذا الفصل نسبه ، وميلاده ، وتربيته ، وصفاته . وقد اتصل به صاحبنا في صغره كما اتصل به في كبره ، في مجلس الدعاة . إلى أن ينتهى الأمر باستيلاء الخارجي على زيد ، وعلى اليمين كله .

ثم يتوسع عمارة في تفصيل مذهب ابن مهدى ، وكيف يكفر بالمعاصي ، ويقتل بها ، واعتقاد أصحابه فيه فوق ما يعتقد الناس في الأنبياء . ومات سنة ٥٥٤ هـ . وتول بعده ولده المهدي ، ثم ولداه : عبد النبي ، فعبد الله ، ثم عودة الأمر إلى عبد النبي .

ثم ينتهى الكتاب بفصل صغير : « فيمن ولي الدعوة الفاطمية باليمن »^(١) ، يعدد فيه أسماء الدعاة ، ويبين من جمع منهم بين الدعوة والملك ، ومن اقتصر على الدعوة فقط . ويمتاز هذا الفصل برسالة من الخليفة الأمر الفاطمي إلى الملكة الحرة بشأن ولادة ابنه أبي القاسم ، وطلب إذاعة هذا الخبر السار بين رعاياه في اليمن . وتقع الرسالة في صفحتين . ثم يختم الكتاب بقوله : « قد أتينا في هذا المختصر على جمل من أخبار الملوك في جزيرة اليمن والدعاة . تم التاريخ المبارك ، والحمد لله الذي تم بنعمته الصالحات » .

وقد عالج عمارة هذه الموضوعات بأسلوب سهل على العموم ، وأن اتسم بالكرازة في بعض الأحيان . وهو خال من المحسنات البديعية التي لاحظناها في نثره الفنى ؛ لأن الغرض منه كان سرد الحوادث ، وتحقيق الوقائع .

منحاه في التأليف :

١ — ظهور شخصية المؤلف أحياناً ، واحتجابها أحياناً أخرى ؛ ففى تظهر حين يؤرخ للأحداث التي مثلت في أيامه ، وتحت بصره . فنراه يصف مارأى ، ويناقش النتائج ، ويربطها بأسبابها ومقدماتها ، ويتوسع

في ذلك يذكر علاقته الشخصية بالحكام والوزراء ، وبين رأيه في سياستهم وأخلافهم ، والحكم لهم أو عليهم . ومن الطريف أن عمارة كان لا يفوته أن يسجل مشاهداته عن الأحداث السابقة لعصره ، إذا بقيت منها آثار مادية . يقول في معركة حصلت بين الداعي على بن محمد الصليحي ، وبين الأحباش في الزرايب سنة ٤٦٠ هـ : « وأدركت العظام والأظفار في موضع الواقعة تنفسها الرياح إذا اشتدت »^(١) . وقد قتل الحبشه الداعي عليا الصليحي ، وأحد أتباعه ، ونقلوا رأسيهما إلى زيد ، فبنى ابنه المكرم مشهداً على هذين الرأسين . ويقول عمارة : « وأنا أدركت مشهد الرأسين »^(٢) .

وكان عمارة يتحرى الدقة فيما يكتب فلا يلتقي الكلام على عواهنه ، ولا يتساهل في مسألة ولو كانت بسيطة ، وإذا جهل أمراً صرح بذلك . يقول في أحد أمراء بني زياد : « ثم انتقل الأمر بعد ذلك إلى طفل من آل زياد ، لا أعرف اسمه ، وأظنه عبد الله »^(٣) . فهذه الدقة في الملاحظة والرغبة الشديدة في تحرى الأخبار الصحيحة مما يسجل بالثناء لهذا المؤرخ .

وأحياناً كانت تحتجب هذه الشخصية ، وذلك حينما يعتمد على النقل والرواية ، لتصوير الأحداث التي سبقت عصره . ففي هذه الحالة نراه يعنى العناية كلها بالإسناد والتقصي ، فيروى عن يتوسم الضبط في أخبارهم ، وينقل عما صح عنده من الكتب . يقول : « حدثني الشيخ الفقيه ميزار بن عبد الملك المسكي ، والفقيه أحمد بن محمد الأشعري ، وما منهما إلا عارف بأيام الناس وأنسابهم وأشعارهم . وقرأت في كتاب المفيد في أخبار زيد ، تأليف الملك المسكين ، أبي الطامى جياش . . قالوا^(٤) » .

(٢) ص ٢٦

(١) ص ٢١

(٤) ص ١

(٣) ص ١٠

وتظهر عنايته بالإسناد الذى يذكرنا بعناية إسناد المحدثين، من مثل قوله :
« ومن أخبار الداعى على بن محمد الصليحي ما حدثني به أحمد بن حسين الأموى
المعروف بابى السبخة عن أبيه ، عن جده قال : كنت أسكن فى مدينة ^(١) ... ،
فشخصيته ليست بارزة هنا ، لأنه حصر نفسه فى دائرة النقل والرواية حين بعدت
عنه الحوادث التاريخية التى يؤرخها ، ولم يبق له فضل إلا الجمع والترتيب .

٢ — إن هذا الكتاب سجل عام لتراجم الكبار من أهل اليمن :
الدعاة ، والوزراء ، والأدباء ، والفقهاء ، وتفصيل لحياة الأسر التى ملكت
هذا الإقليم ، من سنية وشيعية ، مع غلبة النزعة الشيعية عليه فيما يعرض
من أحداث ، حتى أنه فرع عن أخبار الداعى على بن محمد الصليحي جل
أخبار اليمن . ولهذا نلاحظ اهتماماً بأخبار الدعاة وأتباعهم ، والدويلات
الشيعية ، وكيف قامت ، وعوامل قوتها أو اضمحلالها وما إلى ذلك . وهو
فى كل هذا يعنى بالنواحي السياسية التى تنظم الحروب بين دويلات اليمن
المختلفة ، والمنازعات الدينية بين أهل الشيعة أتباع القاهرة ، وأهل السنة
أتباع بغداد ، والخوارج من أتباع ابن مهدى . ولا ينسى وصف النواحي
الاجتماعية والأدبية ، بجانب السياسية ؛ فنراه يصور الفوضى فى أواخر
أيام بنى نجاح ، تلك التى مهدت لابن مهدى الخارجى سبيل الظهور ، ثم
ما كان من نشر مذهبه المخرب بين الناس . وبين هذا وذاك نجد عمارة يأتى
بقليل من الشعر ، وأخبار الشعراء على سبيل الاستشهاد أو الاستطراد .

٣ — الاستطراد ملحوظ فى هذا الكتاب . فنراه يتحدث فى أمر ما ،
ولمناسبة طارئة يترك هذا الذى يتحدث فيه إلى تلك المناسبة ، ويدخل فى
تفصيلها ، ثم يعود إلى موضوعه الأول . وعلى سبيل المثال نجده حين كان

يتحدث عن بلدة الزرائب ، وكانت مسرحاً لمعركة حربية بين الشيعة والسنيين ، وكان بصدد تأريخ المعركة ، لم يشأ أن يستمر في طريقة . بل عرج على هذه البلدة ، وذكر أنها موطنه ، وبها أهله . وجعل يصف جغرافيتها ، وبقاء أهلها على اللغة الفصيحة ، وكيف تأثر هو بذلك فلم يلحن حينما تركها إلى زيد ... ثم يقول : « ونعود إلى ذكر الداعي على بن محمد الصليحي ، . وكذلك الحال في انتقاله من موضوعه العام إلى التحدث عن نفسه عندما كان متصلاً بدعاة عدن . وفي حديثه عن وزراء بني فاتك تعرض لمسألة الميراث التي حلها ابن زريق الفاتكي . ومن الملاحظ أنها استطرادات محبة عند صاحبنا ؛ لأنها تتعلق بالحديث عن نفسه ، وما كان أشباه عنده .

٤ — عنى عمارة في الفصل الأول من تاريخه بالناحية الجغرافية لبعض جهات هذا الإقليم ؛ فهو يتوسع في وصف السهول ، والجبال ، والحصون ، وطرقانها ، وقياس أبعادها ، وأحوال الجو والزراعة وأنواع المحاصيل ، إلى غير ذلك . معتمداً على ملاحظاته الشخصية ، وأسفاره العديدة بين أقاليم اليمن المختلفة . كما يذكر ما رأى من المساجد ، والعيون ، والآثار القديمة . يقول في وصف جبل شبام : « وهو منيع جداً ، وفيه قرى ومزارع وجامع كبير »^(١) . كما عنى بذكر بعض المدن اليمنية ، وزمن تأسيسها ، وماضيها وحاضرها ، وأشهر حوادثها . يقول في عدن لاعة : « ... قرية لطيفة ، يقال لها عدن لاعة ، وليست عدن أبين الساحلية ، وأنا دخلت هذه عدن لاعة . وهي أول موضع ظهرت فيه الدعوة العلوية باليمن ، ومنها قام منصور اليمن . ومنها محمد بن الفضل الداعي . ومن وصل إليها من دعاة الدولة أبو عبد الله الشيعي صاحب الدعوة العلوية بالمغرب .

وفىها قرأ على بن محمد الصليحي فى صباه . وهى دار دعوة باليمن ،^(١) .
وأمثال هذه المباحث تذكرنا بكتب الخطط التى يعنى فيها بالنواحي،
التاريخية إلى جانب النواحي الجغرافية .

قيمة الكتاب العلمية :

ومهما يكن من شىء، فيعتبر هذا الكتاب من المراجع الأولى فى تاريخ
اليمن الإسلامى ، وصاحبه فى مقدمة المؤرخين لوطنه . وتنظم أحداثه
التاريخية نحو ثلاثة قرون ، أى بعد أن تقلص حكم العباسيين السيامى ،
وانتقل إلى أمراء لا تربطهم ببغداد أو القاهرة إلا الخطبة الدينية .

وأغلب الكتاب والباحثين فى تاريخ اليمن الإسلامى قد اعتمدوا على
هذا الكتاب كثيراً ، بل إنهم صرحوا بأنهم مدينون لعمارة بمعلوماتهم عن
هذا الإقليم :

فعماد الدين الأصفهاني فى كتابه (خريدة القصر) اعتمد إلى حد
كبير فيما صنف عن أعلام الأدب اليمنى على ما كتب عمارة وخصوصاً
هذا الكتاب ، وقد أشار إلى ذلك فى مواضع كثيرة من مؤلفه^(٢) .

والهائم الجندى فى كتاب (السلوك) يذكر أنه أخذ أخبار المتقدمين من
عدة كتب . جعل منها كتاب عمارة هذا . والواقع أنه ينقل عنه كثيراً^(٣) .

وشهد ابن خلدون بزعامة عمارة لمؤرخى اليمن ، فقال عن طفل من
بنى زياد تولى الإمارة : « قال ابن سعيد : لم يعرف عمارة اسمه ، لتوالى
الحجبة عليه ، ويعنى عمارة مؤرخ اليمن ،^(٤) »

(١) ص ٥٠ .

(٢) الحريدة - قسم شعراء اليمن - الاوحة ٢٧٦ . وما بعدها

(٣) السلوك فى طبقات العلماء والملوك . المجلد الأول - ص ١٥٢

(٤) تاريخ ابن خلدون ، ضمن نبذة منه ، فى ص ١٠٦ من كتاب تاريخ اليمن

والحقيقة أن الذين كتبوا عن تاريخ هذه الحقبة من الزمان لم يكتبوا شيئاً أكثر مما كتب عمارة ، وأحياناً كانوا ينقلون ألفاظه بنصها ،^(١) .

النكت العصرية في أخبار الوزراء المصرية^(٢)

ليس بين أيدينا من النصوص ما يعتمد عليه في تحديد الزمن الذى ألف فيه هذا الكتاب . ولكن الذى لا شك فيه أنه ألف بعد أن استبد الأيوبيون بأمر مصر ؛ يدلنا على ذلك أن عمارة استمر يسرد أخبار الوزراء الفاطميين حتى قتل شاور . ومن المعروف أن الأيوبيين خلفوه فى الوزارة ، ولم يلبثوا إلا قليلاً حتى قضوا على الدولة الشيعية الفاطمية ، وأحلوا محلها دولتهم السنية . ثم إن عمارة لم يقصد من تأليف هذا الكتاب شيئاً مخصوصاً ولا فناً منصوحاً ، بل ذكرت فيه نبذة من الأخبار ، مختلفة المقاصد ، متباينة المراسد ، ولم أورد فيه إلا ما أملاه الخاطر ، أو رواه من أقيمه فى الصدق مقام الناظر ... وأشرت فيه إلى النكت العصرية فى أخبار الوزراء المصرية ،^(٣) .

موضوعات الكتاب

ويمكن تلخيص موضوعات هذا الكتاب فيما يلى :

١ - بعد افتتاح قيم أشار فيه إلى الغرض الذى حدا به إلى تأليف هذا الكتاب استطراد فقال : « والحديث كما قيل شجون ، والجد قد يخلط بالجدون ، وعسى أن يقول من وقع فى يده هذا المجموع : خبرتنا عن غيرك

(١) من مقدمة H. C. Kay الانجليزية لكتاب تاريخ اليمن .

(٢) ذهب الجندى إلى أن اسمه ، النكت المصرية فى أخبار الديار المصرية .

(٣) النكت من ٦ ، ٥ .

فمن تكون ؟ (١) وعقب على ذلك بذكر نسبه ، ووطنه ، ومولده ، ومرباه ، وأسرته وسيادتها ، والنغنى بمفاخرها . ثم انتقل إلى ذكر ما أصاب وطنه من جذب ، وكيف ترك مسقط رأسه ، واتجه إلى زبيد في طلب العلم ، وظهوره بعد ذلك في مظهر الأستاذ ، ثم اتصاله بالملكة الحرة أم فاتك ، وما كان لذلك من أثر في تطور حياته ، حيث كلفته بالانتقال إلى عدن ، بقصد القيام بأعمال تجارية تتناول تبادل السلع بين البلدين . وكان من نتيجة ذلك أن اتصل بدعاة الشيعة في عدن ، فبدأت الوشايات تحاك حوله في زبيد ، فلم يطب له المقام في اليمن كله فتركه إلى الحجاز ومنه إلى مصر . ثم بين كيف اتصل في مصر بالخليفة الفائز ووزيره الملك الصالح ، وذكر بعض ما قال فيهما من أشعار ، ومدى اتصاله بزعماء البلاد ، وما كان له عندهم من مقام ممتاز ، إلى أن غادر مصر إلى الحجاز فاليمن . ومن ثم عاد إلى مصر مرة أخرى وأقام بها .

٢ — بعد ذلك بدأ يشرح أخبار الوزراء الفاطميين واحدا في إثر واحد ، ناسبا لكل منهم ما عرف عنه من صفات ، وما لمسه فيه من نواحي الخير أو الشر ، وأشهر الحوادث الداخلية والخارجية التي حدثت في أيامه ، وعلاقته الشخصية بالمؤلف ، وما آل إليه أمر كل وزير . وعمارة في كل هذا يقدم بعض قطع من شعره للتدليل على ما يقول . وهام الوزراء الذين تحدث عنهم بترتيب ذكرهم في الكتاب : الملك الصالح طلائع بن رزيك ، وزير الفائز والعاضد . الملك العادل بن طلائع وزير العاضد . أمير الجيوش شاور في وزارته الأولى ، الملك المنصور ضرغام . شاور في وزارته الثانية .

٣ — بعد أن انتهى من أخبار الوزراء السابقين رأى أن يذكر نبذا

صغيرة عن أقارب الوزراء وأكابر الأمراء الذين عاشهم ، وخبر أحوالهم ، وكانت بينه وبينهم صلات وثيقة ، وحوادث طريفة تعرض لبعضها في هذا المجموع . وهو هنا أيضا يستشهد فيما يعرض من أحوالهم ببعض مقطوعات من شعره . ويبلغ عدد هؤلاء العظماء حوالى خمسة عشر .

منحاه فى التأليف :

١ - أول شيء نلاحظه أن المؤلف لا ينفى نفسه فى كل ما يكتب . فهو يترجم لنفسه : طفلا ، وشابا ، حين كان بالجزيرة العربية ، فإذا استوطن مصر يصور لنا حياته ومدى تأثرها بما يجرى حولها من تيارات فكرية ، وزعات سياسية ودينية ، واضطرابات داخلية وخارجية ، غمرت الديار المصرية فى هذا الحين . وكأنه وهو يسرد أخبار الوزراء الفاطميين وأعيان دولتهم يجعل شخصه محورا تدور حوله الأحداث العامة التى عالجها هؤلاء الكبراء ، والتى كان له فيها نصيب . وقد تكون الحوادث بعيدة عن مجال صاحبنا ، وليس من شأنه أن يشارك أهل الحكم فى معالجتها ، فراه فى هذه الحالة لا يتعرض لها ، وأن حصل ذلك فيكتفى بالنميح والإشارة دون التفصيل والاستفاضة . فأخص ما يميز به هذا الكتاب أنه ترجمة لحياة مؤلفه ، واستعراض عام لما حصل له من حوادث مارسها ، وأخبار شارك فيها ، مع أعيان الفاطميين ، من بدء دخوله مصر سنة ٥٥٠هـ حتى قضى على الدولة سنة ٥٦٧هـ . وما تجدر الإشارة إليه أن أسلوب الكتاب كله بصيغة المتكلم .

٢ - وقد ظهرت شخصية المؤلف في كثير من مباحث الكتاب ، فلم يعتمد على الرواية إلا قليلا . وذلك حين يتصدى للحوادث البعيدة عن زمنه ، أو للأمور التي عاصرها ولكن الظروف لم تمكنه من مباشرتها بنفسه ، فكان يلجأ في هذه الأحوال إلى الرواية والنقل ، مع تحرى الدقة فيما يروى وما ينقل ؛ فأخبار أسرته بتهامة اليم ، ومولده ، وطفولته ، وكذلك الحوادث المصرية التي كانت تجري وراء الستار في أواخر الدولة الفاطمية ، والتي كان أبطالها من الوزراء والعظماء ، كل ذلك كان يلجأ صاحبنا في تصويره إلى ما ينقله عن أهل الخبرة والصدق ، مثال ذلك : « وأخبرني خالي محمد بن الميثيب . قال : أجذب الناس في بعض السنوات ^(١) » . ويقول أيضا : « حدثني القاضي الأجل الفاضل عبد الرحيم بن علي البيساني ، قال : أنا أذكر وقد خلونا في خيمة ^(٢) ... » ، فلم يكن المؤلف في مثل هذه الأخبار إلا الجمع والترتيب . أما القسم الأكبر من الكتاب فاعتمد فيه على نفسه ، فظهرت شخصيته ، وتراءت لنا في ثنايا المعاني والأخبار . وذلك لأنه يتحدث عن مشاهدات رآها بعينه ، واشترك في تمثيلها ، وعرف القائمين بها . فسهل عليه تصويرها ، ومناقشة أسبابها ونتائجها .

٣ - وقد أتحفنا عمارة بنظرات نقدية حول بعض الوزراء والعظماء الذين تعرض لهم : وهو نقد له قيمته من رجل عاش نابه الذكر بين شعراء البلاط الفاطمي ؛ وله مع عظماء الدولة صلات وثيقة . ويلوح لي أن حكمه على هؤلاء الرجال بعيد عن الهوى إلى حد غير قليل . فهذا طلائع بن رزيك ، وقد كان الصديق الأول لعامة بين رجال الدولة ، ويقول فيه : « وكانت أحواله طورا له ونارة عليه ، فها هو عليه فرط العصية في المذهب ... ومنها

جمع المال واحتجابه . . . ومنها الميل على جانب الجند وإضعافهم ،^(١) . بعد هذا ينقد نواحيه الطيبة .

ومن نقده المتزن أنه وضع الأسر الثلاث التي تولت الوزارة في أواخر الدولة الفاطمية في ميزان النقد ، وأخذ يقارن بينها ليرى الحكم لها أو عليها ، فانتهى به نظره الشامل ، وتفكيره الدقيق إلى هذا الحكم السديد : « ولم يرب أحد رجال الدولة مثل ما رباهم الصالح ، ولا أفنى أعيانهم مثل ضرغام ، ولا أتلّف أمواهم مثل آل شاور . وشاور هو الذى أطعم الأفرنج والغزى الدولة حتى انتقلت عن أهلها ،^(٢) . هذه النظرات النقدية نجدها منبثة في ثنايا الكتاب ، وقد تناول فيها النواحي الحسنة ، والنواحي السيئة ، وهى تلقى ضوءا على سلوك بعض الشخصيات التى كان يتألف منها كبار المجتمع المصرى فى ذلك الحين .

٤ — ولعل الناحية الأدبية تعتبر من أظهر النواحي فى هذا الكتاب ؛ فأينما يقلب الإنسان بهصره فى صفحاته يجد قصائد ، أو مقطوعات من شعر المؤلف . وهذه الأشعار تنمى للأخبار التى ينسبها لسلوك من يتحدث عنه ، من الوزراء والعظماء . ولهذا نجده يمد لها بالظروف التى كانت باعثة على نظمها ، والأشخاص الذين قيلت فيهم ، وتاريخها . وأحيانا يذكر مقطوعات صغيرة لغيره ، لمناسبات اقتضت ذكرها ، ولكنها قليلة .

والكتاب بهذا الوضع يشرح لنا مدى خطر الشعراء لدى زعماء الدولة ، وبمبلغ الاعتماد عليهم فى نشر عقائدها ومفاخرها .

٥ — يعتبر كتاب النسك من خير المراجع التى تصدرت للمجتمع المصرى فى أواخر العصر الفاطمى بالعرض والتوضيح ، وبخاصة مجتمع الطبقة العالية من الوزراء والكبراء . فقد عنى مؤلفه عناية فائقة بتصوير

هذا المجتمع ، وتسجيل مظاهره ، وتاريخ أحداثه ، وتحليل رجاله ، وعرض أعمالهم ، وتفسير سلوكهم : في مآثرهم ومبازلهم ، وبجاسمهم ومآدبهم ، ومدى اتصالهم بالتيارات الفكرية ، والموااسرات الظاهرة والخفية ، وما أحاط بمصر والمصريين في تلك الحقبة من الزمان . . . كل هذه الأحداث سجلها عمارة في كتابه هذا ، حتى لا يعنى النسيان آثارها ، ويطمس الإهمال أنوارها ، على حد تعبيره في مقدمة هذا الكتاب .

وأكبر الظن أن أحاديثه عن تلك المجتمعات ، وعلى ذلك المستوى ، دقيقة ومعبرة ، مما يجعلنا نطمئن إلى حكمه ، وصدق تقديره ؛ لأنه كان وثيق الصلة بكبار القوم ، وكاد أن يكون طرفاً في كل ما كان يدور في مجتمعاتهم ، بعد أن حظى لديهم ، وتأكدت صحبته معهم .

٦ - وأسلوب هذا الكتاب عبر عنه كاتبه بحق حين قال في مقدمته : « . . . وتجنبنا سجع المتكلفين ، وفارقت ذلة المتخلفين ، وأطلقت أعنة الكلام ، وساحت أسنة الأقلام . فلا في سهل الهزالة أنا حاطب ، ولا في حزن الجزالة أنا خاطب ^(١) . »

فهو أسلوب - على الجملة - سهل ، سمح ، مع الدقة في اختيار الألفاظ ، والعناية بتأليفها وتركيبها ، والبعد عن الكمد وراء الكلمات الغريبة ، والتعقيد الأسلوبى المتكلف . وهكذا تجنب عمارة اصطناع أسلوب العصر ، الممثل في الزخارف البديعية المتوالية ، والصور البيانية المتركة ، تلك التي كانت ديدن الأدباء في ذلك الزمن ، كل هذا تجافاه عمارة أو كاد ، اللهم إلا ما جاء عفواً ، ولم يحتج في جلبه إلى كد وتكلف ومطاوله ، فجاء جميلاً رائعاً . مثل قوله في الحديث عن بدر بن رزيك ، أخى الملك الصالح :

« اختصنى بأنسه ، واصطفانى لنفسه ، واستغنى بى عن ألفه ، وسلا بى
عن عرفه . وساهمنى فى جميع أسرارہ ، وغوامض أخبارہ . وكانت حاشيته
تلوذ بى فيما يرجونه ويخشونه منه . ووجدته سليم الصدر ، من كدر
الغدر . » (١) .

فالأنواع البديعية فى هذا النص جاءت طبيعية ، لم تنل من الأسلوب ،
ولا من المعنى . بل لعلها زادتهما رواء وبهجة .

وفى كتاب النكت ظواهر أسلوبية أخرى نستطيع أن نلاحظها :
تكرر فى فصل ، وتقل فى فصل ، وتندر فى فصل . وهى مع كثرتها ، وقلتها ،
وندرتها يؤتى بها بحسب المقام . مثل الاستشهاد بالقرآن الكريم ، وسوق
الحكم ، وضرب الأمثال فى ثنايا الكلام ، والاستطراد من الموضوع الأصلى
إلى موضوعات جانبية ، ثم العودة بعد ذلك إلى الموضوع الأصلى .

وقد نحس بشغرات بين ما يروى من أحداث تكاد تقطع السياق ، وتجعل
القارى يشعر بما يشبه الفجوات . وربما كان السبب فى هذا أن المؤلف
لم يقصد بكتابه - كما قال - شيئاً مخصوصاً ، ولا فناً مخصوصاً ، بل ذكر فيه
نبذاً من الأخبار مختلفة المقاصد ، متباينة المراسد ، ثم ضم بعضها إلى
بعض فتكون من مزاجها هذا الكتاب .

ومهما يكن من شئ . فنحن لانستطيع أن نعتبر كتاب النكت سيرة
نفسية متكاملة ، أو ترجمة شخصية محررة ، لأنها أغفلت جوانب هامة من حياة
مؤلفها : كأخباره الخاصة ، وحياته العائلية ، وعلاقاته بغير الطبقات العليا
من الناس . كل هذا مسكوت عنه فى هذا الكتاب . وفى الحق إن عمارة
قد أحاط بجوانب نفسه حين كان باليمن ، فلما استقر بمصر سلط الضوء على
صورة حياته داخل إطار لا يخرج عن دائرة الطبقة العليا من المجتمع المصرى .

تذيل

وصف بمجل لأثاره الباقية

(١) الديوان

لعمارة ديوان ضخمة ، ومنه نسخ مخطوطة ، ومختارات مطبوعة .

(١) النسخ المخطوطة :

١ - نسخة دار الكتب المصرية :

جمعها أحد الأدباء ، ورتب قصائدها باعتبار القافية على حسب الحروف الهجائية . وبها خرم من أثناء حرف الراء إلى أثناء حرف النون . ونجد في آخر النسخة ابتداء من حرف النون تسع ورقات بخط غير خط القسم الأول . وهذه النسخة مكتوبة بخط نسخ جميل . إذا استثنينا الورقات التسع في آخرها ، فإن خطها أقل جودة من السابق . أما الجامع المجهول لهذه القصائد فقد ذكر في مقدمة كثير من القصائد معلومات قصيرة عن موضوعها ، وعن الشخص الموجهة إليه القصيدة ، وأحياناً عن تاريخها . وهذه المعلومات القيمة ظاهرة بوضوح في تلك النسخة ، بفضل المداد الأحمر الذي يفصل بينها وبين الأصل المكتوب بالمداد الأسود والمرتب بحسب الشطرات الشعرية ترتيباً دقيقاً .

ومقاس هذه النسخة $٢٦ \frac{1}{4}$ سنتيمترا في الطول ، $١٧ \frac{1}{4}$ سنتيمترا في العرض . وتحتوى على ١١٧ ورقة . وفي كل صفحة ١٥ سطرا مع استثناء الورقات التسع الأخيرة فإن كل صفحة بها ٢١ سطراً .

وعنوان هذه النسخة : ديوان الفقيه الأديب أبي محمد عمارة بن أبي

الحسين^(١) على بن زيدان الحكيم ثم النبي عفا الله عنه ورحمه آمين ،
والحمد لله وحده .

وقد ورد في الورقة ١١٦ من هذه النسخة بيان هذا نصه : « هذا آخر
ما وجد من شعر الشيخ الفقيه الأديب أبي محمد عمارة بن أبي الحسن الحكيم
ثم التيمي^(٢) عفا الله عنه آمين . » وبعد هذا البيان نجده يقول : « وقال
يمدح فارس المسلمين . » ثم يذكر قصيدتين ، يليهما بيان آخر ونصه : « تم
الديوان المبارك بحمد الله وعونه ، وحسن توفيقه . »

ورقها في دار الكتب ٥٣٠٣ أدب .

٢ - النسخ الأوروبية :

أمدنا هـ . ويرينبورج (H. Derenbourg) في المقالة الفرنسية القيمة
التي قدم بها لكتاب النكت العصرية وديوان عمارة بمعلومات هامة عن
ثلاث نسخ من ديوان عمارة ، رأها وبقيت تحت تصرفه مدة من الزمن وهي :

(١) نسخة المتحف الآسيوي بسان بطرسبورج.^(٣) وقد رمز إليها
بالحرف D.

(٢) نسخة المكتبة الملكية بكوننهاجن . ورمز إليها بالحرف E.

(٣) نسخة (جوتة) « Gotha » . ورمز إليها بالحرف B.

وإليك وصفاً موجزاً لكل نسخة منها :

١ - نسخة المتحف الآسيوي :

ومقاسها ٢١ سنتمتراً في الطول ،

(٢) لعلها النبي

(١) لعلها الحسن

(٣) لينتجrad الحالية في الاتحاد السوفيتي .

١٥ سنتيمترا في العرض. وتحتوى على ١٩٦ ورقة. وفي كل ورقة ١٩ سطرا. وعنوانها: «ديوان العلامة الأديب الأوحى، الناظم، الناثر، الفقيه عماره اليمنى رحمه الله تعالى».

وهى مرتبة بحسب الحروف الهجائية، وخطها واضح، بحبر أسود، وعناوين القصائد والترقيم بحبر أحمر. وجامعها يذكر معلومات قصيرة عن كثير من القصائد، وعن الشخص الموجهة إليه كل قصيدة، وأحيانا عن تاريخها. وورد فى الورقة ١٩٤ منها بيان جاء فيه: «هذا آخر ما وجد من شعر الشيخ الفقيه الأديب أبى محمد عماره بن أبى الحسن الحكيم، ثم اليمنى عفا الله عنه». - وورد بعد ذلك البيان قصيدتان. يليهما بيان آخر هو: تم جمع الديوان بحمد الله وعونه، وصلواته على خير خلقه، محمد وآله وصحبه، وسلامه، على يد العبد الفقير إلى الله تعالى الفائز من به يكتفى، أحمد بن أبى بكر بن أحمد المالكي السنفى، عفا الله عنه، وغفر له ولوالديه ولما نخبه، ولجميع المسلمين آمين. وكان الفراغ يوم الأحد ٩ شوال سنة ٩٨٤ هـ.

وهذه النسخة - فى نظر ديرينبورج - ليست خالية من الأغلاط، ولكنها فى مجموعها تعتبر كاملة، ولذلك اعتمد عليها فى نشر مختارات من الديوان، وتتبع خطواتها خطوة خطوة. وكثيراً ما كان يراجع ويصحح ماورد فيها بواسطة نسخة أخرى. ولو أننا قارنا هذه النسخة بنسخة دار الكتب المصرية لوجدنا الاتفاق يكاد يكون تاماً بينهما إلا فى شيئين وهما:

• الاختلاف فى عدد أسطر كل صفحة ومقاس الأوراق وعددها.

* البيان الأخير في كلتا النسختين مختلف لفظا ومعنى ، وعنواناهما متفقان معنى لالفاظا .

٢ - نسخة المكتبة الملكية بكونهاجن :

تمكن ديرينبورج من الاطلاع عليها بمساعدة أحد أصدقائه . وهي عبارة عن ٢١٥ ورقة ، تحتوى على ٢١٩ قصيدة ، وبكل صفحة ١٣ سطرا ، والورق أبيض رغم طبقة الزيت التى عليه ، وطول الورقة ١٨ سنتيمترا وعرضها ١٤ سنتيمترا ، وفى أكثر من ورقة يرى السطر الأول مقطوعا بغير انتظام ، نتيجة قص المجلد لها . ويظهر أنهم حاولوا إعادة العبارات التى قطعت من نسخة أخرى لا يعلم مصدرها ، ولا مقدار مطابقتها للحقيقة ، ومع ذلك فى صفحتى ٤١٠ ، ٤١١ نقص لم يستطع أحد أن يكمله . وهى تختلف عن سابقتها فى الأصل ، والترتيب . ولكن الذى لاشك فيه أنها معاصرة لوقت تأليفها . كما يشهد بذلك قارى لها يقول فى صفحة ٢١٥ : « طالعه الفقير إلى رحمته ، الخاضع لهيبته ، على بن نقش ، بئر الاسكندرية ، حرسها الله ، سلىح ربيع الأول سنة أربع وستمائة . » ويظهر أن تلك النسخة قد أعجبت عليا هذا فدون فيها ما تقدم .

٣ - نسخة جوثه Gotha :

لا تعتبر هذه النسخة خاصة بديوان عمارة كالنسختين السابقتين ، ولكنها تحوى :

- * كتاب النكت العصرية ، لعمارة .
- * قصائد من شعره .
- * رسائل من نثره .

مقامها ٢٠ ½ سنتيمترا فى الطول ، و١٤ سنتيمترا فى العرض ، وتحتوى على ١٤٩ ورقة ، وفى كل صفحة ١٥ سطرا . ويوجد فى هذه النسخة خرم

يقدر بنحو عشر ورقات فيما بين صفحتي ١١٠ و ١١١ ، وحوول إخفاء هذه الشفرة عبثاً . أما خطها فن عمل كاتب ماهر أكثر منه أمين . وجاء في مقدمة هذه النسخة : « بسم الله الرحمن الرحيم - رب يسر برحمتك - أخبرنا الشيخ الأجل الفاضل . البارع الأمين نبيه الدين أبو الطاهر اسماعيل بن عبد الرحمن بن أحمد الأنصارى الكاتب ، غفر الله له ، ورضى عنه ، في شوال سنة إحدى عشرة وستمائة بمصر . قال : قال القاضي الفقيه الأرشد أبو محمد عمارة بن أبي الحسن الحكيم ثم اليني . وسمعت ذلك منه في شهر ، وباقي السطر أبيض . ومعنى هذا أن أبا الطاهر المذكور روى مواد هذه النسخة عن عمارة . ثم جاء بالنسخة الخطية بعد تلك المقدمة اسم الكتاب وهو : « كتاب فيه النكت العصرية في أخبار الوزراء المصرية . تأليف القاضي الفقيه الأرشد أبي محمد عمارة بن أبي الحسن الحكيم ثم اليني ، رحمه الله ، وفيه قصائد من شعره ، ومقاطيع من ترسلاته أيضاً ، رضى الله عنه وعن جميع المسلمين » .

وبالفعل فإن النكت يتبعها قصائد ومقطوعات شعرية ، ثم رسائل مسجوعة ، وفي النهاية قصيدة في مدح العاضد وشارر في ٥١ بيتاً . مع العلم بأن كل ما هو وارد في هذه النسخة من الشعر موجود أيضاً في نسخة سان بطرسبرج ، يستثنى من ذلك خمس قطع .

ويلاحظ في هذه النسخة أنه لم يذكر شيء يدل على نهاية النكت ، وبداية الديوان ، اللهم إلا الانتقال من صيغة المتكلم إلى صيغة الغائب . مما يدل على أن الاستمرار قد قطع . أما تتابع القصائد فيها فلا يركز على قاعدة ؛ فلا هو بحسب النظام الهجائي ، ولا الترتيب التاريخي . ولذلك فإنها واردة في النسخة بدون ترتيب ولا تبويب ، كأنها أوراق متناثرة جمعت الواحدة إلى الأخرى ، دون نظر إلى ماسطر عليها . وهناك قصائد قليلة وردت في

هذه المخطوطة متجاوزة حتى لنسكاد نحس أن تقاربها بعضها إلى البعض كان مقصوداً . وقد جاء في نهاية هذه النسخة :

« وكان الفراغ من نسخه ليلة خميس العدس الثامن عشر من جمادى الأولى سنة تسع وخمسين وستمائة » .

هذه هي النسخ المخطوطة التي رأيتها ، أقرأت عنها . والظاهر أن هـ . ديرينبورج لم ير نسخة القاهرة ، ولم يعلم بها ، ولذلك لم يشير إليها .

ب — النسخة المطبوعة :

في أواخر القرن التاسع عشر ، نشر المستشرق الفرنسي هـ . ديرينبورج كتابه عن أسامة بن منقذ ، وأظهر في نهايته أمنية رجا أن تتحقق في سنة ١٨٩٨ . ثم بدأ يضع النقاط الأساسية لمؤلف خاص بعمارة اليمن . ورأى من النافع أن يصدر له مؤلفين لم يسبق نشرهما ، وهما : كتاب النسكت العصرية ، والديوان .

دأب الرجل على الجد والمثابرة حتى وفق في الحصول على النسخ الخطية لديوان عمارة ، وهي التي أشرنا إليها آنفاً ، واطلع عليها ، وأحاط بكل ما فيها ، ثم قدم لنا نتيجة جهده مطبوعاً في مجلدين :

١ — المجلد الأول : طبع في مدينة شالون بفرنسا سنة ١٨٩٧ م وسماه :

« عمارة اليمن . سيرته وآثاره » .

• — يشمل القسم الأول من هذا المجلد على كتاب النسكت العصرية ، وينتهي في آخر ص ١٥٤ ، وسنرجى الكلام عليه إلى الفصل الخاص بالتاريخ . ويشمل القسم الثاني مختارات من ديوان عمارة ، من ص ١٥٥ إلى ص ٣٩٤ ، (١٤ — اليمن)

وبالقسم الثالث من المجلد نبذة في خمس صفحات من خريدة القصر، لعماد الدين الكاتب، ثم مقدمة بالفرنسية لنفس الناشر في اثنتى عشرة صفحة .

* — اقتصر ديرينبورج في نشر الديوان على الشيء الكثير منه ، وأسقط منه القطع الحالية من أعلام الرجال أو البلدان . وأورد القطع التي شعر بروحها الشعري ، وتذوق ما فيها من جمال سحري . وذلك على الرغم من أن كثيرين لم يشاطروه هذا الرأي ، لعلبه أن مخالفتهم له ناجمة من عدم تفهمهم للعقلية الشرقية .

* — ونصوص الديوان التي ذكرها في هذا المجلد قد انبع فيها وفي ترتيبها وعناوينها الوارد بنسخة المتحف الآسيوى التي وصفناها آنفاً ، ولهذا نجد الديوان المطبوع مرتباً بحسب الحروف الأبجدية للقافية . وفي معظم القصائد نرى مقدمة لكل قصيدة تشير إلى موضوعها ، والشخص الموجهة له ، وأحياناً عن تاريخها . مثال ذلك قوله في صفحة ٣٤٢ : « وقال في شهر رمضان يمدح العاضد ، ووزيره الكامل ، سنة سبع وخمسين » .

خلعت عليك مواسم الأيام حلل الجلال وحلة الإعظام

وكذلك الكلام الذى ورد في نسخة المتحف الآسيوى ويفيد انتهاء الديوان ، ثم ذكر قصيدتين بعده ، ثم بيان ثان بالانتهاء ، كل ذلك نقله المستشرق بأمانة تامة .

* — وقد أمدنا ديرينبورج بمعلومات هامة بالفرنسية في هامش هذا المجلد ؛ فهو ينشر الأبيات التي تروقه من قصيدة ما ، ثم يشير في الهامش إلى عدد أبيات القصيدة الأصلية ، وإلى موقع الأبيات التي اختارها منها ، ورقم ورقتها في المخطوط . وإذا كانت القصيدة الأصلية لها أو لبعضها أصل آخر في نسخة أخرى من الديوان أو أى كتاب آخر ، أو كانت هناك كلمات

مختلفة في النسخ التي بين يديه أشار أيضاً إلى ذلك . مثل قوله في ص ٢٣١ :
 « وقال من قصيدة يصف طرخان حين صلب » . ثم يقول في الهامش : « هي
 ثلاثة أبيات في نسخة المتحف الآسيوي ، ورقة ١٥٦ ، وفي النسك ٤٧ ، وفي
 الخريدة ، ورقة ٢٥٨ ، وفي الروضتين ص ٢٢٠ جزء ١ . بل إنه - بالمحافظة على
 ترتيب الأصل الذي ينقل منه - كانت تعترضه بعض القصائد لا تعجبه كلها ،
 فينشر عنوانها فقط تبعاً لترتيبها مع غيرها في الديوان ، ثم يشير في الهامش
 إلى عدد أبياتها . مثال ذلك قوله في ص ١٨٠ : « وقال يمدح فارس المسلمين
 بدر بن رزيك أخا الملك الصالح ، وقد سرق فرسه الأصداً ، ثم عاد منفلاً من
 السراق » . ولكن الناشر لا يذكر شعراً بل يكتفي بقوله في الهامش :
 « أربعة أبيات في النسخة الآسيوية » .

هـ - - ويلاحظ أن كثيراً من الوارد في نسخة المتحف الآسيوي أمكن
 مراجعته وتصحيحه بواسطة نسخة جوته مع الإشارة إلى هذا التصحيح في
 الهوامش ، علماً بأن كل ما ورد في نسخة جوته وجد أيضاً في نسخة
 المتحف الآسيوي ، يستثنى من ذلك خمس قطع وردت فقط في نسخة جوته ،
 فجعلها الناشر ذيلاً للديوان في ثلاث صفحات ، من ص ٣٩٢ - ٣٩٤ . ولم
 يشأ أن يرجع كل قصيدة منها إلى القافية الخاصة بها داخل الديوان ليستمر
 في محافظته على النظام الذي وضعه لنفسه ، وهو نشر نسخة المتحف الآسيوي
 بترتيبها ونظامها .

هـ - - وإذا قارنا بين قصائد الديوان - كما نشر مختارات منها دير ينفورج
 نقلاً عن النسخة الآسيوية - وبين نسخة دار الكتب المصرية لوجدنا الاتفاق
 يكاد يكون تاماً في ترتيب القصائد ، وعدد أبياتها ، والإشارة إلى موضوعها ،
 وتاريخها ، ومن قبلت فيهم . وإيراد بيان يفيد انتهاء الديوان ، ثم قصيدتين
 بعده . ثم بيان ثانٍ بالانتهاء . كل هذا مع الاتفاق التام في الألفاظ . وما

يؤكد ذلك أن النسخة المصرية في قافية الرام جاء في أول قصيدة منها :

وقال يمدح ياسراً بالين :

سفر الزمان بواضح من بشره وافتت باسم ثغره من ثغره

وهي ١١ بيتاً . وبعد ذلك عنوان آخر هو : وقال من قصيدة يهني^١
بعيد الفطر :

أحيا معارف كل معروف بها ومحا معالم منكريه ونكره

وهي ٢١ بيتاً . ويظهر أن القصيدة الثانية تنتمي للقصيدة اليمنية قبلها ،
لأنهما من وزن واحد ، وقافية واحدة ، ولأن الثانية خالية من التصريع ،
الذي لم يشاهد تركه عند عمارة ، وأن الشخصية الفنية تتلاقى في القصيدتين .
مما يدل على أنهما قيلتا في وقت واحد ولشخص واحد ؛ وما نستأنس به
أن عنوان الثانية قد شطب بخط الناسخ ؛ أو بغيره لا أدري ، كل هذا
حملني على الظن بأن جامع النسخة أو كاتبها قد أخطأ فجعل القصيدة الواحدة
قصيدتين . والمهم بعد هذا أن هاتين القصيدتين وردتا في الديوان المطبوع
بعنوانيهما ، وعدد أبياتهما كما جاءتا في النسخة المصرية ، وهكذا اتفقت
النسختان في هذا الخطأ . وكل هذه الظواهر مجتمعة تحملني على القول بأن
إحدى النسختين قد نقلت من الأخرى ، ولو أن النسخة المصرية اشتملت
على تاريخ كتابتها لكان حكمنا في ذلك جازماً .

وقد وضع هـ . ديرينبورج أرقاماً متسلسلة للقصاصد فوصلت ، إلى ٣١٨
قصيدة ، وكان يكتب على رأس كل قصيدة وزنها .

٢ - المجلد الثاني : وعد ديرينبورج في نهاية مقدمته للمجلد الأول

بأن يصدر مجلداً ثانياً عن عمارة ، ينشر فيه رسائله النثرية ، نقلاً عن نسخة

مكتبة جوته . ثم ساعدته الظروف فوفق في الحصول على نسخة المكتبة الملكية بكونهاجن ، فوجد فيها قطعاً شعرية لعمارة لم ترد أصلاً في مخطوطيه السابقين . ويبدو أنه رأى أن ينشر المجلد الثانى عن عمارة بحيث يحتوى - إلى جانب رسائله النظرية - تلك القصائد التى لم ترد فى مخطوطى سان بطرسبرج وجوته ، وبالفعل طبع المجلد الثانى فى ديسمبر سنة ١٩٠٢ بـ مدينة شالون بفرنسا ، مشتملاً على ما يأتى :

١ - القطع الشعرية من ص ٤٠٥ إلى ص ٤٢٩ .

٢ - الرسائل النظرية من ص ٤٣١ إلى ص ٤٩٠ .

٣ - نبذة فى سيرة عمارة الينى ، وأحوال زمانه ومعاصريه ، نقلًا عن عدة كتب . وكذلك تصحيحات وتنبيهات عن الخطأ والصواب فى المجلدين ، وفهرست بأسماء الرجال والنساء والدول والكتب والبلدان والملل والأمم والقبائل التى ورد ذكرها فى المجلدين . ويشمل كل ذلك من ص ٤٩١ إلى ص ٥١٦ .

٤ - وفى نهاية المجلد نجد مقدمة بالفرنسية فى أربع عشرة صفحة . وقد سمي هذا المجلد : « تسكلمة ديوان شعر عمارة الينى ، وترسلاته ، ومنتخبات فى سيرته ، وفى أخبار زمانه ومعاصريه » .

وسنقصر بحثنا الآن على المقطوعات الشعرية فى هذا المجلد ، تاركين الكلام فيما عداها لموضعه .

القصائد فى المجلد الثانى :

• - عددها اثنتان وأربعون قطعة ، يغلب عليها القصر ، وقد سلكها الناشر فى سلسلة أرقام القصائد التى أوردتها فى المجلد الأول ، فبدأ بها من رقم ٣١٩ وانتهى إلى رقم ٣٦٠ .

ولم ينشر منها إلا الأبيات التي أعجبته ، وأشار في الهامش إلى عدد أبيات كل قصيدة في النسخة الخطية ، وموقع الأبيات التي اختارها منها ، ورقم ورقة القصيدة في المخطوط . ونلاحظ أن بعض هذه القصائد لها مقدمات قصيرة بها معلومات عن الموضوع ، وعن الشخص الموجهة إليه .

• — وتختلف قصائد هذا المجلد عن قصائد المجلد الأول في شيئين :

(١) إن تنابع القصائد لا يسير على قاعدة ، فلا هو بحسب النظام الأبجدي للقافية ، ولا الترتيب التاريخي . فنجد القطعة رقم ٣٢٦ ميمية ورقم ٣٢٧ يائية ، وكليهما في مدح بدر بن رزيك . والقطعة بعدهما رقم ٣٢٨ إلى الأمير مبارك بن منقذ . وكان كلفه الشفاعة له عند طوران شاه ، في تقرير راتب ، وهي عينية . ولا يرجع الذنب في هذا ، إلى ديرينبورج ، فإنه استعرض النسخة الخطية للبحث عن القصائد التي لا نظير لها في نسخته السابقتين ، فإذا وجد قصيدة من هذا الصنف نقلها ، ثم بحث عن أخرى ونشرها بجانب الأولى ، وهكذا حتى أتى على آخر الديوان . يدلنا على هذا أنه في القصيدة ٣١٩ أشار في الهامش إلى أنها تقع في الورقة رقم ٣١ من المخطوط . والقصيدة رقم ٣٢٠ في الورقة رقم ٤١ - ٤٢ . والقصيدة ٣٢١ في الورقة رقم ٤٥ - ٤٦ . وهكذا نجد آخر قصيدة وهي رقم ٣٦٠ يشير في الهامش إلى أنها في الورقة ٢١٥ من المخطوط . وقد علمنا فيما مضى أن هذا المخطوط يشمل ٢١٥ ورقة .

(٢) تمتاز قصائد هذا المجلد أيضاً بوجود ثلاث رسائل نثرية ، فيها اقتباسات من شعره ، وهي القطع رقم ٣٢٤ ، ٣٢٥ ، ٣٢٦ .

٢ — الرسائل

ليس من شك في أن عمارة ترك كثيرا من النثر الفنى ، يدلنا على ذلك أن ما وصل إلينا منه ورد في النص المخطوط بعنوان : « ومن ترسلاته » . ومن هنا تفيد التبويض .

١ — الرسائل المخطوطة :

ولكن ما بين أيدينا منه الآن تسع رسائل فقط ، وقد وردت في نهاية مخطوطة جوناثان Gotha . . ويصفها ديرينبورج Derenbourg في مقدمته للمجلد الأول عن عمارة الينى بأنها غامضة الخط ، ويصعب مطالعتها وتفسيرها . وبالرغم من هذا النقص في النسخة الوحيدة الموجودة ، فقد عزم عند إصداره للمجلد الثانى عن عمارة أن يحاول نشر هذه الرسائل . ولآخر لحظة كان يؤمل العثور على نسخة ثانية لهذه الرسائل ، ليقارنها بما وعته النسخة السابقة ، ولكن كانت مباحثه كلها بدون جدوى ، وكذلك مباحث أصدقائه عامة في الشرق والغرب . وهناك مسائل كثيرة لم تحل بعد ، خصوصا من أرسلت إليهم هذه الرسائل ، وإن كان عنده ما يحمله على الاعتقاد بأن ما تسلموه لا يختلف كثيرا عما هو بين أيدينا اليوم .

٢ — الرسائل المطبوعة :

ولكن هذا الفشل لم يئس ديرينبورج ، فسار في عمله ، معتمدا على مهارة وخبرة من تكرر ما بمساعدته من الأساتذة الأجلاء . أمثال جولدزير Goldseier « ومارجوليوت Margoliouth » . ثم نشر هذه الرسائل التسع ضمن المجلد الثانى من حياة عمارة الينى ، المطبوع بمدينة شالون بفرنسا سنة ١٩٠٢ . وقد استغرقت في هذا المجلد من ص ٤٣١ - ص ٤٩٠

تحت عنوان : « ومن ترسلات عمارة البني » - وقد أمدنا ديرينبورج ومساعدوه بمعلومات هامة بالفرنسية عن هذه الرسائل في هامش المجلد . ويظهر أنه كان يقرأ النص مع ما فيه من غموض الخط ، وصعوبة المطالعة ، فإذا استقام المعنى نشره ، وإذا لم يستقم تناوله ومساعدوه بالتحويل والتأويل حتى يستقيم ، وأشار في الهامش إلى النص المنقول عن المخطوط . فمثلا نجد في الرسالة الأولى ص ٤٣٩ وعين الحمال وإلا عقدت في صخرات عذاب بالظما ، عقب في الهامش على كلمة صخرات ، أنها في النسخة الخطية صحراء ، وربما تقرأ صحراء . وهكذا في معظم صفحات تلك الرسائل نجد تصحيحات من عمل هذا المستشرق .

ولم ينس أن يذكر في الهامش موقع الرسالة من المخطوط ، وأرقام الأوراق التي استغرقتها . وإذا وردت آية قرآنية أشار في الهامش إلى رقمها في السورة التي نقلت منها . وفي الاقتباسات الشعرية يكتب على رأسها بحر ها .

وبما تجدر الإشارة إليه أن كثيرا من الأخطاء التي صححها الناشر لاتعدى زيادة أو نقصا أو تغييرا في نقط بعض الكلمات وفي حروفها . أما الأخطاء التي استدعت زيادة كلمات أو حذفها فتعد في حكم القليلة .

٣ - تاريخ البني

توجد نسخة خطية واحدة من هذا الكتاب في مكتبة المتحف البريطاني بلندن ، وقد حصل عليها في سنة ١٨٨٦ م . وهذه النسخة تدل مظاهرها على أنها مخطوط حديث ، نسخ على ما يرجح هنري كاسلركاي H. C. Kay في أواخر القرن الثامن عشر أو أوائل القرن التاسع عشر . هذا المخطوط صغير الحجم ، يحتوي على ثلاثة أجزاء منفصلة .

الأول : تاريخ زبيد ، لديبع . ويحوى ٨٥ ورقة .

الثانى : تاريخ عمارة ، فى ٨٤ ورقة .

الثالث : مجموعة من الحوادث عن اليمن من سنة ١٢١٥هـ إلى سنة ١٢٥٨هـ ، وهو فى ٤٢ صفحة .

ومن المشاهد أن هذه المخطوطة خالية من اسم الناسخ ، وتاريخ النسخ ، وليس خطها من عمل كاتب ماهر . والأخطاء — سواء كانت عن إهمال أو غيره — متعددة .

اطلع هـ . كالى على تاريخ عمارة فى المخطوط السابق ، وبالرغم من سوء خطه فقد عزم على طبعه ونشره ، وتمكن من تصحيح ما فيه من أخطاء بواسطة مؤلفات من نقلوا عن عمارة من المؤرخين . واستطاع أن ينشر النص العربى ، وينشر معه أيضا مختصرا فى تاريخ اليمن ، نقله عن تاريخ ابن خلدون . ثم أخبار القرامطة باليمن ، نقلها عن السلوك ، للبهاء الجندى . ثم ترجمة كل ذلك ، مع مقدمة وملاحظات هامة باللغة الإنجليزية . وطبع هذا الكتاب ونشر فى مجلد واحد بلندن سنة ١٣٠٩ هـ — سنة ١٨٩٢ م .

هذا ما رأيته ، أو قرأت عنه من تاريخ عمارة .

٤ - النكت

لهذا الكتاب نسخ مخطوطة ، ونسخة مطبوعة . وسنصفها هنا بإيجاز .

النسخ المخطوطة :

لقد أمدنا ديرينبورج فى مقدمته الفرنسية لكتابته : « عمارة اليمنى ، بمعلومات قيمة عن ثلاثة مخطوطات من هذا الكتاب وهى :

١ - النسخة الأولى : ورمز إليها بالحرف A ، وهي نسخة باريس .

وقرر البارون دى سلان Baron de Selane أن التصحيح الموجود في هوامشها نسب زورا إلى عمارة البني ، وهو ليس له . ومع ذلك يقرر البارون أيضا أنه موقن أن الخط في هذا التصحيح يدل على أنه كتب بعد كتابة الأصل بزمان يسير . وليست هذه النسخة كاملة ، فقد وقف كاتبها بعد السطر الثالث من صفحة ١٠٩ من النسخة المطبوعة .

وبعد الورقة الأربعين من النسخة الخطية المذكورة دست الأوراق : من ٤١ - ٩٣ ، وهي لبديع الزمان الهمداني ، وهذا الدس كان بنية سيئة واضحة . ومقاسها ٢٢ سنتيمترا في الطول ، ١٥ سنتيمترا في العرض . وتحتوي الصفحة منها على ١٧ سطرا . وعنوانها : كتاب النكت العصرية في أخبار الوزراء المصرية . تأليف القاضي الأمين ، نجم الدين عمارة ، ضيف أمير المؤمنين ، عمارة بن أبي الحسن البني .

٢ - النسخة الثانية : ورمز إليها بالحرف B ، وهي نسخة جوتا Gotha ، وقد وصفناها في نسخ الديوان المخطوط .

٣ - النسخة الثالثة : ورمز إليها بالحرف C ، وهي نسخة اكسفورد . ومقاسها ٢٠٤ سنتيمترا في الطول . ١٢٤ سنتيمترا في العرض . وتتكون من سبعين ورقة ، وفي كل صفحة ١٥ سطرا . ولقد ورد في ختام هذه النسخة أن الفراغ منها كان في ربيع الأول سنة ٦١٧ هـ . ويرى الأستاذ مرجوليوث Margoliouth أن هذه النسخة كتبت في مصر . وقد ورد في عنوانها :

« مجموع النكت العصرية في أخبار الوزراء المصرية . تصنيف الفقيه عمارة بن أبي الحسن البني » . *

النسخة المطبوعة :

تمكن ديرنبورج - بعد أن اطلع على المخطوطات السابقة - من طبع كتاب النكت ، في مدينة شالون بفرنسا سنة ١٨٩٧ في مجلد ، ضمن المختار من ديوان عمارة . وقد استغرق كتاب النكت من بدء هذا المجلد حتى ص ١٥٤ .

وقد اعتمد ديرنبورج على المخطوطات السابقة معا في نشر الكتاب . فإذا اتفقت الالفاظ في النسخ الثلاث كان بها ، وإلا نشر واحدا منها في موضعه من الكلام ، وأشار في الهامش إلى وجه الخلاف في النسخ الثلاث . وأحيانا كان يراجع بعض الالفاظ بما جاء في نسخ الديوان ، أو في كتاب آخر غيرها ، كالخريدة ، أو الروضةين ، وأمثالها .

هذه هي النسخ التي رأيتها ، أو قرأت عنها من كتاب النكت .

خاتمة

بعد هذا التحويم السريع فوق شخصية عمارة ، نستطيع أن نلمح فيها الظواهر الآتية :

• تأثرت أنماط سلوكه ، ومجريات حياته بعصره العربي الخالص ، وعشيرته العريقة في الرياسة والسيادة . ويبدئه الجغرافية الأولى في تهامة اليمن . وتجواله - إبان الشباب - في أقاليم الجنوب العربي المختلفة . ثم بيئته الثانية في القطر المصري . وكذلك اختلاطه بأصحاب العقائد الدينية المتعارضة . وإلمامه بثقافة عصره ؛ عن طريق الاختلاط بالشخصيات اللامعة في مجتمعه ، وعن طريق الاستفادة من قراءة الكتب التي كان يقتنى منها الكثير كان لكل ذلك أثره في تصرفاته ، ومنطق أحواله ؛

فوجدناه يجمع بين الوفاء ، والحذر ، والشجاعة ، والخبرة بالناس والحياة .
ورأيناه يتصف بشخصية قوية تفرض نفسها على من حولها ، وتسهم في
الأحداث الجارية بطريقة إيجابية تكاد أن تكون ثورية . وهو في الوقت
نفسه يشارك عليا القوم أسرارهم ، وخواص أمورهم . وهم من جانبهم
يقربونه ؛ تعظيما لشأنه ، واعترافا بأدبه وفضله .

• عاش حياته كلها أرسطوقراطياً ، فجاء إنتاجه - في جملته - يدور حول
ذلك المستوى العالي . ولهذا لا تكاد نعث في آثاره الأدبية على موضوعات
تتصل بالطبقة الدنيا من الناس ، بل ولا حتى الطبقة الوسطى . وكان هذا
دأب قادة الفكر ، ورجال العلم والأدب في هذه العصور . وربما التسنا
بعض العذر لعمارة ، فأخرجناه من دائرة اللوم الشديد ؛ بسبب حياته
الأرسطوقراطية ، تلك التي عاشها غلاما ، وشابا ، وكهلا .

• نلح في بعض أشعاره ثورة على الأرسطوقراطية المادية ، والاستغلال
الطبقى ، وانفراد القلة بالنعيم والرخاء ، ووقوع الكثرة فريسة الفقر
والشقاء والضياع . ومن ثم أخذ يهدد المستغلين ، والمترفين ، من مثل
قوله :

كم شبعتم ونحن في الحى غرثى	هل أمتتم أن يبعث الغرثان ؟
وصدرتم ربّا ونحن عطاش	فلماذا لا يرشح العطشان ؟
ما بشاشاتنا رضا فأفيقوا	رب راض وقلبه غضبان .

فينبغي ألا يحمل ذلك على محمل الدعوة إلى الاشتراكية ، وخلق
مجتمع الكفاية والعدل ، ... كما نقول ونفعل في أيامنا هذه . وإنما هي ثورة
خاصة به هو في بعض الظروف ، حين كانت تضطرب أموره المالية ، ويتخلى
عنه من كانوا يغنونه ؛ فتركبه الديون ، ويدعو فلا يجيبه أحد . لم يكن عمارة

في الحقيقة أصيلاً في الدعوة إلى العدالة الاجتماعية ، ولا إلى الأخذ بيد الكادحين والمعوزين . ولو قد فعل ذلك ، وأخلص في الدعوة إليه لكان له شأن أى شأن ، ولا استحققت دعوته منا ومن غيرنا وقفات طويلة .

• في تصورى أن توضيح مذهبه الدينى ، وما انتهت إليه من أنه شيعى إسماعيلى ، وليس سنياً شافعيًا . فى تصورى أن هذا التصحيح من أهم نتائج هذا البحث ؛ ذلك أن الباحثين القدامى - فى جملتهم - أجمعوا على أنه سنى . ثم جاء المحدثون وجاروهم فى رأيهم ، وعلى رأسهم المستشرقون المتوفرون على دراسته ، أو على جوانب منها . أمثال المستشرق الفرنسى ه . ديرينبورج H. Derenbourg . والإنجليزى ه . ك . كاي H. C. Kay . والروسى كراتشكوفسكى J. Kratchkovski — أما المستشرق پول كراوس Poul Kraus التشيكوسلوفاكى ، فهو وإن لم يدرس عمارة دراسة تخصص كما فعل السابقون ، فقد قابلته أكثر من مرة ، وناقشته فى هذا الأمر ، وأطلعته على جملة آراء الباحثين القداماء والمحدثين فى عقيدته ، ورأى الخاص فى هذا الصدد . فأهمنى عدة أسابيع يبحث فيها هذا الموضوع فى روية وأناة ؛ ليكون عادلاً فى حكمه على عقيدة الرجل . وحين التقينا وجدت هذا الأستاذ يشد على يدى مهنئاً ، ويعتبر ما انتهت إليه من القول بتشيعه تصحيحاً لخطأ تاريخى ذاع بين الناس ، فتناقلوه دون أن يكلفوا أنفسهم عناء تعمقه واستقصائه ، ليقفوا على مبلغ زيفه أو صوابه .

• على الرغم من دراستنا ودراسة غيرنا لعمارة النبنى ، فيبدو لى أنها دراسة لم تحط به وبآثاره إحاطة وافية مستقصية . فجملة القول فيه أنه : متآمر ، فقيه ، شاعر ، كاتب ، مؤرخ .

وعندى أن صفة التآمر قد أخذت حقها من البحث والدراسة والتقوى

في كتب الشرقيين والغربيين ؛ لأنها تأسس صلاح الدين ، كما تأسس الصليبيون .
وقد برح الخفاء فيما يختص بها ، حين اعترف بها عمارة وأعوانه ، وقد كلفتهم
جميعاً حياتهم كما رأينا .

أما صفته كفقيه شافعي متخصص في باب الفرائض (الموارث) فقد
لحقته لقوله بأنه صنف كتاباً في الفقه على مذهب الشافعي يقرأ في اليمن .
فإذا التمسنا هذا الكتاب لانجده ، ولا نجد من ينقل عنه . بل لانجد من
رآه ، أو سمع به ، أو أضاف صاحبه إلى زمرة الفقهاء . ولهذا فنحن
مضطرون إلى أن نوقف الحديث عنه كفقيه ، إلى أن نعثري هذا
الكتاب .

وقد تعرضت لعمارة كشاعر على ضوء ديوانه المخطوط بمصر ،
والختارات المطبوعة منه . والشئ المؤكد أن دراسته على هذا النحو لا تعتبر
كاملة ؛ لافتقارنا إلى نسخ الديوان المخطوطة الموجودة حالياً في مكتبات :
روسيا ، وألمانيا ، وكوبنهاجن . ويحدوني أمل كبير في الحصول على صور
لهذه النسخ ، ثم نشر هذا الديوان . ومن ثم يكون حديثنا عن عمارة الشاعر
أقرب إلى الكمال .

أما عمارة الكاتب فلم نقرأ له غير تسع رسائل أدبية فقط ، ولم نعرف
له سواها . وأكبر الظن أن له غيرها ، قياساً على أنه عاش حياة أدبية حافلة
بالشعر والنثر ، وأن بعض شعره قد ضاع ، بشهادته ، وشهادة غيره ، فربما
ضاع نثره أيضاً . وبما يقوى هذا الافتراض أن الرسائل التسع المذكورة
قد وردت في النسخة الخطية الوحيدة بعنوان : « ومن ترسلانه » . ومن
يدري ؟ فقد تظهر هذه الرسائل المفقودة يوماً ، وعندها يمكن أن يكون
كلامنا على أدبه النثري أوفى وأتم .

وعمارة اليمنى معتبر من عداد المؤرخين ، حين عرض جانباً من جوانب الحياة المصرية الفاطمية مصوراً في كتابه : النسكت المصرية . كما وضع ملخصاً لأحداث اليمن معروضا في كتابه : تاريخ اليمن .

وهو في نظر بعض الباحثين القدماء يعتبر مؤرخاً للشعر والشعراء أيضاً . فالعماد الكاتب — مثلاً — يتحدث في الخريدة عن جماعة من شعراء اليمن « ذكرهم عمارة اليمنى في تصنيف له عن مجموع شعر اليمنيين » . وكذلك فعل غيره معتمداً على هذا التاريخ المنسوب لعمارة . فأين هذا المصنف ؟ لا أدري .

ألم أقل بأن حديثنا عن عمارة الفقيه ، الشاعر ، الكاتب ، المؤرخ لا يزال ناقصاً ؟ بلى .

* * *

ومهما يكن من شيء ، فإن عمارة ، وإن لم يدرس بعد الدراسة الواعية المستوعبة التي نريدها له ، فما لاشك فيه أن هذا البحث عن (عمارة اليمنى) قد أخذت به نفسى ، وجعلته باكورة تفكيرى في بدء حياتى . وحاولت — ما استطعت — أن أوفيه حقه بحثاً وتمحيصاً على قدر الإمكانيات التي توفرت لى . واعتبرته محاولة مبدئية لكشف النقاب عن الشخصية الأدبية لمصر الفاطمية .

وفى الختام أحمد الله الذى بنعمته تتم الصالحات .

الفهرس

الصفحات	الموضوعات	الأبواب والفصول
ص ٣ - ٥	تصدير . . .	بسم الله الرحمن الرحيم
١٥ - ٧	مقدمة . . .	
٢٤ - ١٦	مصادر البحث . . .	
٦٦ - ٢٥	تفصيل حياة عمارة . . .	الباب الأول :
٤١ - ٢٦	حياته في اليمن . . .	الفصل الأول
٤٧ - ٤٢	تنقلاته بين الحجاز واليمن ومصر	الفصل الثاني
٦٦ - ٤٨	حياته في مصر . . .	الفصل الثالث
١٠٢ - ٦٧	مذهبه الديني والسياسي . . .	الباب الثاني :
٧٢ - ٦٨	عمارة سني شافعي . . .	الفصل الأول
٨٠ - ٧٣	الرد على النصوص السابقة . . .	الفصل الثاني
١٠٢ - ٨١	عمارة شيعي . . .	الفصل الثالث
٢٠٣ - ١٠٣	آثاره الأدبية والعلمية . . .	الباب الثالث :
١٦٨ - ١٠٦	عمارة الشاعر . . .	الفصل الأول
١٨٥ - ١٦٩	عمارة السكاك . . .	الفصل الثاني
٢٠٣ - ١٨٦	عمارة المؤرخ . . .	الفصل الثالث
٢١٩ - ٢٠٤	تذييل . . .	
٢٢٣ - ٢١٩	خاتمة . . .	